3 1142 00314 7785

NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

می زیادة

قعلیخ

جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

Fahmī, Mansūr

محاضرات

Muhadaratun ʿan Mayy Ziyādah

عن

مي زيادة

ألقاها

الدكتور

منصور فهمي

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

١٩٥٤

١٩٥٥

Near East
PJ
7876
.I9
.Z6
c.1

مقدمة

وجدت بين «مى» والمرحوم «يعقوب صروف» صلة كانت تبدو عند الأولى فيما يحفظ من مظاهر الاجلال والاعتراف بأستاذية ذلك الشيخ العالم الجليل، وتبدو عند الثانى فيما أحاطها به من رعاية وعطف يفيض بهما قلب رائد علمى وأستاذ صادق، له أن يفتخر ويعتز بكل مروض نابغ وفى، فمن كتاب لها إلى يعقوب صروف فى سنة ١٩١٩ — بعد أن طالعت مقالاته فى مجلة «المقتطف» عن بحيرة قارون بعنوان «فتاة الفيوم» نقرأ ما يلى: (١)

«... وقد أدى بى ذلك إلى مطالعة كثير مما كتبته عن المصريين القدماء وآثارهم وفنونهم. وكل فصل أجمل من ماضيه. لا شك عندى فى أن كل كاتب يتمنى أن يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته، وأتمنى أن ينالنى ما نال باحثة البادية (٢) من حسن الحظ، لأن المخلصين قليلون، حتى بعد موت الكاتب. العداء له، والغيرة منه، وتعمد تصغير شخصيته، والنيل من مقامه، يبرز إلى الوجود بعد سكونه فى قلب الثرى... نعم أتمنى أن يأتى بعد موتى من ينصفنى، ويستخرج من كتاباتى الصغيرة، المتواضعة ما فيها من روح الاخلاص، والصدق والحمية، والتحمس لكل شىء حسن، وصالح وجميل لأنه كذلك، لا عن رغبة فى الانتفاع به. وقد قال قوم إن هذه صفة حسنة. وإذا كانت لى صفة فهى تنحصر فى هذه، وأنا سعيدة بها لأنها كل شخصيتى... بل أتمنى أن أموت فى حياتك أنت لتقوم لى بذلك العمل المبارك، فأكون خالدة بخلود قلمك الذهبى لا باستحقاقى».

كتبت «مى» ما تقدم إلى يعقوب صروف، الذى كانت تلقبه فى رسائلها

---

(١) رسائل مى منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١.

(٢) هى ملك حفنى ناصف التى كتبت كتابا إصلاحيا فى سبيل المرأة والأسرة وكتبت عنها «مى» كتابا أسمته «باحثة البادية» أنصفتها فيه وقدرتها تقديراً حسنا.

اليه بـ «أستاذى العزيز» ، وتارة بـ « ياذا التاج والصولجان » ،وتمنت فيما كتبت أن ينصفها الناقدون ، ويقدروا ما كان لها من روح الإخلاص والتحمس لكل جميل . والآن وقد دعانى صديقى العلامة السيد ساطع الحصرى مدير معهد الدراسات العربية العالية ، أن ألقى بضع محاضرات عن « مى زيادة » بعد أن أصبحت هى فى جوار الله ، وبعد أن انقطعت أنا الآخر منذ زمن طويل عن القاء المحاضرات لطلبة العلم والأدب ، فهل أستطيع يا ترى أن أحقق لها ماتمنت ، وأجلو للعلم والمتعلمين صورة صحيحة تتوضح بها شخصيتها ويبدو منها نبوغها ولون أدبها النسائى الرفيع ، وغزارة مادتها العلمية الواسعة ، كما تظهر دقة ذوقها الفنى المرهف وتعبر عن هزات « نفس لينة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكى لمرور سحابة زاهية فى الأفق الأزرق »(١)

أحاول ذلك وعسى الله أن يوفق ؟

منصور فهمى

---

(١) وصف لى لنفسيتها فى البحث الذى صدرت به ديوان «حلية الطراز» لعائشة التيمورية ص ٣٣ (طبعة دار الكتاب العربى)

عائشة التيمورية

ليس من سبيل إلى ذكر النهضة النسوية المعاصرة فيمن يمثلها من النساء فى شرقنا العربى الحبيب دون أن نذكر « ميا » ، وليس من سبيل أن تمر صورة « مى » الكاتبة الأديبة ، على خاطر ناقد أو أديب ، دون أن يمر بنفسها طيف بعض الرائدات اللاتى سبقن « مى » فتناولن الأدب ، وتحدثن عن الاصلاح وعن المرأة ، كالكاتبتين الشاعرتين « عائشة التيمورية » و« ملك حفنى ناصف » المعروفة باسم « باحثة البادية ». وليس ذلك لأن « عائشة » شاعرة ، ولها شخصية مميزة فيما كتبت ، وليس لأن « ملك » كاتبة اجتماعية ومصلحة تناولت بقلم عربى بين متين عدة موضوعات ، تتصل بنواحى الاصلاح الاجتماعى . بل لأن « ميا » نفسها قدرت فى صدق مكانة هاتين الكاتبتين اللتين كانتا فى المقدمة لرائدات هذا العصر الحديث فألقت عنهما المحاضرات ، ودونت عن آثارهما رسالتين تدخلان فى البحوث الممتعة التى تصوغها كاتبة نابغة عن كاتبتين شهيرتين قدرتهما تقديراً .

ومن أجل هذا أتقدم بالحديث عن عائشة ، وأذكر فى غضونه « ميا » حسبما يقتضى الحال ، قبل أن أحصر الحديث فى آثارها ونواحيها اللامعات من فكر وقلم .

حياة عائشة :

قالت « مى » : (١) دعتنى جمعية فتاة مصر الفتاة فى الشتاء الماضى (٢) إلى إلقاء محاضرة على أعضائها فى الجامعة المصرية ، فوعدت وخطر لى أن خير موضوع أتخذه هو شخصية نسائية ندرسها معا ، فتعرض لنا فى سياق

---

(١) و (٣) من بحث لمى عن عائشة التيمورية فى شخصيتها وشاعريتها صدر به ديوانها المسمى « حلية الطراز » وقامت بنشره مطبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٥٢ .

البحث موضوعات جمـــة ، فى الأخلاق والأدب والإجتماع ، بمحصها قدر المستطاع ، بينما نحن نرسم من المرأة صورة شيقه فنسجل للحركة النسائية فى هـــذه البلاد مفخرة أخرى تثير فينا الرغبات ، ونستمد من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعا . . . وما خطر لى ذلك إلا وصحبه اسم شجى يحيا دواما بزفراته الحارة المنغومة . زفرات تناقلتها الأصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطا جميلا حين كانت صورة المرأة سديما محجوباً وراء جدران المنـازل وتكتم الاستتار .. وكنت كلما دققت نمت التيمورية فى ذهنى وتفردت صورتها أمامى . . . »

إذن فهى معجبة بعائشة لأنها « طليعة اليقظة النسوية فى هذه البلاد . »(١)

فمن تكون عائشة . . ؟

سيدة كريمة نشأت فى بيت مجدوعز ، تحوطه الرفاهية والترف .. واتصلت بأوساط الأمراء والنبلاء والمرأة ، مما جعل أدبها ومظاهر حياتها فى مستوى يسمو عن السوقية والابتذال .

ولدت بالقاهرة فى أواخر عصر محمد على سنة ١٨٤٠ ، وتوفيت عن نحو أربعة وستين عاما فى شهر مايو سنة ١٩٠٢ . وعلى ذلك فقد شهدت « عائشة التيمورية » تطور مصر فى عهد سبعة من حكامها : محمد على ، وابراهيم ، وعباس الأول ، وسعيد واسماعيل وتوفيق ، وعباس الثانى . وأصل الشاعرة تتقاسمه عناصر ثلاثة : كردى وتركى وشركسى . وذلك أنه كان من رجال الوالى « محمد على الكبير » رجلان من خلصائه ، أحدهما كردى ، وهو محمد بك تيمور كاشف بن اسماعيل كرد بن على كرد ، من ضباط الجيش ، ومن الذين كانت لهم اليد الطولى فى استئصال شأفة المماليك ، .. والآخر تركى وهو عبد الرحمن أفندى الإسلامبولى تولى فى زمن السلطان سليم الثالث

---

(١) شتاء سنة ١٩٢١ .

منصب رئيس كتاب الديوان الهمايونى . فلما جاء إلى مصر كانت له الحظوة عند الوالى محمد ...على وقد تزوج محمد بك تيمور كاشف السيدة «عائشة خاتون» كريمة « عبد الرحمن افندى الإسلامبولى » فكان هذان الرجلان جدى السيدة عائشة عصمت التيمورية .. (١)

أما والدها فهو إسماعيل تيمور باشا تقلب فى المناصب الرئيسية زمانا طويلا بين حكم الوالى محمد على الكبير وحكم الخديو إسماعيل ، وبقى فترة يرأس القلم الإفرنجى للديوان الخديوى . وأما والدتها فشركسية الأصل . وأما الشاعرة نفسها فمصرية المولد والنشأة والتربية والمقام .(٢)

على أن عائشة الشاعرة والكاتبة برغم ما يتقاسم أصلها بين الكردى والتركى والشركسى فإن اللغة العربية مهرت نفسيتها بطابعها المكين . وصبغت قولها بصبغتها الظاهرة . وبذلك كانت فى ميدان العروبة من رائدات الشعر النسوى العربى الحديث، لأن اللغة حين تتغلغل أساليبها وآدابها وموحياتها فى النفوس تصبح تلك النفوس خاضعة لتبعية تلك اللغة وسلطانها وإن يكن الشخص شديد صلة بجنس من الأجناس .

ولئن كانت عائشة شاعرة لها مكانتها فى الشعر العربى . فقد كانت فتاة ثائرة بقدر ما تستطيع فتاة أن تنطلق أو تثور فى أيامها وفى بيئتها على المتأصل من التقاليد .

فأمها كانت تريدها على أن تكون ربة بيت وسيدة قصر فى العلية بين ربات الخدور ، وتود لها أن تصبح كوكباً لامعاً فى سراة المجتمع النسائى الماهر فى فنون البيت والتطريز .

ولكن الفتاة كانت تريد أن تكون ربة قلم وخدن كتاب ، وذات رأى فى المحيط العام . وشجعها أبوها على ذلك لأنه كان ميالا إلى العلم والأدب . فألف

---

(١) أنظر حلية الطراز ص ١٤ من قلم حفيدها الأستاذ كمال زادة .

(٢) من فصل الأستاذ أحمد كمال زادة حفيد الشاعرة . فى ديوان « حلية الطراز »

كتابا جمع فيه خلاصـــة مطالعاته . كما وضع لأسرته تاريخا باللغة التركية . وكون مكتبة وكان هذا الميل وما تابعه من توريث واستعداد من حظ شاعرتنا ومن حظ آل تيمور (١) فيما بعد ومن حسن حظ الأدب .

ولما تآزرت الأقدار مع توجيه والد عائشة على إذكاء مواهبها الأدبية لم تشعر الفتاة أن إقبالها على الشعر يخرج بها عما ينبغى أن تتحلى به الفتاة من التعفف والاحتشام ، فى حين كانت أمها ترى أن فى ذلك تقليـــداً لأعمال الرجال . وأن فيه خروجا عما ينبغى أن تكون عليه المرأة . وتشير الفتاة إلى ذلك الأمر من نفسها ومن أمها قائلة فى أبيات رقيقة فيها مفاخرة ولا تخلو من غرور تحوطه براءة وسذاجة :

بيد العفاف أصون عز حجابى ... وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقريحة ... نقـادة قد كملت آدابى
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر ... قبلى ذوات الخدر والأحساب
. . . . . .
فبنية «المهدى» و «ليلى» قدونى ... وبفطنتى أعطيت فصل خطابى (٢)
. . . . . .
فجعلت مرآتى جبين دفاترى ... وجعلت من نقش المداد خطابى
كم زخرفت وجنات طرسى أنملى ... بعذار حظ أو أهاب شبابى
. . . . . .
ما ضرنى أدبى وحسن تعلمى ... إلا بكونى زهرة الألبـاب
ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى ... وطراز ثوبى واعتزاز رحابى
ما عاقنى خجلى عن العليـا ولا ... ســـدل الخمار بلمتى ونقابى

---

(١) المرحوم أحمد باشا تيمور أخ الشاعرة عالم ومحامة كبير وابنه المرحوم محمد تيمور أديب وشاعر مات فى شرخ الشباب . وزميلنا محمود تيمور من أبرز الأدباء فى فن القصص .

(٢) بنية المهدى هى علية بنت المهدى العباسى ، وليلى هى ليلى الأخيلية وكلتاهما ممن نبغن فى الشعر والأدب .

على أن ثورة عائشة التيمورية تتوضح وتبرز عندما تقحم شاعريتها فى أساليب الغزل، إذ يكاديكون شعرها الغزلى مستأثراً بنحو نصف مانظمت فى اللغة العربية . وحقاً إن فى غزلها وإرسال أشواقها ما يؤثر فى النفس لسهولة فى لفظه ، ورقة فى نغمه ، وانسجام فى موسيقاه ، مما قد يدل على إصابة فى حسن إدراك معنى الحب ، وعلى حساسية مرهفة لتلك العاطفة التى أعدت نفوس النســـاء لاستقبالها والسكون اليها ، متى تهيأت الأسباب وواتت الظروف لهذا الاستقبال وذلك السكون . وهذه الثورة الجريئة المعلنة فى تناول الغزل فى الشعر وفى لغة الألحان من امرأة عاشت محجبة بين هؤلاء السراة من أهلها، فى زمن الحجاب، واتصلت حياتها الكابرية(١) المرفهة بنظام العزلة عن مجتمع الرجال، قدفرضته أحكام التقاليد فرضاً محتوماً . أقول إن هذه الثورة تبيح للدارس أو الناقد أن يتساءل كل منهما كيف كان لعائشة أن تجول فى ميدان ذلك الغزل الدافق الذى استساغته ، وهتفت به جهراً ، وأن أنكرته البيئة التى تعيش فيها ، وأباه عليها العرف السائر حينذاك ... أيكون ضرب من ضروب الصلة بمن هو أهل لهذا الغزل ، أو بمن هو حرى بهذا الحب من الرجال ؟ أيكون هو الحرمان من حرية الاختلاط بمن ترغب النفس فى الاختلاط بهم من الناس ، قد أدى إلى كبت العواطف ، وأدى الكبت إلى التنفيس عنهـــا وتصعيدها فى التخيل ، والشعر ، والقـــول المنغوم . ؟ أيكون هو التسامى بالغرائز الجنسية الدافقة الحبيسة فيعمل الاستعداد الفنى والأدبى لتحويلها وتبخيرها إلى أدب وشعر . . ؟ ربما يكون كل ذلك أو بعض ذلك، على أنه مهما يكن السبب فان النتيجة تجعل من التيمورية طليعة فى الثائرات .

شعرها فى الغزل :

عنـدما تشببت التيمورية فى سعة وفى جرأة وعلانيـة ، فخالفت بذلك

(١) الكابرية كلمة نضعها لعبارة الارستقراطية الفرنسية الأصل .

المألوف من إضمار عاطفة الحب عند النساء بوجه عام وعند العربيات والمسلمات منهن بوجه خاص، نود أن نذكر لها من غزلها بعض المقطعات، على سبيل المثال فمن قولها :

أسيرٌ فى الحمى لم ترغبوه ... فقيرٌ للمراحم فارحموهُ
صحيح الجسم ذو كبد جريح ... وقلب فى لظى قد قلبوه
له صدر يجوز لكل فن ... ولكن قلبه قد ضيعوه
مليك فى الخصال، وعبد رق ... لمالكه، فرقوا واعذروه(١)

* * *

وقولها :

من ذا الذى أغواك حتى خنتنى ... ونبذت عهدى بعدما قاسمتنى
يا مالكا قلبى وما ملكتنى ... أين الوعود .. وأين ما بشرتنى
قد خاب من جدواك ما أملته

جهل العواذل حالتى فجلوتها ... خاضوا بسر مدامع أطلقتها
قالوا : بمهجته غرام، قلت ها ... شكوى بسر سريرتى أعلنتها
لولاك ما أعلنت ما أخفيته

ما بال قلبك لا يرق لحالتى ... ولكم رثى اللاحى ورق للوعتى
قل لى بحقك : هل أتيت بزلة ... حتى أقاسى فى الحياة منيتى
أو خنت عهداً كنت قد راعيته(٢)

* * *

وقولها :

حىِّ الرفاق وصف للحى أشواقى ... وحدث الركب عن تسكاب آماقى
وبلغى يا صبا أن جزت نحوهمُ ... أنى مقيم على عهد الهوى باقى

(١) صحيفة ٢٠٨ حلية الطراز
(٢) « ٢١٩ « «

كيف اصطبارى وأحشائى بها حرق ... من جذوة مالها من حرها واقى
قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما ... لواعجا كحميم أو كغساق
هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهب ... وفى التنفس من آثار إحراقى (١)

وقولها لكى يترنم بما تقول (٢) :

تسهيد الشوق لقد غلبا ... ولذيذ النـــوم به سُلبا
والقلب شكا حزنا وصبا ... كم قلت إذا الشوق التهبا
من حر غرامى : واحربا

ظبى بالسفح من الـتُرك ... صنم فى الحسن بلا شرك
كم هاج فؤادا بالـترك ... كم صاد عزيزا بالفتك
وغنائم غزوته نهبـــا

كم راش سهاما للمقل ... وأصاب فؤادا لم يقل
مازال فؤادى منـــذ بلى ... يهوى العسال مع العسل
ويقول : وصالك قد وجبا

جفنى والنوم قد اختصما ... ولدى عيناك قد احتكما
فبعز قوامك كن حكما ... فالحق لســـطوته رسما
وأراه نأى عنى وأبى

أعلام الحسن لقد رُفعت ... وجيوش الفتنة قد جمعت
جاءت للفتك فما رجعت ... عن حومتها حتى وقعت
مهج راحت إربا إرْبا

لله قـــوام أنحفنى ... برشاقتـــه قد أضعفنى
وحسام لحـاظ أتلفنى ... أترى منه من ينصفنى
إذ ضيع صبرى فيه هبا

---

(١) ص ٢٢٦ حلية الطراز
(٢) ص ٢٤٩ حلية الطراز

وقالت من المربعات للتغنى به من هذا السهل الممتنع :

مذ لاح بدرى مشرقا بعد البعاد ... وشفا بدرياق اللقا ألم الفؤاد
ناديت عد لى يا صفا فالأنس عاد ... جل الذى هنّى فؤادى بالمراد
هنّى المنازل يا صفا بحضورهم ... وتحملى فى الكون نفح عبيرهم
وترددى سحرا لشرح صدورهم ... ودعى القصور وعرجى بقصورهم
أرنا زمان الأنس ياوجه الحبيب ... واحذر حماك الله أن يدرى الرقيب
دعنى لأنى باللقا قلبى يطيب ... ودع العلاج ومايقول به الطبيب
فوحقه مالى سواه تَخَيُّلُ ... أبدا ولا لى عن حماه تحول
مالى له إلا هواه توسل ... فالحب أحسن مابه يتوصل (١)

وقالت :

كانت عناصر جسمى لايقاربها ... طلُّ السقام وقد أمسى بها وابل
وكيف لاوبقلبى زفرة وعنا ... وأعين الغيد تروى السحر عن «بابل»
والجسم من سقمه صدَّ العلاج فما ... أرى فؤادى لجرعات الشفا قابل

* * *

كيف الشفاء ومن أهواه فارقنى ... هيهات إن الجوى بحر بلا ساحل
جاء الطبيب يداوينى فقلت له : ... دع عنك طبى ولا تتعب بلا طائل
تعذر الطب والبرء انزوى ونأى ... عنى ولونى من فعل الهوى حائل

* * *

إن كنت تنكر مابى من جوىً وضنى ... فجس نبضىَ فهو الشاهد العادل
فقال لى بعد جس النبض : واأسفا ... الداء إن عظمت أعراضه قاتل (٢)

---

(١) ص ٢٢٤ حلية الطراز
(٢) ص ٢٢٤ « «

شعرها الرثائى :

وإن المستطلع الممحص لما تقدم من هذه الأمثال من شعر التيمورية لايسعه إلا الحكم بأنها امرأة تحسن تصوير عاطفة الحب إحسانا ، وترق فى إبرازها وتدق رقة ودقة جديرتين بالمرأة وبالفتاة حين هيأتها الأقدار منذ الأزل للحب وحين تطوعها الأنوثة للغرام والهيام .

ولئن كان شعرها الغرامى هو من أطيب ماقالت، فإن شعرها الذى تفيض به الأمومة ، وتنساب فيه أحاسيس الحنان الجريح والفجيعة الملهبة ؛ لهو كذلك من أروع الشعر وأعلاه وأصدقه. وعلى سبيل المثال نذكر رثاءها لابنتها الذى تشير فيه إلى ماتجرعته من كؤوس الأسى وما أصابها من نيرانه المستعرة ، وما أثقل نفسها من ركام الألم. وفى هذا الرثاء توقيت للفجيعة ، وتصوير لعجز الطب ويأس الطبيب ، وفيه صورة للتعلق بالعيش وبالحياة ، وتحنان لأطايبها ومحاسن ذكرياتها وجميل أمانيها ، وفيه تتمثل الهزيمة حيال الحزن، وغلبته والاستسلام له عند فقد الأحباء دون تفريط فيما يعتز به المؤمن من الرضا بقضاء الله وتقديره ، وفيه الأمل المخفف رجاء اللقيا فى حياة أخرى هى الحياة الدائمة . وعلى الجملة نجد فى تلك القصيدة مجموعة مما يصور العواطف النابعة لثكلى مؤمنة مسلمة تشعر بالحب الدقيق ، وتتحلب من عميق نفسها الوفاء للحزن الحقيق . ولنثبت فيما يلى ذلك الرثاء كله لقيمته ومكانته فى الأدب الرفيع، قالت (١) :

إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما ... ولكل قلب لوعة وثبور
ستر السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذى أهوى وجرّ عنى الأسى ... وغدت بقلبى جذوة وسعير
ياليته لما نوى عهد النوى ... وافى العيون من الظلام نذير
ناهيك مافعلت بماء حشاشتى ... نار لها بين الضلوع زفير

(١) صحيفة ٢٠٩ من حلية الطراز

لو بث حزنى فى الورى لم يلتفت ... لمصاب «قيس» والمصاب كثير
طافت بشهر الصوم كاسات الردى ... سحرا وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتى فتغيرت ... وجنات خد شانها التغيير
فذوت أزاهير الحياة بروضها ... وأنقد منها مائس ونضير
لبست ثياب السقم فى صغر وقد ... ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا ... إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه ... بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له ... عجل ببرئى حيث أنت خبير
وارحم شبابى إن والدتى غدت ... ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حرّ مت طيب الكرى ... تشكو السهاد وفى الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير
أماه قد كل الطبيب وفاتنى ... مما أؤمل فى الحياة نصير
لو جاء عراف «اليمامة» يبتغى ... برئى لرد الطرف وهو حسير
يا روع روحى حلها نزع الضنا ... عما قليل ورقها ستطير
أماه قد عز اللقاء وفى غد ... سترين نعشى كالعروس يسير
وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى ... هو منزلى وله الجموع تصير
قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى ... جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدى بازاء لحدى برهة ... فتراك روح راعها المقدور
أماه قد سلفت لنا أمنية ... يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مذ بان يوم البين وهو عسير
عودى إلى ربع خلا ومآثر ... قد خلفت عنى لها تأثير
صونى جهاز العرس تذكارا فلى ... قد كان منه إلى الزفاف سرور
جرّت مصائب فرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد ونفذ المسطور
والقبر صار لغصن قدى روضة ... ريحانها عند المزار زهور

أماه لا تنسى بحق بنوتى ... قبرى لئلا يحزن المقبور
ورجاء عفو أو تلاوة مُنزل ... فسواك من لى بالحنين يزور
فلعلما أحظى برحمة خالق ... هو راحم برٌّ بنا وغفور
فأجبتها والدمع يحبس منطق ... والدهر من بعد الجوار يجور
بنتاه ياكبدى ولوعة مهجتى ... قد زال صفوٌ شأنه التكدير
لا توصى ثكلى قد أذاب رنينها ... حزن عليك وحسرة وزفير
قسما بغض نواظرى وتلهفى ... مذ غاب إنسان وفارق نور
وبقبلتى ثغرا تقضى نحبه ... فحرمت طيب شذاه وهو عطير
والله لا أسلو التلاوة والدعا ... ما غردت فوق الغصون طيور
كلا ولا أنسى زفير توجهى ... والقد منك لدى الثرى مدثور
إنى ألفت الحزن حتى إننى ... لو غاب عنى ساعتى التأخير
قد كنت لاأرضى التباعد برهة ... كيف التصبر والبعاد دهور
أبكيك حتى نلتقى فى جنة ... برياض خلد زيَّنتها الحور
إن قيل « عائشة » أقول لقد فنى ... عيشى وصبرى والاله خبير
ولهى على « توحيدة » الحسن التى ... قد غاب بدر جمالها المستور
قلبى وجفنى واللسان وخالق ... راض وباك شاكر وغفور
متمتِّعت بالرضوان فى خلد الرضا ... ما أزينت لك غرفة وقصور
وسمعت قول الحق للقوم ادخلوا ... دار السلام فسعيكم مشكور
هذا النعيم به الأحبة تلتقى ... لا عيش إلا عيشه المبرور
ولك الهناء فصدق تاريخى بدا ... « توحيدة » زفت ومعها الحور

سنة ١٢٩٤ هجرية ٧ ٤٣٣ ٤٨٧ ١٢٢ ٢٤٥

إن هذه المرثية المؤثرة المفعمة بمعانى الأسى والحزن العميق ، قد احتفظت لنفسها بمكان مرموق بين ما كان يفرض على تلاميذ المدارس أن يستوعبوه فى ذاكرتهم كمثل للشعر العربى الرفيع الصادق ، كان لها أثر كبير فى التكوين الأدبى لابن أخ الشاعرة أديبنا القصصى الكبير وصديقنا وزميلنا العزيز

السيد محمود تيمور أمدالله فى عمره فكتب يناجى ويقول فى كلمته لعمته(١) :

« إليك يا عمتاه أحبر هذه الأسطر القلائل ، محاولا أن تبعث من غياهب الماضى السحيق ذكريات ما أعزها على ، وأن أستشف من خلال الأسى المطوى صوراً حبيبة ترف إليها العين ويخف القلب، وإنك لتتراءين لى فى هذه الصورة تحف بك مهابة . ويلوح عليك إشراق .

أحق أنى أبتعث منك أطيافا وذكريات ، واستثير صوراً وخيالات . . أم الحق أن روحك الحى الخالد يرفرف حوالى ، وأنى ما زلت أتلقى نفحات ذلك الروح فى توهجه العلوى . .

مهما يكن من أمرى معك فى حياتك وبعد مماتك ، حقيقة كنت أو خيالا، رسما أنت أو ذكرى ، طيفا تجليت أو نفحة روح — فقد استشعرت دائما وجودك بجانبى ، تطالعينى فى مختلف أطوارى وتسايرينى من حيث أدرى ولا أدرى، فتكونين لى نعم الصاحب الأمين .

منذ النشأة الأولى وأنا أستمد منك العون فى ذلك الجانب المرموق من حياتى ، جانب النزعة الأدبية التى أعتز بها وأغالى ، فلأنت الآخذة بناصرى فى طليعة من كان لى عوناً من أب وشقيق وصديق . . . . إنى لأتمثل الآن ، وأنا فى شيخوختى الواهنـــة ، تلك اللمسات الوادعة من أناملك الرقاق ، فأشعر من فورى ببهجة الطفولة وصفائها يعاودانى ، وكأنى بين يديك أسمع وأرى . . .

ولقد كانت قصائدك باكورة ما قرأت وما حفظت، فما أنسى يوم أقبل على أبى يدفع الى ورقة خط فيها ابياتا ضبطها بالمداد الأحمر، وما لبث أن قال لى اقرأ . فأطعت متمهلا فى القراءة خشية العثار :

بيد العفاف أصون عز حجابى وبعصمتى أسمـــو على أترابى

---

(١) أنظر حلية الطراز ص ١١ وما بعدها

وواصلت تلاوتى ، وعن يمينى أبى ، يرنو إلى وهو يصوب الخطأ ، ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . . . وهكذا بلغت من شعرك أول قبسة من نور الفضيلة ، وأسبق نفحة من مكارم الأخلاق .

وأذكر أننا نحن الأشقاء الثلاثة ، كنا فى منصرفنا من المدرسة إلى البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية فى أهدافها ومراميها أنشودة الطريق ، نتسلى بالترنم بها فى نشوة وابتهاج .

وعلى الرغم مما كان لقصائدك من مكانة كريمة على ، وما كان لها من أثر بالغ فى نفسى ، فانها قد تضاءلت وتخلفت يوم أملى علىَّ أبى مرثيتك لابنتك التى تقولين فيها ..

إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما ... وبكل قلب لوعة وثبور

لقد أطال أبى جلوسه إلى وهو يمليها على ، حتى بلغت صفحتين كاملتين ، دون أن يضيق هو بالإملاء ، ودون أن أجد فى نفسى كذلك ملالة ... وفى هذه المرة لم يلق أبى صعوبة فى الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات قصيدتك تنساب فى وجدانى انسياباً ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر كأنما يبعثها تيار خفى .

أكنت أفقه معانى هذه القصيدة حقاً .. لم أكن يومئذ لذلك أهلا ، ولكننى أحببت القصيدة ما وسعنى أن أحب ، وزاد بها ولوعى يوماً بعد يوم إذ أثارت بين جوانحى — جوانح الصبى الغرير — مشاعر دفينة ، فاتخذت منها شجياً تطيب به نفسى كلما أسمعته نفسى .

بهذا تعلمت منك ياعمتاه فى مطلع أيامى ان الأثر الفنى الحق ، يقدر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر إياه ، قبل أن يقدر برجحانه فى موازين العقول والأذهان ، فالفن الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم وتفاوت مداركهم صدى فى الأفئدة ، وتجاوباً فى المشاعر .

ولم تقتصر رقة العاطفة عند التيمورية وصدقها على الأمومة المفجوعة ،

ولكن كان الأمر كذلك عند البنوة الملتاعة لفقد الأب والأم . فمن قولها في رثاء ابيها :

يا لهف عامرة القصور عليه إذ ... بات الأمير على فراش عزاء
أمسى لفيف النائحات تحيطه ... بدلا عن النـــدماء والجلساء
يا حسرة ابنته إذا نظرت لها ... بمماته عين من البأساء
قالت : وحق سنا أبوتك التى ... كانت ضياء الامن للأبناء
مذ ما فقدتك والحشا متسعر ... والجسم منتحل من الضراء
يا كنز آمالى وذخر مطالبى ... وسعود إقبالى وعين سنائى
يا طب آلامى ومرهم قرحتى ... وغذاء روحى بل ونهر عنائى
أبتاه قد جرعتنى كأس النوى ... يا حرَّ جُرْعَته على أحشائى
أبتاه قد حشَّ الفراق حشاشتى ... هل يرتضى القلبَ الشفيق جفائى
يامن بحسن رضاه فوز بنوتى ... وعزيز عيشته تمام رضائى
إن ضاق بى ذرعى إلى من أشتكى ... من بعد فقدك كافلا برضائى
ياليت شعرى حين ما حل القضا ... هل كنت عنى راضياً أم نائى
لما قضى المولى ببعدك وانقضى ... أملى من الدنيا وقل عزائى
وجهت مبتهلا لربى وجهتى ... ليعم روحك منه بالنعماء (١)

* * *

ومن قول الشاعرة فى رثاء والدتها :

ذاقت مرير السقم من عهد الصبا ... حتى قضت أيامها تتوجع
رحلت وقد أفنى النزيف دماءها ... والقلب فى حسراته يتصدع
كم من طبيب لم يكل وطالما ... داوى ولكن داؤها يتفرع
كم ليلة باتت تساهر نجمها ... وتئن مما قد حوته الأضلع
حتى أتى أمر الاله لها : ادخلى ... لحـــداً وأمر الله لايسترجع

---

(١) صحيفة ٢١٦ حلية الطراز

يارب فاجعـــل جنة المأوى لها داراً بطيب نعيمها تتمتـــع

* * *

يامنهل التشتيت حسبك ماجرى فعيوننا قد أقسمت لاتهجع
ذهب الاحبـة واستقل ركابهم ياليت روحى ودعت إذ ودعوا
ياليتهم طلبوا الفـــداء فهذه روحى ولكن ليت ليست تنفع
وإرادة المولى تعـالى شأنه حتمت لنا هذا ، فماذا نصنع(١)

والتيمورية إذ ترثى ابنتها أو أباها أو أمها أو أختها أى من تحب لاتخونها شاعريتها فى تأدية حق الشعر من بعض الوصف لحالة من تبكيه ومن الاشارة إلى مرضه وحال الطب فيه، ومن تأثرها ومبلغ تقديرها للصلة بينها وبين من تقول فيه الشعر ، ومن ثورتها البائسة المهزومة على الموت مما يدخل فى مرثيها نبضات من العواطف الحية المتأثرة والمؤثرة .

وأن الشاعرة التى تشعرك من نفسها مجموعة من عواطف الأنوثة والأمومة والبنوة ، فيخرج من كل هذا طيب من القول الشذى الجذاب ، قد استطاعت أيضاً أن تخرج من الشعور بالدينونة ، والحس بالجمال ، والسكون إلى عوالم الغيب والمستور ، مما هو قريب لاستجابة نفسية المرأة المتسامية إلى الله والتواقة إلى المسلك الحسن ، أقول قد استطاعت كذلك أن تخرج شعراً فى الابتهالات والأخلاقيات والتصوف تحلو تلاوته ويطيب عطره .

فمن ذلك قصيدتها التى تعارض بها البردة وتقول فيها :

أعن وميض سرى فى حندس الظلم أم نسمة هاجت الأشواق من «اضم»
فجددت لى عهداً بالغـــرام مضى وشاقنى نحو أحبابى « بذى سلم »

* * *

حسبى من الحب ما أفضى إلى تلفى ومالقيت من الآلام والسقـــم
إنى رددت عنانى عن غـــوايته وقلت يانفس خلى باعث النـــدم
ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ يدعو المنادى فتحيا الناس من رجم

(١) حلية الطراز ص ٢١٧

نعم الحبيب الذى منّ الرقيب به ... وهو القريب لراجى المجد والنعم
روحى الفداء ومن لى أن أكون له ... هـذا الفداء وموجودى كمنعدم
وماهى الروح حتى أفتديه بها ... وهى البغاث بغار الظلم والظلم
والعمر أفنيت ثقال الوزر لمحته ... وبددته صروف الدهر بالتهم
أين الرشاد الذى أعددته لغد ... غويت عنه فزلت بالهوى قدمى

إلى أن تقول :

ومنة الله دين وصفه قيم ... بحجتى إن أخف يوم اللقا يقم
وما سوى فوز كونى بعض أمته ... ذخرا أفوز به من زلة الوصم
إلا التماسى عفوا بالشفاعة لى ... من خاتم الرسل خير الخلق كلهم
مددت كف الرجا أرجو مراحمه ... وقد حللت به فى بُهرة الحرم
محمد المصطفى مشكاة رحمتنا ... مصباح حجتنا فى بعثة الأمم
ياخير من أرتجى إن لم تكن مددى ... وازلتى يوم وضع القسط واندمى(١)

وقولها :

إلهى سيدى أنت الجليل ... بباب رجائك العبد الذليل
ضعيف الحال منكسر فقير ... كثير الغىّ ناصره قليل
فأنت لذنبه رب غفور ... كريم صفحه السامى جزيل

* * *

فإن يك جرم عبدك ليس يحصى ... فحسن رضاك ليس له عديل
فأين أفر من شيطان نفسى ... ومن أمّارتى أين السبيل
عظيم العفو إن عظمت ذنوبى ... فلى أمل لعفوك لا يزول

ومن قولها كذلك :

أتيت لبابك الغالى بذلى ... فان لم تعف عن زللى فمن لى

(١) صحيفة ٢٦٩ و ٢٧٠ من حلية الطراز (٢) صحيفة ٢٧٣ من حلية الطراز

مقراً بالجناية وامتثالى ... لاسر النفس فى عقدى وحلى
ومعترفا بأوزار ثقال ... أقاد لحملها طوعا لجهلى
أفر بزلتى من قبلُ كى لا ... تقر جوارحى بالذنب قبلى
أتيت ولى ذنوب ليس تحصى ... أقول لراحمى بالعفو كن لى

* * *

ضللت عن السبيل ولم أخله ... وهل يبدو الرشاد لعين مثلى
سعت نفسى لأن أمشى مكبّا ... على وجهى لطاعتها فويلى
أراك بلمتى ياشيب عظنى ... وقل: حان الرحيل غداً لعلى (١)

* * *

ولمن يمعن النظر فى شعر عائشة الدينى والابتهالى أن يذهب إلى أن صاحبة ذلك الشعر ذات نفس صافية منبسطة متهيأة للبوح ، وفضيلة الاعتراف بالزلات ، والشعور بحرقة الندم على ما يتعرض له المرء من خطايا ويقع فيه من ذنوب، ولو أن الشاعرة تبطن فى طوايا الضمير وتكتم فى أعماقه تفاصيل مايؤلمها ويجرح كرامتها أن تبديه للناس وتظهره فى المجتمع ، من تفاصيل الهفوات والزلات .

فضمير الشاعرة هو إذن من تلك الضمائر النابضة بالحياة يستشعر الوخز ويحس بألم التأنيب ، مما يدل على تمكن النزعات الدينية والأخلاقية من لبها وفى فؤادها ، ولو أن مباهج دنياها ومطالب عيشها قد تؤهل وتدعو إلى ما ليس ينسجم مع نزعات الدين ويتلاءم مع بعض مطالبه الصارمة .

والتيمورية إذ تتألم كثيراً لدقة فى شعورها وحساسيتها ، هى فى نفس الوقت آملة متفائلة لشدة إيمانها بالله ، وثقتها برحمته ، وحبها لرسوله وطمعها فى شفاعته . وهى تفاخر بدينها ، وتباهى بتعاليمه ، وتعتز بأدائه . وهى عفوة ومتسامحة ، تظهر ذلك فى كثير مما قالت وفى مناسبات أخلاقية موزعة فى

---

(١) صحيفة ١٩٣ من حلية الطراز .

شعرها الأخلاق وغيره . وهى تغلب نزعة الأسف على حياة تنقضى دون أن تتقى فيها الغواية والزلل ، ودون أن تصد النفس عن الهوى ودون مكافحة الانقياد لوساوس الشيطان. وعلى الجملة فالتيمورية تمثل لنا صورة من فضليات النساء فوق ماتبعثه من صورة لها بين البارزات فى الشعر والأدب .

شعر المجاملات والمناسبات :

أما شعر التيمورية الذى قيل فى مجاملات من التهانى والتعازى ، وفى مختلف الأحداث التى يتخذ الناس منها سنداً لاظهار صداقتهم ، وإبراز مودتهم أو ليجعلوا منها وسيلة لصيانة الروابط الاجتماعية من التراخى والفتور ، فهو شعر جرى كثيره نحو الأمراء وذوى النفوذ ممن اتصلت بهم التيمورية أو اتصل بهم أهلها . وكثيراً ماخلا هذا الشعر من عبير العاطفة الصادقة .

وطالما يستبيح الناس ، فى سبيل المجاملة والمعاملة ، مالا تطمئن اليه النفس وترضاه . وقد يعللون لذلك بتعليلات تيسر لهم لونا من النفاق الاجتماعى المألوف ، وتهون صنوفا من الرياء والمداهنة ، فيذهبون إلى أن جهاز الحياة الاجتماعية قد يصاب بمساوىء الخشونة وأن دولاب العيش قد يعلوه الصدأ إذا لم يسعف هذا الجهاز بزيوت من الملاينة تتشابه مع النفاق ، وإذا لم يمسح هذا الدولاب بشىء من المداهنة يتراءى مع الرياء . ويصح أن تقبل هذه التعليلات من ذوى النفوس الكريمة المهذبة التى تبعث فيها دواعى التهذيب ونزعاته إيثار الحسنى والجميل . على أنها لا تقبل ممن تبتلى نفوسهم بالضعف وبالجبن فيكبتون فيها فضائل الصراحة وانطلاقها الكيِّس الجرىء فى الحق .

وفى تقديرى أن «التيمورية» نفس تهذبت وتعالت وأن تهذيبها وأدبها قد يكون له أثره فى امتصاص شاعريتها الزاهية ، والتضييق على عواطفها عندما تتناول شعر المجاملة فيبدو لونه باهتا ، وصوته خافتاً ، وقراره هابطاً خافقاً ومع ذلك فان بعض شعرها فى المجاملة عندما يتصل بباعث من العواطف لايخلو من نفحات الشاعرية كما لو رثت أو هنأت عزيزاً عليها وحبيباً إلى نفسها .

والآن فأمسك عن ضرب الأمثال والاسترسال فى القول عن شعر التيمورية فى المجاملة . وأقرر أن الظروف والمناسبات لم تضن على الشاعرة بما هو ملىء باللطف والرقة والجمال فى هذا الضرب من الشعر فتنشد ما يروق ويطرب . ومن أمثلة ذلك ما روته « مى » عن المرحومين توفيق اسكاروس والسيد محمد البيلاوى ، وكيل دار الكتب ونقيب الأشراف وكان ممن تعتز المجالس بحسن أحاديثهم ومحاضراتهم لوفرة حفظه للطرائف واللطائف من الآثار الأدبية ، ولحذقه وحسن القائه لها . كتبت «مى» فى ذلك تقول :

جاءت يوما بعض السيدات (ويظهر أن الغرض من مجيئهن أن يخطبن توحيدة ابنة التيمورية وهى تجهل ذلك) . فخفت «توحيدة» ترحب بهن ريثما تأتى والدتها . وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف : « أوحشتونا » إلا أنها كان بلسانها لثغة خفيفة قضت بأن تجىء أوحشتونا « أوحستونا » وهنا دخلت السيدة « عائشة » فسمعت الكلمة التى حرفها العيب اللفظى فمضت تشرح هذا العيب على هذه الصورة :

قال العواذل ماقالت مؤانسة « أوحستنا » أنها تجفو وذاك غلط
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطاً بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط

والآن حسبى أن أقف من شعرها العربى عند هذا الحد مما ذكرت ففيه ما يدل على ذوق الشاعرة ، ومدى مابلغت من مكانة فى الأدب الرفيع . ولعل من يستطيع أن يصور مبلغها منه ، فيما كتبت بالفارسية أو التركية يتيح لنفسه أن يحكم بأنها ممن يذكرن فى تاريخ الأدب العربى الحديث بتقدير مشرف .

نثرها :

أما نثر التيمورية فى لغة العرب فمظهره كتاب « نتائج الأحوال فى

الأقوال والأفعال» (١) وكتاب «مرآة التأمل فى الأمور» (٢) ومقالات نشرت فى جريدة الآداب والمؤيد من نحو ست وستين عاماً . ويغلب السجع المتكلف فى هذا النثر على الكاتبة حتى يتعب القارىء ويمله ، وتدخل الكنايات والمحسنات اللفظية إلى التيمورية من كل ناحية، ويتفتح فيها أبواب للاطناب والتطويل ، والجدال السليم الساذج ، ولدخول الأخطاء فى الوقائع واللغة وتراكيبها القويمة مما لا يستسيغه الذوق الأدبى السليم فى القديم والحديث ، ولو أن ذلك قد استسيغ فى مثل زمنها وجيلها من الكتاب . على أنه برغم ذلك ينتهى القارىء الناقد العادل بما لا يستطيع إنكاره على الكاتبة ، من سبق وفضل فى أبحاث أخلاقية وأدبية وفنية ، واجتماعية إصلاحية ، مما سأشير اليه ، فى سياق القول ، وفى حين تناسب الاشارة . ولا بأس أن أضع تحت النظر نصاً أو نصوصاً حرفية طويلة من مقدمة كتاب « نتائج الأحوال » نستدل بها على أسلوب التيمورية ، وعلى البواعث النفسية الدافعة لوضعها هذه القصة ، فضلا عما يكسبه المطلع من التزيد فى المعرفة لميولها ، ولتفكيرها ولتاريخ حياتها ولذلك اللون الكتابى الخاص بها .

كتبت عائشة : «وبعد فتقول ذات الجناح المكسور . عائشة عصمت بنت المرحوم إسماعيل باشا تيمور . إنى منذ انطوى وساد مهدى ، وجال على بساط البسيطة قدى ، وأدركت مواطن غوايتى ورشدى، ووعيت حرمة والدى وجدى ، أجد طفل قصدى شغفاً لرضاع اخبار من غير من الأمم ، وكهل جدى مائلا إلى استقصاء أحاديث من كان فى سالف القدم . فكنت اشغف بمسامرة الكبر من النســـاء لسماع احسن الخبر ، والتقط من تلك

---

(١) المطبعة المصرية القاهرة سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٧ م — (٢) مطبعة المحروسة وقد صدر هذا الكتاب الذى يقع فى ١٦ صحيفة أثناء حكم الخديوى عباس الثانى بعد سنة ١٨٩٢ فى مدى السنوات العشرة الأخيرة من حياتها .

النوادر أعاجيب القدر ، وأتأمل بمستطاع جهدى فيما يرد على من أنواع الجد والهزر ، وأقتطف مايسعه وعاء وعى من تمر ذلك السمر ، حيث لاطاقة لى على خلاف ذلك السماع ، ولا سبيل لسنى إلى التمتع بغير ذلك المتاع ، فلما تهيأ العقل للترقى ، وبلغ الفهم درجة التلقى ، تقدمت إلى ربة الحنانة والعفاف ، وذخيرة المعرفة والاتحاف ، والدتى تغمدها الله بالرحمة والغفران ، بأدوات التطريز والنسيج ، وصارت تجد فى تعليمى وتجتهد فى تفطينى وتفهيمى ، وأنا لا أستطيع التلقى ولا أقبل فى حرفة النساء الترقى . وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فاجد صرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة . وكنت التمس من شوقى قطع القراطيس وصغار الأقلام ، وأعتكف منفردة عن الآنام ، وأقلد الكتاب فى التحرير ، لأبتهج فى سماع هذا الصرير ، فتأتى والدتى وتعنفنى بالتكدير والتهديد . فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز قصورا » . وأريح القارىء قليلا من الاسجاع المتلاحقة والتكلف فى صناعة الألفاظ ، التى كانت مألوفة لأقلام عصر التيمورية وعلى أسماعهم ، لأكمل حديث الكاتبة عن نفسها وعن كتابها . فوالدها أشار على والدتها أن تترك عائشة لميولها الأدبية تحت إشرافه وللوالدة أن تتولى تربية شقيقتها الأخرى وأن توجهها التوجيه النسائى المألوف والمنشود . وعلى ذلك استحضر الوالد لعائشة أستاذين أحدهما يعلمها العربية والآخر يعلمها الفارسية ، وكان تعليمها العربية يعتمد على أسس من القرآن الكريم والفقه وكتب اللغة والأدب ، إلى أن فطنت لكتب التاريخ والسير . وتستأنف التيمورية الحديث لتقول « ولما تلوت أحاديث من مضى من السلف ، ووردت منهل أخبارهم ورود من أغترف ثم أعترف ، وعانيت مقادير الخلف ، وتأملت فى سير الأمم وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر من القدم ، وقد شاهدت والله فى نفسى ذات صدق هذا الخبر ، وكابدت لسوء حظى فى كهف العزلة ماهو أدهى وأمر ، فدعتنى الرأفة بكل مغبون لقى مالقيت ، ودهى بما دهيت ، أن أبدع

له أحدوثة تسلية عن أشجانه عند تزاحم الأفكار ، وتلهيه عن أحزانه فى غربة الديار » .

وعلى ذلك وضعت لنا التيمورية هذا الكتاب الذى أسمته « نتائج الأحوال ، فى الأقوال والأفعال » . ورتبته على خمسة فصول .

الأول : فى « إيقاظ الجاهل من غفلة خداع النفاق وكيفية إقناع المنافق إياه بحيل مكره وإدراك الجاهل بعد سوء المنقلب حيث لا يفيد التدبر » .

الثانى : « فى النهى عن الكبر والتنمر فى القول والفعل وسرعة المعاقبة بهما » .

الثالث : « فى اثنين يحتاج صاحب كل منهما إلى اثنين وهما الإقبال والادبار .

فصاحب الإدبار يحتاج فى إدباره إلى التمسك بعروة التقوى والصبر على النقم ، وصاحب الإقبال يحتاج فى إقباله إلى مواساة إخوانه والشكر على النعم .

الرابع : « فى اقتطاف ثمرة الصداقة وعذوبة ذوقها والرى بزلال حسن التدبير ، بعد ظمأ الطيش والتدمير » .

الخامس : « فى حسن عواقب من صبر ، ونيله الأمانى والظفر ، وسوء الخيانة وإحاقة المكر السيء بأهله » .

وبعد ذكر هذه الفصول المسجوعة التى يدور الكتاب على الأغراض المدونة فيها ، تقرر التيمورية أن الأخلاق والآداب هى الأسس التى تقوم عليها الحياة ، وأن مدار صلاح الطفل على التربية ولا بد من أخذه بها من الصغر فى حزم رغم نفوره عن قيودها وتوجيهاتها ، ووقايته من مخالطة السفهاء . ووقعا لمعنى هذه المقدمة الطويلة التى يرافق نصها التسجيع تروى لنا التيمورية بلغتها : « أنه اتفق أن ملكا من ملوك الزمان إسمه العادل ، وكانت مملكته بعيدة الأطراف واسعة المنازل . قد تشيدت أنحاء ملكه بالحصون والقلاع ، وتأملت جوانب حوزته على أجل ما يلزم للمهاجمة والدفاع ، وكان هذا الملك بالعدل مشهوراً ، وبالإصلاح مذكوراً ، وعلى حميد المساعى مشكوراً ، وبعلو الهمة مغبوطاً مسرورا ، وعلى كل خصم أو معاند مؤيدا منصورا .

وكان له وزير واسع الإدراك مدبر وكان اسمه «مالكا» ، وقد ملكه العادل زمام ملكه . . . وكان لذلك الملك نديم يسمى « عقيل» فيه مافيه من صفات الرقة والعذوبة ما يخفف به آلام كل شاك موجوع . وقد بلغ الملك من السن عتيا دون أن يرزق إلا بغلام أسماه «ممدوحا» . فدلل الملك ولده تدليلا حتى « شب الغلام على ملاهى ملاعبه الكثيفة» ويقع فى تلاهى مداعبه السخيفة، ولم يتجاسر المؤدبون على تهذيب خصاله ، ولم يتمكن المعلمون من تقويم أوده ومحو غيم دلاله وادلاله. مما حدا بالوزير والنديم أن يأسفا لذلك الامر الذى يسىء إلى المملكة والبلاد قد يجرها إلى الاضمحلال . وابت صداقتهما وصدقهما للملك إلا أن يتقدما اليه بالنصيحة ويعرضا عليه الرأى فى «وقاية هذا العزيز فان قبل منا فزنا بما نروم ، وإن أبى ، نكون قمنا بأداء حق العبودية » وتحينا الفرصة فأرجآ الأمر إلى وقت بشاشة السلطان . واتفق إن كان الملك ذات ليلة فى البستان وكانت ليلة مقمرة فطلبهما للحضور «فاجابا بالسمع والطاعة ، وكانا قد تعاهدا على أن يعرضا له بالأمر فى ضمن حكاية أجنبية ، ويوقظاه من غفلة الخيبة ليتبينا أيقبل الملك نصحا فى تربية ولده ، أم يشتعل لهيب الغيظ فى كبده . ولما اقبل الوزير والنديم على الملك وحياه بما يليق بمقامه ، كانا قد تصنعا ابتسامة تخفى ملامح هم خفى . فسألهما عما بهما وطلب الملك من عقيل فى هذه الليلة المقمرة وفقا لمألوفه من نديمه ، أن ينشده من الشعر ما يتناسب مع نضارة الروض ، الذى يجمله سناء البدر . ولكن النديم أخذ يقدم المعاذير ويلوح بكنايات تدل على ما يهمه من أمر الأمير ابن الملك الذى هو خلاصة للخير الموروث ولمستقبل البلاد والعباد . وتتلخص تلك الكنايات فى أن هذا النديم كان قد كلف بنوع من الشجر ، فغرسه فى حديقة صديقه الوزير لكى يرعاه ، ويوصى قيم الحديقة بالعناية به . وكان الوزير عند حسن ظن هذا النديم فعنى بالشجرة المغروسة ، ولكن عنايته البالغة كانت على غير أساس فنى دقيق إذ تركها تنمو ، من غير تقليم وتهذيب، حتى نامت باحمالها وتقوست ، فلما عتب النديم على قيم البستان أجابه القيم المظلوم

الذى لا يستحق الملامة ، بأن الوزير كان يرده عما يجب أن يفعله حيال هذه الشجرة من التهذيب والتقليم حرصا على إحساس صديقه النديم ، حيث حسب إن إكرامه فى إحساسه إنما يكون بألا تمس هذه الشجرة ولا يؤخذ منها فرع ولا ينتفع منها بزهرة . وقال النديم للملك « ولا يخفاك أن تهذيب الأغصان بالتقليم ، كما أن تهذيب الأطفال بالتعليم ، وكما يحتاج الصغير للتأديب ، يحتاج الغصن للتهذيب » . هكذا استمر النديم يتكلم عن الشجرة وحالها من رعاية أو إهمال فى حديث كله تلميح حتى فطن الملك وقال « لعمرى هكذا تكون عقول الرجال فلقد هديتمانى إلى طريق الرشد فى تهذيب ولدى ، وأيقظتمانى من سنة الغفلة عن تأديب فلذة كبدى ، وقد غلبتنى حنانة الأبوة ، وأسرتنى حلاوة البنوة ، وأثقلتنى قيود الشيخوخة عن السعى فى طريق إرشاده ، ومنعتنى شدة الرأفة من حملة على سبيل اجتهاده » ، وعلى ذلك بادر الملك العاقل بقبول النصيحة وسلم إلى الوزير والنديم تربية ولده وأيدهما بكل ما تحتاج اليه هذه التربية من وسائل السكن والمعلمين والخدم . ثم طلب إلى خادمه أن يحضر ولده فلما حضر الأمير الصغير قال له أبوه : « اعلم ياقرة العين ، إنى أقمت على كفالتك هذين الاثنين ، وملكتهما زمام تربيتك وتأديبك » وأمره أن يمتثل لكل مايشير به الوزير والنديم . فشكرا للملك حسن ثقته ، وضرعا إلى الله له بصادق الدعوات . ثم تقدم الوزير لممدوح وأخذه من حجر والده واجلسه على دست عن شماله ، وقال ياعزيزى هذا مقر جلوسك حين حضورك عند الملك بعد الأمر اليك بالجلوس ، وأملى أنى لا أراك بعد ذاك تعبث بلحيته ولا بملبوس » ، ولكن الأمير ظن أن فى ذلك إهانة فبكى وانتظر من أن أبيه يعاقب الوزير إلا أن الملك تغافل عما رآه ، وتجاهل الذى أبداه ولده ، وخرج من غير أن يلاطف الأمير متكبدا مقاومة شفقته ورغبته فى إرضاء ولده ، ونوى أن يبيت فى مكان غير الذى كان يبيت فيه مع الأمير ، منذ أن ماتت والدته ، لكى يتحقق الوالد من حسن الخدمة ، تاركا أمر القيام عليها لكل من الوزير والنديم فيما بعد . وحسبى الآن ذلك التلخيص من مقدمة « كتاب نتائج الأحوال » على أن تلخيص المقدمة لا يغنى عن تلخيص القصة . وتلخيص هذه القصة

الطويلة المتعبة المغرية للقراءة دونته «مى» فى دراستها عن عائشة فقالت: (١)

« هذه كل قصة قديمة تحترم نفسها فيها ملك وابن ملك ووزير ونديم واليك أسماء أهم الأشخاص :

العادل — « ملك عظيم صالح منصور »

الممدوح — ولى عهده ومحور ومطمح آماله وآمال الشعب . وهو بطل القصة

عقيل — الوزير . وهو رجل واسع الإدراك . حاذق التدبير ، وقد فوض اليه الملك أن يدبر شؤون الدولة .

مالك — النديم . . . ويظهر أنه عدا مايستحسن فى النديم من براعة الظرف ولطف السمر (وهى مواهب لم تبد منه خلال قصتنا) وعذوبة النطق ، فهو ذو مواهب خلقية كالوزير من حيث الاستقامة والحصافة وسعة الإدراك وحسن التدبير .

قد يطلب علماء النفس إيضاحاً عن هذا التقسيم السيكولوجى . ولكن استفهامهم هذا لايغير الواقع .

وشنام — قيم على خزينة المال

غدور — قيم على خزينة السلاح

أما « حيلة » القصة فمنشؤها أن الملك مولع بولده وهو شأن كثير من الآباء الشرقيين يسىء فهم المحبة الوالدية ، ويحسبها قائمة من إنالة الولد جميع مطالبه وعدم التعرض لصد أهوائه . وقد بدأت تظهر نتائج هذه التربية السيئة فى سلوك الولد وفساد أخلاقه . ولم يجرؤ على لفت الملك إلى ذلك إلا الوزير والنديم. ففعلا فى حديث رمزى متبسط ، ذكرا فيه غصنا فى حديقة لم يحسن تقليمه . فأدرك الملك اللبيب غرضهما ، وأفحمته حجتهما ، وندبها لتثقيف ولى عهده وتعليمه . فقاما بذلك خير قيام وظهرت نتيجة مجهودهما فى وقت قصير ، بتحول التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح إلى وجهة

---

(١) أنظر حلية الطراز صحيفة ١٣٤ وما يليها .

الصلاح والحاجة . ولاتسل عن سرور الملك . . . فانه عبر عنه تعبيراً فاخراً بالطريقة التى الفها ملوك الحكايات فى عطفهم على من يحسنون فى سبيلهم البلاء ، ويخدمونهم بصدق ووفاء .

وإزاء هذين الرجلين الوفيين لمولاهما ولوظيفتهما ، وللمصلحة العامة (إن جاز مثل هذا الوصف فى الحكايات القديمة) نجد مثالا شنيعاً للحسد والخيانة والدسيسة فى القيمين « وشنام » و « غدور » فقد أخذهما الاستياء من فلاح الوزير والنديم ، فدأبا ليفسدا عليهما الأمر بتملق الأمير الصغير وإيغار صدره على هذين اللذين يقصيانه عن أندية اللهو والمرح ، ويبعدان بينه وبين والده بحجة التهذيب والتعليم ، وهما فى الواقع يكيدان له لانتقاص سطوته ، وكرامته ، وتنغيص حياته .

واستتبع ذلك جهاد صامت عنيف بين هؤلاء الأربعة ، فتارة ترجح قرب الأمير كفة الاستقامة والاخلاص ، وتارة يستسلم لصوت الوشاية والافتراء . وتمّ الفوز للدساسين فى النهاية ، لأن الحقيقة كثيراً ما تتخاذل وتتوارى فى تعمل التفادى والغيرة ، وكثيراً مايظفر المحتالون والكاذبون . فخرج الفتى على أستاذيه الصالحين وتوعر خلقه ، وتفاقمت شراسته . وأراد الوزير أن يتلافى الأمر بالتى هى أحسن ، فاقترح على الملك أن يزوجه ، فقبل الملك الاقتراح ، وأنفذ الوزير إلى إيران لمفاوضة ملك العجم فى خطبة ابنته « بوران » ، المشهورة بسداد الرأى ، وذكاء العقل وحسن الارادة . ومضى النديم إلى الشين (الصين) لاحضار جهاز العروس وأمتعة الزواج .

وخلا الجو للدساسين قرب التليذ المنقلب عريساً بين ليلة وضحاها ، فحزن الملك جد الحزن لشراسة ولده ، وتعاون الغم والشيخوخة على إتلاف صحته فأشرف على الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت؟ إنه يستدعى اليه ولده ليزوده بالنصائح . وذاك مافعله الملك العادل . بيد أن المنية عاجلته قبل أن يمعن فى الكلام ، فقضى بين ذراعى ولده مأسوفاً عليه من هذا الولد المسكين .

وهنا ، وقدسنحت للدساسين الفرصة التى تربصا لها زمنا طويلا ، فإنهما يقومان بتمثيل الفصل الثانى والأهم فى دورهما ، فيوهمان الشعب بأن الملك مازال على قيد الحياة ، غير أنه لضعفه ومرضـــه عهد إلى القيمين بشئون الدولة وشئون ولده . وينفذان الفتى إلى المجلس وبيده كتاب مزور فى هذا المعنى ، وهو فى حزنه مشرد الفكر لايعرف مضمون الكتاب . ومن ثم يجتهدان للتخلص من هذا الفتى فيفوضان أمر القضاء عليه إلى عبدين يسيران به إلى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة ، ولكنهما تأخذهما الشفقة عليه ، فيكتفيان بإبعاده على أن لايحاول العودة .

ولا يفوت الخائنين إبلاغ الوزير فى إيران أن الأمير عشق صبية من بنات الإفرنج ، وجرى فى أثرها ، فعلى الوزير أن يمضى للبحث عنه ، ويكتبان إلى النديم أن الأمير خرج إلى الصيد فشرد به الجواد « وانساب ذاك الفرس إلى ضيعة حرسها عبيد » . فليجدن إذن فى طلبه أين . . هنا على مقربة منا ياسادتى ، فى السودان الذى هو ومصر « جزء لايتجزأ » كما تعلمون .

وهاهو ذا صاحبنا الوزير يطوى البرارى والقفار وينتقل من دار إلى دار .. وهاهو ذا صاحبنا النديم يذرع شواطىء النيل فى أعاليه ، ويفتش فى أقاصى السودان وأدانيه ، وينقضى زمن غير قليل وجمع أقطاب القصة — بما فيهم أنا التى أقرؤها لأخصها — يعمهون فى مثل تيه بنى إسرائيل .. وليس من سبيل يسلك فى « نتائج الأحوال » غير اشتباك القصة الصغيرة بأختها ، وهذه بقصة غيرها ، على نحو حكايات « ألف ليلة وليلة » و « كليلة ودمنة » . وإذ كنت أنا وأصحابى أشخاص الرواية نجوب الكتاب لنعثر بعضنا على بعض ، فلا نفوز إلا بالتطوح والتنائى ، كم ذا سألت الله أن يأخذ بيدنا فيلم شملنا ، ويرد لهفتنا لا سيما الفتاة العروس « بوران » التى بعد أن علمت بما جرى لخطيبها المجهول طلبت الاعتزال عن الناس . وأرادوالدها أن يزفها إلى ابن أخته ليتدارك الحال ، فيحول مجرى أفكارها قبل استفحالها

فى الجوى ، ولكنها أبت وهربت إلى حيث لا يعثر عليها ، لأنها على نحو ما ينشد الشيخ « سلامة حجازى » فى الفونوغراف .

« عرفت هواكم قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وكم كنت أغتاظ إذا ذكر أننا بينما نحن (أى أنا والصلاح من أهل الرواية) تعبث بنا الأقدار وتجد بنا النوى فنتقلى على جمر الغضا ، فإذا بالغاصبين يسرحان فى بغداد ويمرحان ولهما تضرب المدافع ، وتنشر الألوية ، وتقدم الرعايا فروض العبودية والإكرام . بيد أن الأيام دارت دورتها وحالت الأمور على أتم ما يرام ، فتلاقى بديا الأمير والنديم ، فعجلا بالذهاب إلى إيران إلى حيث كانت تسوق الفتى أشواقه ، لأنه مثل عروسه قد وقع الهوى فى نفسه مكانا بعيداً ، وظل فى مصائبه ويأسه تلازم خاطره الفتاة التى وعد بها دون أن يراها ، وكان للأمير والنديم فى إيران رحلات عديدة غير موفقة . إلى أن أقبلا أخيراً على جبل شاهق ، فإذا هناك إشارة تركها لهما الوزير فيما لو اهتديا إليها أن يعودوا مباشرة إلى العراق . فعادا مباشرة إلى العراق ، وتلاقيا والوزير فى زى ناسك . ولك أن تطلق هنا العنان لمخيلتك وتتصور ما يحلو لك من سرور وحبور ، وبكاء وإغماء ، يعقبه يقظة وسلام وكلام يناسب المقام . وانضم إليهم العبدان اللذان أبقيا على الأمير ، وكان القيمان المختلسان قد أرادا الإيقاع بهما لانكشاف فعلتهما ، ففشلا ونجا العبدان الوفيان . وكان هذا التلاقى منشأ لمؤامرة طويلة ، وقد آلى كل منهم على نفسه ليصرعن الآفة بآفة ، ويفلن الحديد بحديد مثله . وآزرهم طبيب الملك ، ودبر لهم الحيل . فكان الفوز حليفه فى كل ما دبر . فأوفد إلى أصحابه المتآمرين عدداً من الرجال وحفروا نفقاً يمتد حتى المدينة ويفضى إلى خزينة الدولة . . وأبى السعد إلا أن يتوج مساعيهم ويهيء لهم الأفراح والليالى الملاح ، فلم شملهم بالعروس . وإنى لأكفيك مؤونة الوصف لاجتماع العاشقين السعيدين حسبى أن أتمنى لك تلك الساعة مع من تهوى وعندما آن الأوان ليثوب كل من الحبيبين إلى رشده ، جاهرت برغبتها فى العودة إلى الوطن ، ليزفها أبوها إلى خطيبها بالأبهة اللائقة بالملوك

« لابد لى من أن أتوصل إلى بلادى بشرفى » تقول بطلتنا الباسلة « وأدخل قلعة أبى بصيانتى ثم يبعثنى هو إلى هذا العزيز بسيادتى » .

وكذلك كان . وعاد الأصحاب بعدئذ إلى إتمام أعمالهم ففاجأوا البلاد بدخول الأمير والقبض على الخائنين . وتتابعت المشاهد والحوادث بمثل سرعة الصور المتحركة . منها موكب الملك :

المدافع تدوى والطبول تدق — هيجان « بغداد » وفرحها — فوز الحق والصلاح ، وانحسار الخيانة والطلاح — مجىء العروس فى موكب بديع — المناداة بالممدوح خليفة وجلوسه على التخت « أفراح — أنوار — أهازيج زينات — شموس مجلوة — بدور منيرة — وفوق كل ذلك خطب وقصائد « وبات العروسان يديران كؤوس المواد السكرية ، ويتداولان أقداح الوداد العبقرية ، وفى الغد أقيمت بالطبع حفلة « تشريفات » لمناسبة الجلوس المجيد ، والزفاف السعيد ، فوفد المهنئون ، وتليت رقاع التهانى ، ووزعت الهدايا على أرباب الدولة . والهم الملك الفتى : فانبرى يخطب فى الجموع شاعراً ناثراً ويمتدح النوائب التى هذبته وعلمته الصبر والحكمة . وهاكم مثالا من نظمه .

واشتاقنى عزى كشوقى للمنى ... مذ كنت ألقى لاعج اللوعات
قلدت سيف الصبر كى بجرازه ... أسطو على محق الزمان العاتى
حتى قطعت به حبائل محنتى ... وسلكت نهج الرعد طول حياتى
وأنا المقر بما جنيت وليس لى ... عذر سوى أسفى على هفواتى
فلا شكرن شدائدا لو لم تكن ... ماكنت أدرى زلتى لمماتى »

هذا هو ملخص الحكاية الطويلة التى يضيق بها القارىء وتتعبه وتستهويه فى آن واحد ، والتى تتشابك فيها القصص والحكايات . وهى حكاية إذا جشمت قارئها العناء مرة ، فكم جشمت كاتبها العناء مراراً وتكراراً لما بذلته من مجهود فى تصيد الألفاظ ووضع أسجاع وافتراض الحيل وتخيل الحلول .

ومهما استهدفت هذه القصة لمرامى النقد الفنى فى القصص ، وظهر لقرائها منها الإطالة المملة حيث يحس الإيجاز ، وبدا التفكك فى القول حيث ينبغى الترابط ، واستفحل التمادى فى الخيال الساذج حث لاتجيزه النظرة الواقعية ، وتكاثرت المباغتات ووثبت المفاجآت حيث لامكان إلا للتمهيد والتطورات . واختلطت الآفاق حيث لا مبرر للاختلاط وقربت المسافات حيث تتباعد المواضع ، واختلطت الأمور التى تتنافر من الاختلاط ، وغير ذلك مما يصح أن تجرح به قصة التيمورية . أقول مهما يكن من أمر هذا التجريح فان لها فضل السبق فى أن تكون باكورة طيبة مباركة للادب القصصى العربى الحديث ، حيث ينبغى أن يتسع له المجال فى الأدب . كما أن لها الفضل كذلك فى وضع قصة تفيض بالتوجيه الأخلاقى والكشف عن رذائل المتملقين والمتطفلين والفضوليين والمغرورين ، وأهل الحسد والبغضاء ممن تعمر بهم محيطات الأعيان وبيئات السراة ، وأهل الثروة والسلطان وسكان القصور . وقد خبرت التيمورية الكثير من شئونهم وأحوالهم عن كثب بالمخالطة والاحتكاك . ومن ثم حفلت القصة بدروس نافعة ، وعبر وعظات مهذبة لمن يتعظ أو يعتبر من أبناء الوجهاء والمدللين والحاكمين ، فضلا عما فى نشر القصص الأخلاقية من إشادة بالمثل العليا واشاعة لها . وهى تستوجب على أهل التفكر والأدب رعايتها بما يكتبون ويذيعون من نتائج افهامهم وثمرات أقلامهم فى هذه الحياة الدنيا التى يشتد شرها وظلامها ، لو لم تلمع فى إبحائها بوارق المثل الرفيعة ونزعات التفاؤل والآمال .

ويبدو لى شىء آخر فى هذه القصة أراه بعين الاعجاب والتقدير لهذه الأديبة . ذلك أنها تصبر الصبر الجميل وتبرع كل البراعة فى تزويد أشخاص قصتها بالقدرة على ملاقاة الحيل والتدابير الماهرة بما هو أبرع فى الحيلة وأمهر فى التدابير .

وهكذا دواليك يستمر الحال فى مد حبال الحيلة لمدى طويل ، ويطول تخيل الفروض التى تقرع بها الحيل بعضها بعضاً فيحسب معه القارىء ،

المستعرض لأشخاص الرواية وأطرافها البارزين ، والمتتبع لتفكيراتهم وتعبيراتهم ، أنه معهم فى معمعة مؤتمر من أهل السياسة والدس والوقيعة ، يرسمون خططهم فى هدوء ورباطة جأش وكياسة ولباقة ، يحسدهم عليها من يتخذون فى حياتهم طرق الصراحة والاستقامة دون أساليب الدهاء والالتواء ، فيتعرضون بذلك إلى الهزيمة . ومن يقرأ فى إمعان تلك الحيل والوسائل التى يصطنعها هؤلاء الأشخاص والأبطال فى قصة نتائج الأحوال لا يسعه إلا أن يتصور نفسه فى مدرسة يتعلم منها كيف يصمد ، ويطاول ، إلى أن يحبط مكراً بمكر ، وينصر بعد المصابرة ، حيلة على حيلة ، ويرجح ، بعد المطاولة شأناً على شأن ، لكى يصل فى النهاية إلى أهدافه ومقاصده .

ولا يضيرنا فى شىء أن نجشم القارىء العناء أيضاً فى قراءة بعض نصوص وصفحات أخرى من « نتائج الأحوال » على سبيل المثال لكى يزن تصوره للتيمورية الكاتبة ويتبين بنفسه لغتها ، ولكى يرى بعينه رسماً تخطيطياً لأشخاص قصصها أو لبعضها ولبعض ما قد تختزنه صدورهم ، يجرى على ألسنتهم من المنازع والأقوال وطرائق التنفيذ والأفعال .

لقد أبدعت التيمورية هذه القصة « لتسلى الناس عن أشجانهم عند تزاحم الأفكار » ولنترك لها المجال لتحدثنا بأسلوبها لتقول فى الفصل الأول من الرواية (١) :

« كان للملك قيمان أحدهما على خزينة المالية ، والآخر على خزينة السلاح . اسم الأول دشنام ، والثانى غدور ، وكانا يبغضان الوزير والنديم ويحسدانهما على توجه الملك اليهما وعطفه عليهما . فلما تقلدا بكفالة الملك الصغير تضاعف الحقد ، وكبر الوجد ، وكانا بالحضرة السلطانية يسمعان كل ما أمر به الملك . قالت ، يعنى التيموريه (فاشتغل الوزير والنديم بتمهيد القصر لممدوح بن الملك ، وهو الملك الصغير) حتى ربياه كما يرومان فى ظرف ذاك الأسبوع وكان هذان القيمان فى خدمة ممدوح فلما دخل ممدوح

(١) انظر صحيفة ٩ من كتاب نتائج الأحوال لعائشة التيمورية المطبعة المصرية سنة ١٣٠٥ هـ

بعد توجه والده إلى القلعة وقد استشاط غيظا مما فعله الوزير وصار يشتكى اليهما ويبكى فاسكتاه بالملاعبة . وألهياه بالنكت والمداعبة ، حتى ذهب حزنه . ثم قالا له إن أمل الوزير أن يبعدنا عنك فإذا بليت ببادرة مثل هذه فمن يقوم بما يسليك فى غيبة أبيك ؟ فقال إن أمر الوزير ببعدكما عنى رددت قوله ولم أفارقكما أبداً . فوجدا مسلكا للدسائس فى حق الوزير والنديم بواسطة هذا الصغير الذى لم يميز خيره من شره ، فلما كان اليوم السابع أرسل الملك إلى الوزير والنديم يسألهما عن كيفية مقابلة ولده له ، فأجاباه بأننا نحضر فى كل يوم جمعة للحضرة العلية ، لنمتعه بتلك الطلعة البهية ، وذلك بعد مرور ستة أشهر بشرط أن يكون سؤال الملك لولده مقصوراً على دروسه وعلومه ، وجميع محادثته إياه ، دائرة على البحث فيما تلقاه ورعاه ، فلما تجهز القصر ونقل إليه ممدوح وحضر المعلمون وترتب الخدم واختفى القيمان بخدمة الملك الكبير ، وعلم ممدوح بذلك دخل إلى الوزير باكيا وقال ألم تكتف ببعد أبى حتى أبعدت عنى من كانت راحتى فى خدمتهما ومؤانستهما ؟ وأملى منك أن تأمرهما بالاقامة عندى وأنا فى طوعك كما تشاء . فقام الوزير إلى خلوة النديم وأعلمه بما صار . وقال اعلم يا أخى أن هذين الرجلين إن لازماه أفسداه بدسائس النفاق ، وأشربا أخلاقه وساوس المخالفة والشقاق ، فقال النديم أنصفت ولكن إذا رددنا أمره من أول وهلة فسد أمر انقياده لطوعنا ، فنبقى هذا الأمر لوقت آخر ، ونكتفى ببعد أبيه كما أشار والأيام بيننا ، فاستصوب الوزير هذا الرأى وقبل أمر ممدوح رغما عنه ، وأبقى معه هذين القيمين . وكان « ممدوح » يميل إلى عقيل ويبغض الوزير من يوم أخذه من حجر أبيه ، فكان الوزير يدخل عليه فى كل يوم صباحا ويقيم معه إلى الصحوة لمناظرة كيفية تلقى الدروس ، ثم يتوجه بعد ذلك بادارة أمور المملكة إلى الحضرة السلطانية ، ويخبره بكل ما كان من أمر ممدوح فى يومه وليلته . فتستروح روح الملك بذكر ولده وتقدمه فى المعارف . وأما النديم فكان يلازمه بعد توجه الوزير حتى تنتهى دروسه ، ثم يبادره بالنصح فى معرض المسامرة ، ويتحفه

بأحاديث تهديه إلى الرشد على سبيل المنادمة ، ولم يزل فى ملاطفته حتى ينام حذراً من دخول القيمين عليه فى خلوة عنهما فيغلبان على فكره بالنفاق ، وأسباب الشقاق وعوائد الفساق ، حتى إذا استغرق فى النوم ، توجه النديم إلى مولاه الكبير ، وأتحفه بما كان منه من حين خروج الوزير حتى نام ، وكان القيمان يقومان بخفارة ممدوح إلى الصباح ويترقبان الفرصة للدسائس ، فلم يجدا وقتا . قالت فمكث ممدوح فى تلقى دروسه وحسن انقياده حتى مضت الأشهر الستة وهو على استقامة كريمة ولم ير منه أدنى مخالفة لأمر الوزير والنديم ، سوى شدة ميله لدشنام وغدور . فلما حان يوم المقابلة هيأه الوزير بأفخر الملابس وأخذه هو والنديم ، وقدما به على الملك ، والقيمان يقفوان أثرهما . فدخل على والده وسلم عليه برسوم الخلافة وأمسك من الجلوس حتى أمر ، فجلس جاثياً على ركبتيه وصار الملك يسأل عن ما أخذ من العلوم وهو يجيبه بأحسن جواب ، وأشهى خطاب . فاهتز الملك طرباً وقال فى نفسه : إن كان هذا التحصيل فى نصف عام فما يكون فى العام . ثم حضر الطعام فتقدم ممدوح بعد جلوس الملك والوزير وجلس بأدب باهر . وجعل يأكل بلطف وعفاف فصار الملك يتأمل ، فى أثناء تناوله الطعام إلى مايبديه من الآداب حتى كاد يستفزه الطرب إلى تقبيل مالك وعقيل . ولولا عزة الملك بشرف السيادة ، لهم بذلك أو فعل . فلما انقضى اليوم المشهور ، وهموا بالانصراف ، أنعم الملك على كل منهما بخاتم من الجواهر وعلى ولده بجواد بلبب مجوهر ، وانشرحت صدورهم بهذا الانعام ، وقرت عيونهم بهذا الإكرام والتهب قلب القيمين حقدا وطاشت عقولهم حسدا ووجدا ، وتحسرا عن عجزهما عن إيجاد مكيدة لهما فى أقرب وقت . فلما وصل ممدوح إلى قصره دخل والنشاط يلوح على ناصيته وأمر الخدم بتمهيد مربط الجواد . وصعد إلى قصره وما زال مع النديم فى مسامرة حتى نام الفتى برهة تخيل له الجواد فى نومه فانتبه مسرورا بما رآه واستوى جالساً . فنهض « دشنام » إلى الفرصة التى مكنته وصار يلاعبه ويرقص له هو وغدور وهو يضحك عليهما ضحكا بليغاً ، وقد مضت تلك الشهور ولم يضحك ممدوح مثل هذا الضحك

من يوم دخوله القصر الذى هو به ، فقال لهما لم تضحكانى كل ليلة بهذه الملاعبة فقد جددتما لى حظا كنت نسيته . فقالا عزيزنا نحن نفدى ساعة من انسك بأرواحنا ، إنما لم تجد وقتاً من ملازمة الوزير والنديم وإياك وإنهما إذا اطلعا على أنسك بنا شكوانا إلى والدك فيبعدنا عنك وإن أبعدنا عنك ، زهقت أرواحنا شوقا إليك ، وأسفاً عليك . وما زالا يزخرفان له مثل هذا الحديث حتى داخله الاستغراب . وقال كأنهما يكرهان أنسى ، ويريدان أن تكدر نفسى ، وهما منتخبا والدى اللذان يراهما أهلا لكفالتى ، ومحلا لحفظى ووقايتى . فقالا دعنا يامولانا من هذا البحث وذرنا نلعب ونطرب لنجلب أنسك ونؤنس نفسك حتى تنام نوما هنيئا ، وتهب نشطاً قوياً ، فصار يفكر فى هذا القول حتى غلب عليه النوم فهنأ بعضهم بعضاً بفتح باب الأمل ؛ ثم مضت مدة وممدوح يتوجه إلى القلعة كل يوم جمعة لمقابلة والده . وكلما رأى الملك تهذيب ولده زاد فى اعتبار وزيره ونديمه . وكلما زاد فى ذلك يزداد الحقد فى قلوب ذينك المنافقين . فقال ممدوح يوماً من الايام كيف العمل فى أن أختلى بكما للمباسطة والمؤانسة . قالا ونحن أيضاً نلتمس هذه البرهة كمواسم الأعياد فاذا أردت ذلك فتناوم مسرعاً إذا شرع النديم فى المسامرة لتخيل أنك نمت فيذهب إلى خدمة الملك ، وعلينا أن نسليك بالملاعبة كما تريد . ففرح ممدوح بهذا الرأى ، وصمم على إجرائه ، فلما جن الليل وأخذ النديم فى حديثه جعل ممدوح يتناوم ، بل أظهر أنه نام بالفعل . فتركه النديم وتوجه إلى خدمته . وعند ذلك قام الفتى ، وقد جددا له ملعباً ظريفاً ، ومازالا يضحكانه حتى نام مشروحاً . واستمر الفتى معهما على هذا النسق وهو يجد فى نفسه راحة وانشراحا كما جرت عادة الجاهلين : فلما تم العام عقد الملك مجلساً لامتحان ولده ، وأحضر علماء الفنون وزعماء المعارف ، وامتحن ولده فى حضرة الجمهور فكان أول درجة من أهل الدرجة الأولى فيما تلقاه حفظاً وفهما وسرعة إجابة فعوذه الحاضرون ، وحصنه السامعون . فلما انتهى اليوم على أحسن حال أنعم الملك على المؤدبين بما يليق من الخلع والإنعام ، وعلى الوزير والنديم أيضاً بقصرين من قصور متنزهاته بكامل أثاثهما . وقال لهما

الملك اقبلا هديتى وإن لم تكن مكافئة لبعض حسن صنيعكما . فقاما وقبلا الأرض ، وبسطا أكف الدعاء بالرفعة والنصر لها وآمن الحاضرون . وقد ابتهجت الرعية من نباهة ممدوح لأنهم كانوا فى كدر من عدم تقدمه وتعلمه ، خوفاً على الملك أن ينتقل اليه بعد أبيه فلا يحسن الادارة ولا ينهج منهج العدل لسوء سياسته فتغلبه الأخصام على ملك أبيه . فلما قرن اليوم بحسن الختام قدم ممدوح إلى قصره وقد أتحفه الملك بقصر الدجلة والفرات بكافة ما حوله من الحدائق والرياض ، وكان الملك شاور الوزير والنديم فى أن يعطى لولده أحد الضياع العامرة فمنعاه بقولهما — إن ملكه بادر بالإسراف ، وإن لم يتملكه صار فى نفسه شىء لاسيما إن دس اليه أحد المنافقين طرفا من الفتنة يؤول الحال إلى التطاول فى الطلب ، فان بخلنا عليه جرأناه وإن جدنا له على التبذير حملناه . فاستصوب الملك هذا الرأى واكتفى باتحافه القصر المذكور »

حسبى أن أجشم القارىء تلاوة نصوص قد لا تبلغ عشر الكتاب ليرى فيها نموذجا مما أشرت اليه من إطالة مملة ، أو ضعف فى الأسلوب . وللقارىء أن يتلمح فى هذه النصوص «وما قد يكون فى الكتاب كله ، من فضل للكاتبة ، وجهد وصبر . فى أبحاث أخلاقية ، وصور إجتماعية ، وحبك فى إيراد الحيل ، مما قد يستهوى القارىء للقراءة برغم ما يجد من سآمة قد يفرضها التطويل وتطويح الأسلوب عن الذوق العصرى للكتابة الأدبية ، كما أشرت إلى ذلك فيما سلف . وإذا كانت قصة « نتائج الأحوال » تبين للقارىء البواعث التى دفعت المؤلفة لإنشائه ليكون فيه التسلية لمن يدهمهم الشجون ، وليكون منه العون على ما يريح النفوس عند الرضا بحكم الأقدار ، وليكون منه الانتفاع بمعرفة النفوس وما فيها من نزعات للشر تتقى ، ونزعات للخير يستفاد منها ، فان فيما كتبته التيمورية فى رسالتها « مرآة التأمل فى الأمور » وفيما كتبته من مقالات فى الجرائد والصحف ، ما يهدى إلى ما كان لها من نزعات إصلاحية وسبقها فى ذلك لغيرها من كاتبات وكاتبين .

ورسالة «مرآة التأمل» هى رسالة صغيرة تقع فى نحو الثلاثين صفحة ،

ووضعتها الكاتبة فى غضون العقد الأخير من حياتها ، وفى نضج من تجاربها . ولغة هذه الرسالة بأسلوبها الكتابى هى نفس اللغة ونفس الأسلوب المعروفان للكاتبة فى نثرها ، يعنى أدب السجع المتكلف ، والكنايات ، والمحسنات اللفظية من جناسات واستعارات وكنايات ومجازات ومبالغات وتلميحات وغير ذلك ، مما تتخفى فيه أفكار يلابسها من طريق الكتابة إبهام وغموض وشحوب يحد من قيمة التفكير ، ويحول دون مايمكن أن يكون له من أثر سريع فعال فى الإنتاج الاصلاحى الاجتماعى . فى هذه الرسالة مايدل على أن عائشة التيمورية كرهت من المجتمع صورة تنفر منها الفطرة السليمة ، وتأباها الحياة الطبيعية ، حين وجدت بعض الرجال تفسد طبائعهم ويسوء مسلكهم إلى حد أنهم يتخلون عن منزلتهم فى القوامة على المرأة ، ويعطلون مركزهم الرئيسى فى العائلة وتدبير سياستها بطيشهم وسوء تصرفهم ، فتلحق الفساد بالبيوت ويتفشى فيها الخراب ، نتيجة لانحراف هؤلاء الرجال عن الطريق السوى الفطرى وتقول الكاتبة فى ذلك مانصه (١) :

«قد أرانى من لاتراه العيون . وأمره بين الكاف والنون . سبل الهدى والصواب . فما أمرنا بتلاوته من آيات الكتاب فبين بصريح المقال ، حقوق الرجال على النساء والنساء على الرجال . فقال الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . فالرجل يقوم بأمر الزوجة مجتهدا فى حفظها وصيانتها وأداء كل ماتحتاج إليه . ثم أن الحق لم يكتف بالحكم حتى بين السبب بقوله : بما فضل الله يعنى بأمور لها وفرة فى العقل والدين . ولذا جعل لهم الولاية والامامة وجعل فيهم الخلفاء والأئمة وميزهم فى الشهادة بين الأمة» . . .

إلى أن تقول : «فمن الغريب العجيب أن معشر الفتيان فى هذا الزمان أعرضوا عن تلاوة هذه الآيات فضلا عن تدبير معانيها ولم يعبأوا بشىء من

---

(١) كتاب «مرآة التأمل فى الأمور» ص ٤ .

ظاهرها ولا خافيها حتى تحيت من مدركتهم حقائق الأمور ، وشد الجهل بصائرهم بعصابة الغرور ، فغرهم بالله الغرور ، حتى أن كل إنسان هم بالاقتران، من وضيع ورفيع ، وخامل ونبيه ، كان كل بحثه عن الحلى والحلل والضياع والعقار ، لاعن النسب والتدين والعفة والوقار .. وإذا كان الظاهر عنوان الباطن وما فى الجنان يظهر من فلتات اللسان ، فقد اتضح من حالهم وظهر من مقالهم ما كنته الأفئدة وأضمرته النفوس من أن رغبة هؤلاء الفتيان من الاقتران ليست للصيانة والديانة، ولا لطهارة العصمة ، وطيب العفة ، بل لطمع المنال ، وحيازة الأموال ، والتصرف فيما تمتلكه ربات الجمال ، ابتغاء مرضاة نفس دنيئة ، وذمة رديئة ، حتى إذا صار له الولاء على تلك الزوجة المطيعة ، رفيعة أم وضيعة تمتع كيف شاء وأراح أفكاره من الاتعاب والقى عن عاتقه حمول الأوصاب ، وقعد مستغنياً عن الجهد فى الاكتساب .»

وإذا يكون الحال كذلك فى مثل تلك الصورة البغيضة التى ترسمها لنا التيمورية من المجتمع « تقوم الزوجة بادارة خدرها وتقاوم هذا العناء بصبرها ومن ثم انتقلت السلطة إلى الزوجات وصرن ربات التدبير وآل النفقات ، وتخلت الرجال عما لها من الزعامة التى كانت أوجبت لهم الهيبة والوقار وتلثمت شهامتهم ببراقع الإدبار » (١)

وعندما تنتقل السيطرة إلى الزوجة وعندما تلقى زوجها بالنفوذ لسبب انحرافه وسوء حاله واعتماده على مالها ، ربما يؤدى ذلك إلى شراستها وتطاولها عليه وتعكير صفوة الحياة الزوجية ، أو إلى صبر لا يحتمل من قلبها فينتهى بها إلى الأمراض والغيظ والتلف ، أو إلى اعوجاج فى سلوكها تزول به حصانتها وتتخبط أخلاقها ويفسد به طهرها .

وخلاصة القول عند التيمورية أنها تدعو المجتمع إلى الحرص على أن يكون للرجال حقهم فى الزعامة والقوامة على المرأة دون أن يفرطوا فى

---

(١) مرآة التأمل ص ٥

واجبهم نحوها من الرعاية والتكريم والكياسة وألا يحملوها ما يجب ألا تتحمله من اتخاذ وسائل الكسب لينتفع به هذا الصنف من الرجال . « الذين جعلوا الكلال طرفه ، والطيش خفة ، والسلب تحفة ، والجبن أهنى حرفة ويدعون بالصورة الظاهرة أنهم رجال . (١)

وإذا أمعنا النظر فى الروح الإصلاحية التى تتضمنها رسالة التيمورية ، نجد أنها لا تقر أوضاعا تتوزع فيها الأعمال بين الرجل والمرأة على قدم المساواة ، دون نظر إلى ما ينبغى أن يكون للرجل من حظ أوفر فيما يدر عليه المكاسب والأرباح والأموال التى ينفق منها على زوجته وعيالها ، ولكى يصونها عن الانصراف عن واجباتها الأولى فى رعاية البيت واسعاده . ومهما يكن من قول للمؤلفة فى مناصرة للمرأة فى سبيل التعلم والفهم أو للسير بها فى استكمال حريات ضن عليها بها المجتمع ، فإنها لا ترضى عن حالة مجتمع تنقلب فيه الأوضاع ليكون حظ الرجال فى أموره وأعماله دون حظ النساء خلافا لما ينبغى أن يكون عليه الأمر من العكس . وتمثل لنا عائشة نزعتها ورأيها فى ذلك وتضرب الأمثال فتروى لنا . «أن أسداً تكاسل عن الصيد . . أمر اللبؤة أن تنوب عنه وتأتى بالفريسة بدلا منه فانقادت لأمره ، وصارت على ما عهدته من سيرة . واستمرت مدة على هذا الحال فلما طال الشرح عليها صارت تصطاد ، وتأكل ما اشتهت من أطايب اللحوم ولذائذ الأكباد . وتلقى إليه بالمشاش من فضلات ما بقى فاشتاط الأسد غيظاً ، ورأى أن ذلك إهانة لوقاره ومجلبة لعاره . فقال لها خزيت يا لكاع كيف تأتينى بسقط المتاع وتجسرين على أكل الأطايب قبلى . . . فضحكت اللبؤة منه وقالت . . . إنى لم أنس فضلك . . . ولكن كان ذلك منذ كنت أنت أنت ، وأنا أنا . وأما الآن فقد انعكس الحال وصرت أنا أنت ، وأنت أنا ، فلك ما كان لى عليك ، ولى عليك ما كان لك على فاحجم الأسد ورجع على نفسه باللوم رجوعا (٢) » . ولعل التيمورية لو مد لها فى

(١) مرآة التأمل ص ٥

(٢) مرآة التأمل ص ٧

الأجل وشهدت مايجرى عليه عرف عصرنا فى بلاد الغرب وبخاصة فى أميركا، حيث تشجع النساء ويملى لهن فى اتخاذ ضروب الأعمال التى يمارسها الرجل لكفرت بالعصر وضجت من عرفه، حين تجد منه مخالفة للفطرة السليمة تودى إلى خسر الإنسان فى دنياه ومدنيته ودينه على السواء .

على أن شاعرتنا وإن تزمتت وتشددت فى ألا يكون للمرأة قسط يتساوى مع قسط الرجال فى أعمال المجتمع، إلا أنها لا تضن عليها فى أن تطلع فى العلم والمعرفة بنصيب وافر وحظ عظيم تتساوى به مع الرجل لكى تتمكن من الإحسان فى تربية الطفل وصلاح العائلة. وكتبت فى هذا المعنى مقالا طويلا لازمه، كعادتها فيما كتبت نثرا، صنوف الأسجاع والمحسنات اللفظية وما إليها من التوريات والكنايات والغموض . وقد أثبت هذا المقال فى كتاب « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » للسيدة زينب فواز (١) وهذا المقال المنشور فى جريدة الآداب سنة ١٣٠٦ هجرية وعنوانه « لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات » ويتلخص فى « أن ضرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين » وذلك يوجب على الرجل الشرقى أن يعنى عناية بعيدة المدى بتأديب البنت كما يفعل الغربى، ولا ينبغى أن يقصر هذا الشرقى همه على المغالاة فى تزيين فتياته بالحلى والجواهر دون أن يعنى بتزيين نفوسهن وعقولهن بالآداب والمعارف، التى هى الجوهر الحقيقى لمعنى الإنسانية وبما أن المرأة أدرى بحكم طبيعتها بنشأة الأطفال فإنها لو تعلمت لعملت فى استخدام علمها لإحسان تنشئة البنين وبذلك يتكون جيل صالح نافع للبلاد .

وتجأر التيمورية قائلة : « فيا رجال أوطاننا وملاك شأن زمام شأننا لم تركتموهن سدى وذهلتم عن مزايا التأمل فى « ماتفعل اليوم ستلقاه غدا » فمن حيث أنكم بخلتم عن أن تمدوهن بزينة الإنسانية الحقيقية ورضيتم

---

(١) الدر «المنثور فى طبقات ربات الخدور » الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية سنة ١٣١٢ هجرية ص ٣٠٨ .

بتجردهن عن حليها البهية وهى بين أنامل سطوتكم أطوع من قلم، وخضوعهن لسلطتكم أشهر من نار على علم، فعلام ترفعون أكف الحيرة عند الحاجة كالضال المعنى وقد سخرتم بأمرهن وازدريتم باشتراكهن معكم فى الأعمال واستحسنتم انفرادكم فى كل معنى فانظروا عائد اللوم على من يعود .

فالتيمورية تلحّ فى إشراك المرأة مع الرجل فى زينة الانسانية من التعلم ومن المعرفة والعلم ، لأنها تدرك بالمأثور عن دينها أنه فريضة على كل مسلم ومسلمة كما أن ميولها توجهت بها إلى العلم منذ الصبا المبكر . وليس من اليسير أن نستخرج من النصوص التى وردت فى مقالها وفى جملة ما كتبت رأيا يضعها بين القائلات بوجوب إشراك المرأة فى أعمال الرجال على إطلاقها وعلى قدم المساواة . فالتيمورية إذ ترى فسح المجال للمرأة فى العلم والعمل فإنها تحدد هذا المجال بما خص به الخالق كلا من شريكى الحياة فى تركيبه وفى مقدرته وفى خصائصه .

الخاتمة :

وبعد ما تقدم ذكره عن شاعرة قالت عنها « مى » الأديبة الناقدة :

«وكنت كلما دققت نمت التيمورية فى ذهنى، وتفردت صورتها أمامى ، إذ لم يقم على مقربة منها صورة تسابقها أو تشبهها ولو شبهاً بعيداً» (١) ووصفتها تلك الأديبة كذلك بأنها « شخصية نسائية غنية » و « شيقة » تتيح للباحث فى سيرتها وآثارها أن يعرض فى سياق بحثه « موضوعات جمة فى الأخلاق والأدب والاجتماع» . أجدنى الآن وقد تطوف بخيالى صورة لذلك الحى من أحياء القاهرة القديمة المسمى « درب سعادة» والتابع «لقسم الدرب الأحمر» . ذلك الحى الذى عفت أو كادت الآن تعفو آثاره من دار «آل تيمور » حيث ولدت عائشة التيمورية وترعرعت وعاشت فى قصر من تلك القصور التى

---

(١) أنظر حلية الطراز مطبعة دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٥٢ ص ٣٣ ، ٣٤

كانت ملكا لأبيها وأمثاله من سراة القوم وعليتهم ، والتى كان الفن المعمارى يبدعها وقتئذ على نسق تقع العين منه على واجهات تزخر منها النقوش العربية الفنية البديعة ، وفيها نوافذ ذات أستار خشبية محلاة بالثقوب والنقـــور والفتحات الهندسية السداسية الشكل ، وثمة المشربيات المصنوعة من أعواد الخشب المبروم الذى دق صنعه بين خزراته المتلاقية والمتداخلة والمتشابكة لكى تترك من خلال ذلك التشابك والتمـــاسك والتداخل فراغا تنظر من خلاله أولئك المخدرات المستورات خلف تلك النوافذ ، والواقفات خلف تلك المشربيات لكى يبصرن من يكون بخارج الدار دون أن يراهن ، وقد يكل البصر دون أن تلتقى بلواحظ تلك الحسان اللاتى قد تتنفس صدورهن من غرف واسعة وتبتسم فى أفنية فسيحة ، وأحواش سماوية رحبة ، تتعالى منها باسقات من أشجار ونخيل تنتظم حولها ترابيع الرياحين ، وأحواض الورود ، وتقاسيم الزهور العطرة الباسمة ، وأحياناً تلتف فيها الكروم على العرائش والسقائف حين تتدلى منها دوالى الحصرم ، أو الأعناب الناضجة الشهية . وقد تتراص كذلك بجوانب حوائط الحوش الرحب أرائك عربية الطراز ، ترتفع على دقيق القوائم ، وتثبت عليها مساند من الخشب المخروط المزين بأشكال رشيقة أصبعية الشكل ، مخنصرة أو مبنصرة ، أو لولبيـــة الصورة . وقد تلقى على الأرائك قطع حمراء صغيرة ، من سجاجيد بلاد الأفغان أو بخارى ، لراحة الجالسين . وقد تنتظم إزاء هذه الأرائك مناضد مستديرة على سوق نحيلة ، وعليها المنافض لحاجة المدخنين . وقد تنساب بين النباتات الغضة المنورة جداول من ماء رقراق ، أو فواصل من النوافير التى يتهدر من فوهاتها ، أو يخرج من ثقوبها ذلك الماء فى خريره أو رنينه ، مما تنشرح له الصدور ، وتطيب به النفوس ، ويسر الناظرين .

والآن هل لى ياترى أن أتخيل مع المتخيلين قصوراً عفت آثارها ، وكان لعائشة أن تعيش فيها آمنة رغدة فى حياة شرقية يلابسها الشرف ،

ويحوطها الصون والاحتشام ، ويداخلها الترفع ، لتنشدنا مفاخرة فتقول :

بيد العفاف أصون عز حجابى وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقريحة نقادة قد كملت آدابى
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر قبلى ذوات الخدر والاحساب

أم هل أتخيل الشاعرة شابة مرحة جريئة ، تهتف للحب ، وتشدو بالغزل فتقول :

ملك الفؤاد وقد هجر بدر المحاسن مذ ظهر
ما حيلتى فى حبه إلا الخضوع لما أمر
واحيرتى فى حبه واطول شجوى بالخفر
يا قلب حسبك ما جرى أحرقت جسمى بالشرر
رام الحبيب لك الضنى لمْ ذا وأنت له مقر
لكن تعذيب الهوى ما للشجى عنه مفر

أم أتصور التيمورية حزينة مكتئبة مقرحة الجفون ، بعد أن اختطف الموت مؤنستها وابنتها الوحيدة « توحيدة » ، وهى عروس جميلة ذكية ، فى ريعان الشباب ، فتنشد الأم من ذوب الكبد وعميق الأسى ، قائلة :

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغٍ والزمان غدور

. . . . . .

طافت بشهر الصوم كاسات الردى سَحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتى فتغيرت وجنات خد شابها التغيير
فذوت أزاهير الحياة بروضها وانقدَّ منها مائس ونضير
لبست ثياب السقم فى صغر وقد ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا إن الطبيب بطبه مغرور

إلى آخر ما ورد فى هذه القصيدة الطويلة المؤثرة المفعمة بمعانى الأسى والحزن العميق .

أم هل لى ياترى أن أتخيل التيمورية فى شيخوخة صقلتها السنون ، وجللتها الحكمة ، تقول :

دعانى المشيب إلى خانه فعجت لأملا وفاض السغب
فولى الشباب كنفح الصبا وفرّ وقر بوادى الريب

أو تقول :

كم ذا نهيء بالأمال أنفسنا حتى كأن الفتى طول المدى باقى
فالدهر يبسم عن حقد بشائره فينا ويطوى نصالا ضمن اشفاق
فانظر ترى الناس سكرى غفلة عظمت ادارها الدهر واستغنى عن الساق
ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته وما السعادة إلا حسن أخلاق

أو تقول مخاطبة الشيب ، داعية إياه أن يعظها ، ويذكرها بالموت ، وما بعده :

أراك بلمتى يا شيب عظنى وقل حان الرحيل غداً لعلى
فأول ما يرى جدث مهول تهيل ثراه كف أخ وخـــل
وقد رجعوا كأن لم يعرفونى وهم نسبى وأبنـــائى وأهلى
وتشتغل البنون بقسم مال أنا بسؤاله فى عظم شغل
فانت لوحدتى ولكل عاصٍ له رحماك من بعـــدى وقبلى

أم أتخيل شاعرتنا وقد أصابها وهن المرض الأخير ، الذى ألم بها نحو خمس سنوات ، أضنى منها الجسم وأقعـــدها عن النشاط ، فلفظت النفس الأخير من هذه الدنيا فى ٢ مايو سنة ١٩٠٢ ، وورى جسم ساكنة القصور فى ثرى تلك المقبرة الواقعة فى قرافة الإمام ، مع من سبقها أو لحقها من آل تيمور أولئك الذين تعتزّ بهم دولة العلم والأدب .

والشاعرة التى غردت حينا من الدهر أطربت ثم سكتت ، وكان شأنها فى ذلك شأن كل حى يسكن بعد حركة ، ويسكته الموت بعد البيان ، لم تترك العيش دون أن تظفر منه بفهم دقيق ، وتقدير لقيمته وفلسفة فيـه ، ألهمتها

سعيها فى هذه الدنيا . ولربما يكون من أحق ما يستبق القارئ فى نفسه من من آثار هذه الشاعرة وذكرياتها وفلسفتها ، أنها كانت إنساناً بأخص مافى معنى الإنسان. إذأدركت واجب السلف حيال الخلف، وواجب الإنسان حيال الانسان حين يجـــود السابقون للاحقيهم فى التضحية الصادقة التى تمحصها التجارب والسنون. وأنها كانت تدرك وتؤمن بأن قضاء الله وقدره فوق كل تدبير وتقدير للإنسان، وأن يد الله ومشيئته فوق كل مشيئة ووراء مايتخذ من الأسباب. وإن الناس وان اشتركوا فى الكرامة البشرية فقد وزعت فيهم مختلف النوازع والمواهب والصفات ، وأن النساء مهما يكن لهن من حقوق ومطالب فان للرجال عليهن منزلة وسلطان . وأن نزعاتها الإصلاحية فى المجتمع أن تؤدى كل فصيلة من الناس ما عليها ، وأن يقدم كل فرد فى المجال الحيوى نصيبه من العمل رفقاً لتوجيهات وجدانه الدينى، وأن يسير كل سيره منسجما مع معالم الهداية الربانية . وظلت التيمورية تحوطها هالة التفاؤل والاستبشار فتقدر أن النصر للخير وأن الشر لابد له أن يندحر ما ظل الانسان يقطع مراحل الحياة بوحى من الخلق وبهداية من الله .

ومهما يكن من تصورنا لعائشة فى أية سن كان وعلى أية حال، فقد أبقت من آثارها منجما يلتقط الأديب منه تبراً ، ويجد الباحث فيه حكما تظل لتاريخ الأدب العربى ذخيرة باقية ما بقيت لغة العرب ، وما تأثر شاعر بشعر يردده لسان ، ويهتز له وجدان .

وعند الله روح عائشة لتلقى رحمة وأجراً . . .

وردة اليازجى

وفى مفسوح الذكريات الأدبية ، وفى أجوائها المنبسطه ، المتصلة بأيام قريبة أو ديار حبيبة من بلاد العروبة ، قد لايستطيع الدارسون للشعر أو الباحثون فى طليعة النهضة الفكرية والقلمية الحديثة أن يحولوا دون ذاكرتهم وخيالهم ، ودون الاتصال بأطياف هؤلاء الذين كانوا من بواكير النهضة العربية الأدبية سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، وإن الذكرى لتدعو إلى الذكرى .

وهل يذكر فى مصر آل تيموردون أن يذكر فى ديار الشام آل اليازجى والبستانى ، والكثيرون منهم قد تميزوا فى خدمة اللغة والأدب والعلم والثقافة ؟ وهل من سبيل إلى ذكر عائشة التيمورية وهى من الشاعرات النابهات دون أن تطوف بخاطر الباحث ذكرى « وردة اليازجى » . وهى كذلك من الأديبات الفضليات وذوات الصلة الوثيقة بالشعر والأدب . وعلى ذلك يقتضينا البر بالأدب النسائى أن نشير ، ولو إشارة مقتضبة ، إلى هذه الشاعرة الأديبة وأن نلم بشىء من شعرها ، وفى محيط مانشم عبيره من التاريخ الأدبى العربى لمنتصف القرن التاسع عشر .

فمن تكون « وردة اليازجى » أو من تكون بعبارة أخرى « ربة الأدب الباهر والقدر الشريف وردة بنت الفاضل الشيخ ناصيف » على حد تعبير التيمورية حين أهدت إلى الأولى نسخة من كتابها « حلية الطراز » فمهدت بذلك بينها وبين اليازجية سبيلا إلى التراسل وتبادل ود لم يحشم اثنتيهما سوى الإغداق فى المجاملة ، وفى الثناء المتبادل المستطاب ، وفى تنميق الألفاظ المحسنة الطلية ، وفى تواصل الأسجاع السخية ، بين ذات مقام فى علية مصر وبين ذات مكانة من أهل لبنان .

لقد قرأت رسالة ألفتها مى عن « وردة اليازجى » بعد أن اتخذت منها

محاضرة ألقيت فى جمعية الشابات المسيحية فى منتصف شهر مايو ١٩٢٤ أى فى السنة التى توفيت فى مطلعها اليازجية بمدينة الاسكندرية حيث كانت تقيم مع ولدها.

ولقد نشرت مى صورة شمسية لليازجية فى صدر تلك الرسالة، وأخذت أتأمل طويلا فى تلك الصورة وكان أول ما لفتنى من صور تلك الشيخة الوقور حدة فى النظره تنم عن ذكاء؛ وصرامة فى الوجه تشير إلى عزيمة، واحتشام شرقى يشع ويتجلل فى ثوب أسـود سابغ فضفاض لم يبد منه إلا وجهاً مستديراً، وإن أظهره جبينها المستعلى مستطيلا، وجهـا يزدان بفم رقيق؛ وأنف قصير دقيق، وخد مسنون، وعينين لامعتين غائرتين وكل ذلك فى قوام أقرب إلى القصر منه إلى الطول وأدنى إلى أن يكون خفيفا وفى إطار من الوقار تزدان به ربة هذه الصورة المحترمة.

ولقد ولدت اليازجية صاحبة الصورة المشار إليها بقرية «كفر شيما» من قرى الساحل اللبنانى فى عام ١٨٣٨ وكان هذا العام موعد ميلاد شاعرة حلبية هى «مريانا ملاش» وبعد ذلك بنحو عامين جاد الزمن فى مصر بالتيمورية ولم يبخل بعد ذلك بعدد من أديبات وشاعرات نذكر من بينهن زينب فواز صاحبة «الرسالة الزينبية» «والدر المنثور فى طبقات الخدور». وكان مولدها فى صيدا سنة ١٨٦٠. وعاشت بمصر ووصلت رابطة الأدب بينها وبين التيمورية وانفسح المجال فى الشام لغير هـؤلاء من المشتغلات بالأدب والشعر مثل «وردة الترك» و «وردة كبا» و «لبيبه صدقه» مما يدل على أن العصر كان يتمخض عن طليعة لحركة أدبية نسائية.

ووردة اليازجى هى بنت الشيخ ناصيف اليازجى وهو أديب، ولغوى كبير، ومن دعاة الاصلاح، وأخواها الشيخ ابراهيم والشيخ خليل؛ كلاهما عالم باللغة والشعر والأدب. وكذلك كانت بيئة اليازجية تهيء لها فيه قسطاً ومكانة لعناية أبيها بها وترويضه لموهبتها. كما كان الحـال فى كذلك «للتيمورية». فثمت وجه للشبه من هذه الناحية بين الاثنتين واليازجية التى نشأت بين أهل

الأدب تزوجت وهى فى نحو الثامنة والعشرين من شريك فى الحياة ذى قسط من الثقافة وفير ، ومارست فى شبابها مهنة التدريس وعنيت بنظم الشعر وأخرجت طبعة أولى لديوانها حديقه الورود سنة ١٨٦٧ فى بيروت ، فى مستهل زواجها ، وأعيد طبع الديوان للمرة الثالثة فى مصر سنة ١٩١٤ . وقد انتقلت اليازجية من لبنان فى سنة ١٨٩٩ إلى مصر لتعيش فى الاسكندرية مع ولدها الطبيب سليم شمعون وتوفيت أوائل سنة ١٩٥٤ حيث دفنت بهذه المدينة وقد بلغت من العمر نحو السابعة والثمانين .

ولست أريد فى هذا المقام الذى يوحى بالإيجاز أن أحلل شعر «وردة»، على أننى أحيل من يريد ذلك إلى رسالة «مى» التى طبعت بمطبعة البلاغ بالقاهرة سنة ١٩٢٤ . وحسبى أن أشير إلى ما كان بين اليازجية وبين التيمورية من مساجلات شعرية ظريفة يصح أن نذكر منها لوردة الأبيات التالية :

يانسمة من أرض وادى النيل ... وردت فأطفت بالسلام غليلى
نفحت بلبنان ففاح أريجهـــا ... سحراً بأشهى من نسيم أصيل
عز اللقاء على المشوق وللمنى ... عنـدى حديث ليس بالمملول
وعلام لا أهوى علاك وما الذى ... بهواى فيك ترى يقول عذولى ؟
أنت الفريدة فى النساء ، فكيف لا ... أهوى حبيباً بات دون مثيل
علمتنى قول النسيب ، وهجت بى ... ماهاج حبٌّ بثنـــية بجميل
شوقى لمجلسك الكريم ، وإنه ... شوق الطروب إلى كؤوس شمول

ثم تشكر على مافى الرسالة من ثناءٍ شعرىّ :

ولقد أفضت علىَّ منه لآلئا ... حسدت بهـا جيدى كرائمُ جيل
من كلّ قافية كأبكار الدمى ... ترنو إلىَّ بناظـرٍ مكحول
وافت تحيينى فأحيت مهجة ... طابت بلثم المرشفِ المعسول
بذلت لى الودَّ الذى استمنحتهُ ... فهتفتُ يابشرى بأكرم رسول

وفى قصيدة أخرى على كتاب « نتائج الأحوال » :

فتاة زيّنت جيد المعالى بدرٍّ من حلى الآداب رطب
أهيم لها على بُعد ، وماذا على الأقدار لو سمحت بقرب
على مصر السلام وساكنيها وما فى مصر من ماء وترب
على ربع به قلبى مقيم ومن لى أن أقيم مكان قلبى

* * *

رأيت نتائج الأحوال فيه ممثلة تلوح بغير نقب
لتيمورية العصر المحلّى بما نسجت يداها كل حقب
أديبة معشر شرفت أصولا وسادت بين أقلام وكتب

ولها كذلك أبيات رقيقة فى التّحنان والتذكار والشوق إلى وطنها لبنان فيها :

يارُبى لبنان حيّاك الحيا وسقى تربك هتان الغمام
ياربوع الأنس يادار الصفا ياجنان الخلد يا أهنا مقام
حبذا لبنان مع غاباته حبذا تلك الصحارى والأكام

* * *

وخرير الماء فى تلك الربى كحنين من محبّ مستهام
حبذا منه ربيع قد حكى معرض الأزهار يزهو بابتسام

* * *

أنت لى ياخير أرض جنةٌ جمعت كل سرور وسلام
حبذا أيام أنس فيك يا وطنى المحبوب زالت كالمنام
طالما هيّج لى تذكارها شجنا يشعل فى قلبى ضرام

أمّا أشعار اليازجية فى الرثاء فهى من أطيب الشعر وأصدقه ، ومن هذه الناحية قد يجمع الحزن بينها وبين التيمورية فى صدق العاطفة . ولقد اتسع مجال الرثاء لليازجية فأبّنت أباها وزوجها وأولادها وأخواتها السّتة وصديقات لها .

ومن قولها فى رثاء ولدها :

أرى نار قلبى كل يوم وليلة تزيد لهيباً كلما زدت فى الشكوى
لفقد أمينى بل حبيبى ومهجتى وريحان روحى من غدوت به نشوى

لقد كان فى عينى أبهى من الدمى وأعذب فى قلبى من المن والسلوى
أديب جميل الخلق والخلق طاهر شمائل صاف قلبه طيب النجوى
كصدر النقا كالغصن كالصن فى النقا كزهر الربى كالبدر كالرشاء الاحوى

إلى آخر ماهنالك .

ومن قولها فى والدها :

تكاثرت الأحزان فى كبدى الحرّى وزادت دموع البين فى عينى الشكرى
وجارت على ضعفى الليالى وأوقدت بطىّ فؤادى من نوائبها جمرا

* * *

فقدت أبى مالى وللعيش بعده فموتى من عيش غدوت به أحرى
حياة الحزين القلب موت ، وموته حياة يلاقى عندها الراحة الكبرى
أيا علم الشرق المبجل ، والذى أقرت له بالفضل كل الورى طرا

* * *

ويا من بمسراه تيتمت العلى كما يتمّ التأليف والنظم والنثرا
لقد ملت ياركن العلوم فأوشكت لفرط الأسى أوراقه تذهب الحبرا
وقد غصت من خمر المنون بسكرة فها أنا لم أبرح بخمر الأسى سكرى

وفى رثاء أخيها خليل :

ألا أيها القلب الحزين ، إلى متى تقاسى خطوب الدهر منقضة تترى؟
تراكمت الأرزاء من كل جانب عليك ، فلا يوم يمر بلا ذكرى
فهلا براك الله من جنب صخرة تمر عليك الحادثات فلا تفرى
سلام على وجه الخليل ، وناره بطىّ الحشا قد أفنت القلب والصدرا

* * *

على وجهه الضاحى الوسيم الذى له بقلبى رسم لا يفارقه العمرا

وقالت فى رثاء زوجها :

كلما كاد يضمد الجرح ترمينى م بجرح مفتت الأكباد

نكبة عند نكبة عند أخرى كاتصال الأسباب بالأوتاد
وأبى الدهر أن يمن بنظم غير نظم الرثاء والتعداد
سلبتنى المنون إنسان عينى ورفيقى وعمدتى وعمادى
يا أليفى فى شدتى ورخائى ونصيرى فى النائبات الشداد
كيف غادرتنى بقلب جريح يتلظى فى مثل جمر القتاد ! ؟
كيف أغمضت طرفك اليوم عنى وغدا القلب منك مثل الجماد ؟

وتلك الشاعرة التى توالت عليها الأحزان ، واقتبسنا من شعرها الأبيات المتقدمة لها نثر تناثر فى الصحف والمجلات ، وتظهر فيه نزعاتها الاجتماعية التى تتلخص فى نقد التفرنج ، وفى تجريح من يستهنّ بلغتهن من بنات قومها ، ومن يتخذن من المدنية ظواهرها من خدعة الأزياء ومستهتر المسالك ، والتمادى فى زيف الحريات على حساب الرزانة والاحتشام . ووفقاً لتلك النزعات نرى أن اليازجية تشترك مع التيمورية وكذلك مع ملك حفنى ناصف فى الاعتزاز بالقومية والوطنية والشرقية . وربما كانت اليازجية قدوة لمىّ ورائدة لها كذلك فى الاعتزاز بالنزعة الشرقية وباللغة العربية .

ولا يسعنى فى مقام الذكريات عن الحركة النسائية القلمية أن أغفل ذكر المجلات التى عنيت بالشئون العائلية والاجتماعية وكانت صاحباتها ومديراتها من النساء . فمن سنة ١٨٩٢ إلى وقتنا هذا ظهرت أكثر من أربعين مجلة بين القاهرة والأسكندرية ونيويورك ودمشق « وسان باولو » وبيروت ورحلة وبغداد وحلب وطرابلس وغيرها من البلاد . ومن الوفاء لمن قضين نحبهن أن أشير إلى المرحومات لبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق التى عرفتها وعرفت فيها سيدة تجمع بين الأدب والحكمة وحسن المحاضرة ، والمرحومة بلسم عبد الملك صاحبة مجلة المرأة المصرية وكانت من المجتهدات الدائبات . ومن أوائل من أنشأن المجلات هند نوفل ولويزه حبالين والكسندره أفرينو صاحبة مجلة أنيس الجليس رحمة الله عليهن جميعاً ، على أننى وإن أشرت إلى رقم قياسى من مجلات لسيدات وآنسات فإنى أحسب أن مظاهر الامتياز

الحق ومظاهر القيم الفكرية الواضحة لم تكن من نصيب هذه المجموعة الصحفية ولا صاحباتها إلا فى القليل وإن حق الشكر للجميع على كل حال .

ومن أراد الاستقصاء فى تاريخ المجلات النسائية فليرجع إلى كتاب « الاتجاهات الأدبية فى العالم الحديث » (١) لمؤلفه الأستاذ أنيس الخورى المقدسى أستاذ الأدب العربى فى جامعة بيروت الأمريكية .

وبعدما تقدم ذكره فى النهضة الأدبية العربية النسائية فلينتقل بنا الحديث إلى باحثة البادية « ملك حفنى ناصف » .

حياة الرائدة « باحثة البادية »

وبعد فلينتقل بنا الحديث إلى ذكريات رائدة أخرى للأدب المعاصر ، أوحت إلى « مى » صحائف من خير ماحفظه البيان من أدب راق رقيق ، ومن أبقى ما سجله القلم من نقد بارع دقيق .

وقد عرفت « مى » نفسها شخص تلك الرائدة كما عرفتها من آثارها الفكرية . ولقد أتاحت لى الظروف أن أعرف وأرى من المتصلين عن قرب بتلك الرائدة كوالدها واخوتها وزوجها وأمها ، دون أن تواتينى الفرص لأراها حتى أصورها تصويرا يتفق مع ماتوحيه الرؤية وتلهمه المعاينة عن كثب . لكنى استعين على ذلك بما كتبت « مى » وبما تلمسته من مصادر أخرى ، واستنتجته ، لكى أشخص للعيون صورة مادية « لملك حفنى ناصف » التى عرفت بعد « بباحثة البادية » ، وذلك بالقدر الذى يستطيع القلم أن يقرب به لخيال القارىء شكلا ماديا لكاتبة مصلحة ، غيبها الثرى من نحو ستة وثلاثين عاما .

فلنتخيل إذن أننا فى سنة ١٩١٤ وأن « ملك » فى نحو الثامنة والعشرين من عمرها وأنها فى أقرب صورة لازمتها على وجه التقريب ، حتى سارت وتخطرت بها إلى الموت بعد ذلك بنحو سنوات أربع .

---

(١) انظر الجزء الثانى من الكتاب المذكور . منشورات كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأميركية سنة ١٩٥٢ .

ولنتخيلها كذلك حينئذ سيدة وربة بيت قضت من الحياة الزوجية نحو سبع سنوات ، وكانت قبل زواجها معلمة يشار إليها بالبنان فى المدارس الحكومية للبنات والمعلمات ، وكانت تكتب وتخطب ، ولم يحل زواجها دون القلم والكتابة التى أحبتها والتى مارستها مبكرة ، بل دون الوقوف على أعواد المنابر محاضرة وخطيبة موفقة . أريد أن أتخيلها فى شرخ الشباب ، وفى السن التى احتفظت فيها بشكلها الجسمى إلى أن اقتلعها الموت كما تفعل العواصف بالشجرة المثمرة .

فنتخيل إذن امرأة ربعة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة ، ممتلئة الجسم ، طلقة المحيا ، مستديرة الوجه ذلفاء الأنف ، تتمايل على جبهتها الجميلة خيالات التفكير والكآبة » (١) « ذات صوت أغن الرنين تملؤه لهجة الواثق (٢) « قرمزية الشفتين » (٣) وعندما تتكلم « تبدو على وجهها هيبة المحقق الجاد (٤) « وتضحك بسرعة وسهولة ، وفى صوتها رنين كرنين أصوات الأطفال » (٥) وضحكتها فى وسط الضوضاء والاحتجاج والاعتراض « ضحكة فضية كرنين البلور على البلور » (٦) ويلمح الناظر فى عينيها السوداوين القاتمتين الواسعتين بريق الذكاء ، وآيات التفكير العميق والفطنة . وقد يبدو من خلف منديل أو رداء مطروح ، بعض شعرها الاسود الغزير مسترسلا يتهدل ويتموج على كتفين مكتنزين يتوسطهما عنق أغيد ملىء معتدل وقد تزينه أحياناً قلادة ينتظمها مايشبه الدنانير من قطع مستديرة ذهبية .

تلك هى الصورة التخطيطية الجسمية التى يستطيع القلم رسمها لباحثة البادية ، فما الصورة النفسية التى تكمن ياترى وراءها ؟ لعلها تتمثل فى ملامح الهموم التى طالما تلازم ذوى التفكير العميق من النازعين إلى الاصلاح .

---

(١) باحثة البادية لمى صحيفة ٦ القاهرة مطبعة المقتطف سنة ١٩٢٠
(٢) « « « « ٥ « « « « «
(٣) « « « « ٢٧
(٤) « « « « ٤
(٥) « « « « ٦
(٦) « « « « ٢٧

تخفى آثارها وبقاياها فى نفوس الآملين بمن تذهب بهم الأحلام إلى مرتفعات قاصية ، ولكن دون بلوغها عقبات تلو عقبات تجشم من يريد الاقتحام .

على أننى عندما أتخيل ، فى بعض الأحايين ، أن على ملامح الباحثة سحبا من الاهتمام والهموم ، فقد استبيح لنفسى ولحاجة الدرس أن أرجع إلى بعض معلومات زودنى بها صديق الأديب «مجد الدين حفنى ناصف» شقيق الباحثة، الذى لا ينسى أن لها عليه يدا طولى ، فى أن تحبب له الفن والعلم والأدب وهى شابة تقوم بتدبير الشئون للوكر العائلى ، والقيام على أمر أخوتها بدل أمها التى حال مرضها دون القيام بكل شئون الإدارة العائلية والحاجات المنزلية . علمت من مجد الدين أن أبا الباحثة، وهى كبرى أخوتها على الاطلاق، قد أسماها «ملك» تيمنا باسم من زفت عروسا فى يوم مولد الباحثة إلى المرحوم (الأمير) حسين كامل وكانت فيما بعد « السلطانة ملك » ، وأنه نظراً لتنقل الوالد فى أرياف مصر طوعا لمطالب عمله فى القضاء الأهلى فقد ألحق « الباحثة » بالمدرسة السنية وفى قسمها الداخلى، فى وقت كانت أكثر من يلتحقن بالمدارس من بنات الفقراء ، وكان تعليم البنات حينذاك لا ينظر إليه بعين الرضى . وإن فى إقدام أبيها على ذلك مايدل على شجاعة أدبية ، وعلى رغبته فى أن يكون قدوة لمن هم فى طبقته من الوجهاء ، ومما يبين صدق فراسته وبعد نظره فى إعداد فتاته لمكان ممتاز بين من يذكرون من النابهين والنابهات .

وحين وصلت الباحثة فى دراستها إلى مرحلة السنة الرابعة ، رأت وزارة التعليم أن تجرب تكافؤ الفرص بين البنين والبنات فى الامتحانات العامة ، وأتاحت للتلميذات أن يتقدمن لامتحان الشهادة الابتدائية ، وكانت « الباحثة أولى الناجحات فى سنة ١٩٠٠ . وأنشأت الوزارة بالمدرسة السنية قسما لإعداد المعلمات ، مداه خمس سنوات ، تنال الطالبات فيها قسطاً وافراً من المواد العلمية إلى جانب ماينلن من فنون التربية . والتحقت « ملك » بهذا القسم . وظهر من تفوقها ما حدا بالوزارة إلى الانتفاع بهذا التفوق ، فعينت

لتكون معلمة ممتازة لمن رافقتهن زميلة حبيبة فى التلمذة وفى أمسها القريب .

وأقبلت الفتاة المعلمة على عملها إقبالا شديداً وهامت بمهنة التعليم هياماً . وشغفت بالدعاية لتعليم البنات فكانت تطوف بأصدقاء أسرتها لتقنعهم بإرسال بناتهن إلى المدارس ، وكانت تفلح فى إقناع من تتصل بهم وتحملهم على ماتريد .

وكذلك بدأ شغفها بخدمة المرأة ، وأخذ ذلك الشغف يوحى إلى نفسها النشيطة الذكية بمقترحات إصلاحية خصبة ، تلازم من طبعوا على دعوة إصلاحية منذ النشأة وسن الشباب . وتلوح نزعاتها الاصلاحية والأدبية المتأصلة فى قصيدة نشرت لها بجريدة المؤيد فى ذلك الحين ، وكانت فى نحو الثالثة عشر من عمرها ، ومطلع هذه القصيدة :

بشرى لمصر فقد نالت أمانيها وأنجح الله بالحسنى مساعيها

وقد يسترسل الأخ مجد الدين فى حديثه وذكرياته معتمداً على هدى ذاكرة ، نرجو ألا تشط ولا تنحرف ولا تخون ، فيقول إن الباحثة نشرت فى الجريدة بعد زواجها اقتراحاً تدعو فيه لبناء مقبرة تخليدية وتذكارية للعظماء العاملين فى سبيل الله والصالح العام . وحدا هذا الاقتراح بالمرحوم رشيد رضا إلى أن يذهب فينسب هذا المقال المتضمن للاقتراح المذكور إلى قلم «باحث بالحاضرة» ولعل الشيخ رشيد يقصد بذلك إلى العلامة الأديب حفنى ناصف ابا الباحثة إذ استكثر مثل هذا التفكير على فتاته الناشئة .

وقد تطوف بخاطر «مجد الدين» خيالات غائمة ، إذ يحدثنا عن شقيقته الحبيبة فى ذكريات من حياتها الزوجية ، فيسترسل فى القول ذاكرا أن أسرته تعرفت بزوج شقيقته وبأسرته ، وتمت الخطوبة ومظاهر الزواج فى نحو شهر من الزمان ، مع أن الباحثة المصلحة والأب الحكيم والأخ اللبق ، يعتقدون فى أعماق نفوسهم أن قدسية الزواج وما لروابطه من الآثار كانت

أدعى للكثير من الريث الواجب والاناة الملائمة ، ولكن أثراً قويا لصداقة متينة ربطت بين حفنى العلامة الأديب وعبد الكريم سلمان الفقيه ، مالت بحفنى ، وهو القاضى المحنك البصير بأمور الحياة ومالت بأفراد اسرته جميعا فتنكبوا طريق التأنى ونظروا فى الأمور بنظر الشيخ سلمان وسمحوا بأذنه ، وتوقع الجميع أن هـــذا الزواج سيكون مفعما بالسعادة والهناء لتوفر الصفات الحسنة المنشودة من صحة وجمال وحسب ونسب وشهامة وكرم وذكاء وعلم بالأدب وبالواجبات وأساليب اللياقات ، وما إلى ذلك من محاسن حرى بها عند توهمها أن تنال من قلب فتاة محجبة وحساسة رقيقة ، وهى أنثى تنزع بطبيعة المرأة إلى زوجية راقية تؤدى فيها إلى هذه الدنيا ثمرات من الذرارى الصالحة تملأ البيت وتولى الأمومة برا وهناء وغبطة ، وتسعد مربية تود بحكم ميولها ومهنتها لو وجدت من الأطفال ومن حسن وراثتهم عجينة نقية تجعل منها ما يرتجى للحياة الباسمة ويروق للإنسانية السامية .

وقد يشير « مجد الدين » فى حديثه ، بخفة ولباقة ، إلى أنه قد أهمل ، فى بداية الخطبة لباحثة البادية ، أمر كان فى إهماله وقلة العناية بشأنه صدمة للفتاة بعد أن ظهر وتجلى على حقيقته . ذلك أن عبد الستار الباسل سبق أن ضم إليه زوجة أخرى من أهله وعشيرته قبل « ملك » ، وأنه وإن أباح لنفسه وفقـــاً للشرع تطليقها وفراقها ، فهو بحكم العادات وتقاليد المروءة كان لايستوجب على نفسه أن يقصيها عن جواره وأن يبعدها عن رعايته وعطفه . وكان له منها إبنة تستحق منه الرعاية بل ومن كل من يمت إلى أبيها بصلة ، ويرى الأب لزاماً عليه أن يضم فتاته تحت جناحه وفى البيت الذى تسكنه الباحثة ، لكى تجد هذه وتكد فى رعايتها للفتاة ، وفضلا عن ذلك قد قست الأقدار على عبد الستار ، فأصابه فى رحلاته وأسفاره ماقد يصيب المرء من أمراض وعلل لاترفق بسلامة الشباب وتجر إلى العقم . وكان كل ذلك بعد أن رزق ببنيّـته التى لم تكن من فصيلته فى الرجولة الأثيرة عند كافة الناس وبخاصة عند البدو والعرب . فكان فى مجموع تلك الأمور والأحوال

ما يمهد للكآبة والأسى ، ولما يمر بالحياة من سحب وغيوم ؟؟؟ إن «ملكا» التى لم تتمتع من الزواج بخير زينته من البنين والخلف لعلها أبقت ملابس العرس فى زوايا النسيان ولعلها كذلك قد عطلت ما تزهو به الفتاة من حلى وحلل . ترى أكان هذا لتبسط فى طبعها أم لنزعة أمومة جريحة وأمل فى الزواج لم يبلغ نتائجه ومداه ؟؟؟ .

وهنا قد يتصور مجد الدين رقة أخته وشفقتها وألمها وطيبتها وكبرياءها التى توحى بالصبر وإيثار مظاهر الرضى خشية على سمعة المتعلمات من أن يرمين بالفشل فى الزواج وحياة الزوجية . ولعل آثار ذلك كله تتجمع فتهيء سحبا من الاكتئاب تمر مروراً على جبين الباحثة ، برغم المقاومة وتكلف الرضى . ثم أن هذه الفتاة الكاتبة المتذوقة للسان العرب وأدب العرب هى «ملك حفنى ناصف» أفعجب أن تأتى أمور الزواج على عجل وأن يعقد للأديبة العربية على وجيه قبيلة الرماح عبد الستار الباسل فى أيام قليلة معدودات . ولكل جديد فرحة وقد تنقضى فرحة الجديد بانقضاء الفترة الأولى . وكل شيء إلى زوال ؟؟

وعبد الستار الباسل الذى عرفته وخالطته ومات من بضع سنين ، قد يتصف ببعض من المزايا ومن الخلال التى ترفعه فى نظر الناس . ولكن لعل فى الناس من الصفات مالا يقنع الراقين الحساسين برغم مافيهم من المزايا والخلال ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟ . ولعل ظروفاً ألمت بعبد الستار واقتضتها شئون بيئته هيأت لما لا ترحب به حساسية المرأة الذكية ، ولكن «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» كما جاء فى الكتاب الكريم ، ورب ضارة نافعة على نحو مايقال . فهذا الألم الذى ألم «بملك» قد يكون مصدراً فياضاً من التأثير فى كتابة الباحثة ، وهى الكتابة التى تمتزج فيها العاطفة والحساسية والصراحة بالتفكير امتزاجاً دقيقاً تتوافق أجزاؤه لتصبح لنا منه تلك الآثار الفكرية لباحثة البادية فى مقالاتها وفى محاضراتها ، وليكون لنا منه أسلوب فى الكتابة تهتز فى أنحائه وفى خفاياه معانى الألم والأمل والإيمان والإصلاح والمكافحة للرأى وللروح القومية والدينية .

أسلوب الباحثة :

ولكى يتصور القارىء أسلوب الباحثة الكتابى فيما تناولته من موضوعات الحياة ، ويتبينه على خير وجه ، يحسن أن أضع أمام نظره وذوقه بعض النصوص من رسائلها ومما دونت ، وبعد ذلك أتحدث قليلا فى معنى الأسلوب ، ثم أنتقل بعد ذلك إلى النزعات التفكيرية والإصلاحية التى شغلت قلم الباحثة وهمتها فى حين مكنت للقارئين أن يتذوقوا من ثمرات القلم الواضح المنسجم فى تعابيره وفى تسلسله وسيره وخطواته المتساوية الموفقة

فمن نحو أربعين عاما كتبت « مى » الى « باحثة البادية » وقبل وفاة هذه الأخيرة بنحو ثلاث سنوات مايلى (١) :

إلى باحثة البادية

ترنمت باسمك قبل أن أعرفك ، واتخذت ذكرك عنوانا لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك لأن أصوات الجمهور قد اتفقت فى الثناء على فضلك . غير أنى عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات فيها خيل لى أنى أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة .

ثلاث سنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظة بين دفات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم لكن سرها ما زال مترقباً يداً تلمسه ، مستعداً لمناجاة نفس تتلمسه . سنوات ثلاث ، فيها مشت البشرية خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجماجم ، منشدة أهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل ، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف ، ودماء حياتها تجرى أنهارا فى سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان .

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد وصدمات السياسة والاقتصاد والاطماع

---

(١) نشرت هذه الرسالة التى سبقت التعارف بين الكاتبتين وأدت إليه يومئذ فى الجريدة والمحروسة .

المتزايدة . فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها الضعيفة بإهمالها وتهاونها وقد جاش لذلك كل ما فى صدر الإسلام من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على صالح بنى عثمان .

كل ذلك ومصر ، مصر لكآبتها وانعطافها واندفاعها . كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا فى صحراء الفوضى . صخور التقاليد تدمى أقدامنا الجديدة ، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للمس أشياء نظنها موصلة إلى حياة نريدها عظيمة والسراب الجميل اللامع فى حدود المستقبل غير المحـــدود يستدعينا آمراً كأنه نظرة عين فتانة ، فنجرى فى الصحراء ولا ندرى إلى أين المصير .

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً وعائلتنا لاتزال على ما كانت عليه ، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلا ، وعواطفنا مابرحت حائرة بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعى أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم غير أن الأصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرحيم .

بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى روحى ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى على غير هدى ولم يكن ذلك إلا إجلالا لصفحات قلبتها ، وحباً لنفس استجوبتها فعرفتها فيامن ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها أيتها الباحثة لما تصمتين .

تتوالى الأيام ونحن فى ضلال مبين . الرجل يجاهد فى حرب الاقتصاد الدائمة . الرجل تائه فى مهامه واشغاله فإذا كتب بحث فى العموميات ، وإذا أجال قلمه فى الخصوصيات فهو لايستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائى لأنه يكتب بفكره ، بأنانيته ، بقساوته . والمرأة تحيا بقلبها بعواطفها بحبها .

علاتنا مستعصية لايشفيها إلا طبيب يعرفها . والمرأة بعلة جنسها أدرى فهى تستطيع معالجته . ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا مايصور لهن الخيال المخيم بطلائه على منابت العواطف المخصبة . هذا

اعتراف ساذج صادق . الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم يرفيها من الاستفهام شيئاً .

لكن الزوجة والأم التى أعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً تدرك بواسطته كل ما فى الحياة من حلاوة ومرارة — تلك تستطيع وضع المرأة فى مركزها السامى ، وتلك تقدر أن تعمل فى مزج نصفى الشخصية المتألمة ، شخصية المرأة وشخصية الرجل .

فيا سيدتى :

لدينا قلوب تحترق ولا ندرى أى نار تحرقها ، وتلتهب شغفاً بما لا تعرف ماهيته ، فعلمينا أنت التى كنت فتاة قبل أن تكونى أماً (١) كيف نرشدها وإلى أين نوجهها .

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حادة ، فأرشدينا أى الأعشاب فاسد فنقتلعه ، وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان .

قولى يا سيدتى تكلمى :

ضمى يدك البارة إلى الأيدى التى تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد . ساعدى فى تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك قد يفعل فى النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار . لا يهمنا أن تخفى تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك وأن تحجبى هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعرى ، ما دمنا نسمع صوتك فى صرير قلمك ونعرف منك روحك العالية . فهنيئاً لوطن يضم بين بناته مثيلاتك ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتساماتك ويسكبون حياتهم فى قالب حياتك .

مى

---

(١) لم تكن الباحثة أما ولم تكن « مى » عالمة بذلك يوم وجهت هذه التحية اليها .

وكتبت باحثة البادية إلى « مى » رداً على الرسالة السابقة ما يلى (١)

إلى الآنسة « مى » .

تفضلت فكتبت إلى كلمتك العذبة فى الجريدة وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت مخيلتى لم تبخل بالرد . كانت رسالتك عزاء جميلا لى فى مرضى الطويل المؤلم وبلسما ملطفاً لجراحى البالغة التى قلت إنك عثرت عليها . آلامى أيتها السيدة شديدة ولكنى أنقلها بتؤدة كأنى أجر أحمال الحديد فهل تدرين يا سيدتى ما هو لى . ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا . ويستولى عليهم غرورها فأطمع فى أكثر مما أنا فيه ، وليس لى حال سيىء أشتكيه ولكن لى قلباً يكاد يذوب عطفاً وإشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها . وهذا علة شقائى ومبعث آلامى . إن قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد .

وما لى أحمل نفسى أعباء غيرها وليست بمسيطرة على هذا العالم ولكنى كنت عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد ، وإن كان تنفيذه شاقا ومحفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريق إليه .

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندى ، ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل . ولكنى كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة وماحركتهم التى ملأوا بها القطر صراخاً إلا عنوان نهضة كاذبة .

تسألينى ياسيدتى أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذى يحسن بالفتاة نهجه وإنها لحال توجب الحيرة

(١) نشرت هذه الرسالة فى الجريدة والمحروسة .

ولا ندرى أى الطرق نسلك لنصل سريعاً إلى الغاية التى نقصد اليها .

كلنا يرمى إلى تقدم الفتاة وتنورها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة ، وأماً نافعة لأبناءها ووطنها . ولكن لكل مناد بالاصلاح وجهة هو موليها ، فبعضهم لايرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعاً للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالا ، ونسوا حكمة التأنى والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف ، إلى طور لم يعهد من قبل فتكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التى تكاد تغشى الأبصار .

وفريق لايرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لاينفى العلم ، وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيراً كان سبباً لفسادها ، وان اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها فى المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن . فأى الطريقين نسلك ومن نتبع ؟.

إننا معشر النساء لايزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهى فينا حتى أصبحنا ولارأى لنا فى أنفسنا . فإذا قال لنا اختبئن حتى تدفن بالحياة صوناً لكن وتدليلا ، كما يقول المتنبى فى رثاء أخت سيف الدولة :

. . . . . على المدفون قبل التراب صوناً

وكقوله فى أخت ممدوحه الثانية من رثاء أيضاً :

وما رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب
وهل سمعت سلاماً لى ألم بها فقد أطلت وما سلمت عن كثب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا ، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا ، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا فهل هو حسن النية فى كل مايطلب منا ولأجلنا ، أم هو يريد بنا شراً ؟ لاشك أنه أخطأ وأصاب فى تقرير حقنا من قبل ، ولا شك أنه يخطىء ويصيب فى تقرير حقوقنا الآن .

نحن لا نأبى أن نتبع رأى العقلاء والمصلحين من الأمة ، ولكننا لايمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة فى موضوع المرأة من العقلاء

المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها، ولا يستبد فى (تحريرنا) كما استبد فى (استعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا فى أمرنا وأمره، وإلا فكل منا حر يفعل ما يشاء. والسلام عليك أيتها الفاضلة من المعجبة بك، المثنية على أدبك الجم، وعلمك الغزير.

باحثة البادية

ثم كتبت «مى» بعد ذلك خطابا إلى باحثة البادية على صفحة جريدة المحروسة جاء فيه: ـ

«ليس أعز لدينا من لطفك إلا حزمك وصراحتك وليس أجمل من صدى صوتك إلا فعل معناك. وإنى لأقبض على شجاعتى بيدى لأعترف بأنى أحب ـ استغفر الله واستغفرك ياسيدى.. آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الانسانية وضلالها وأتمنى من أعماق فؤادى أن تجد دواماً تلك الآلام منفذاً رحباً إلى قلبك، وأن يبقى ذلك القلب كريماً لينا ينجرح لجرح الغريب، ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أياً كان. بالاختصار عفوك... عفوك... اتمنى لك العذاب المعنوى لأنه النار المقدسة. أجل، هو النار التى تطهر، النار التى تحيى، النار التى تلين، النار التى تدفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سمـــاء المعانى السليمة والميول الرفيعة والرغبات الكريمة، والتحمس لإجراء الاصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادىء والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطربا.

أتمنى لك ذلك، ولولاه لما وجدنا فى كتاباتك تلك الأنة العميقة التى تنبه الفكر وتلمس العاطفة فى آن واحد، لا أنكر أن أنانيتى تتكلم الآن. غير أنى قلت ما قلت مسرعة هامسة. فابتسمى له إن شئت وإلا فلا تصغى ياسيدتى ولا تسمعى، بل اسأليني عما أهمس لأجيب، أنى أحمد الله على ابلائك

وأنى أسأله أن يديمك سالمة . وما أغلى سلامتك لدينا . . . الخ . . .

وردت باحثة البادية على ماجاء فى هذا الخطاب تقول :

عزيزتى مى

لا تستغربى ياسيدتى إنى دعوتك « بيا عزيزتى » وسأدعوك باسمك على غير معرفة شخصية سابقة . أقول شخصية واحدها لأنى أحببت كتابتك الشعرية الجميلة من قبل وتعرفت منها بروحك العالية الهائمة فى الفضاء وكأنها تبحث عن مستقر لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقر فيه .

وتعرفت بك بالأمس بل وارتبطت بك من دعائك على بالعذاب المعنوى كأنى أنا المعنية بقول جميل :

وأول ماقاد المودة بيننا ... بوادى بغيض يابثين سباب
وقلنا لها قولا فجاءت بمثله ... لكل مقال يابثين جواب

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك على سبابا وحاشا أن يكون له جواب عندى من مثله فانى لم أقابله إلا بالضحك والحلم الذى ركب فى غريزتى .

لماذا « يامى » تدعين على بالعذاب المعنوى ؟ ألا إنما العذاب البدنى أخف منه وطأة وأعفى أثراً . على أننى جربت كليهما وذقت الأمرين منهما معا . تقولين « لأنه النار المقدسة » .

نعم لقد أعطانى من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلى حتى جعل البون بعيداً جداً بينى وبين هذا العالم غير القديس .

تقولين « إنه النار التى تطهر » حقيقة أنه تلقى وجدانى بالتطهير منذ أن كان لى وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شىء ويتأثر لأقل شىء وهذا فيه من الضنى والخطر ما فيه .

تقررين أنه النار التى تحيى « نعم يا مى » . إنه أحيا روحى حتى أحرقها لأنه كان كمصباح سيال كهربائى شديد لكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل .

هو « النار » التى تلين هذا ما أبديت . ولكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذى ولا يفيد خصوصاً فى هذه الدنيا التى كلها صدام وعراك وأنه لا يفل الحديد إلا الحديد . إنه ألانى حتى صيرنى ماء . وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة ... يصبونه فينصب ويريقونه فيختفى فى الأرض ويضعونه فى كل آنية معوجة ملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان . تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً وآونة تحمى عليها براكينها فيخرج ملتهباً وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير مايريدون وهو برىء . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكّرا فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمر . وهم مع ذلك لا يقيمون له وزنا ولا يعترفون له الجميل وهو بلا ثمن فى أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء فى أقلها . إنه مثلى يا مى يذهب ضياعا .

وختمت حسن تعليلك لعذابى بقولك «إنه النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى » .. نعم يا مى إننى الآن على أجنحة اللهيب ولكننى لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يرانى فهل ياترى ستحجبنى السماء ؟ إنى أشك فى ذلك . إنى أول ما حفظت من الشعر حفظت المراثى وأولها رثاء الأندلس . وكنت فى حداثتى أقرأ كثيراً ديوان المتنبى وأعجب بروحه العالية وبنفسه الكبيرة وأظنه هو الذى دعانى فى ذلك وسمم آرائى رحمه الله إنى ألذ كثيراً بهذه العدوى .

وقد قال لى أخى مرة بعد حديث كنت أشتكى له فيه الدنيا وأهلها وأقول « لعل الله يجزينى على هذا فى آخرتى بالجنة » قال متهكما « أنا واثق ياشقيقتى أن الجنة أيضاً لن تعجبك لأنه لا يكاد يسرك شىء » أستغفر الله .

إنك يا مى خالفت المألوف فى التمنيات والمجاملات الفارغة وهى كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيدى الميلاد ورأس السنة المسيحيين) قلت

« ابتسمى له » أى لدعائك « إن شئت وإلا فلا تصغى ولاتسمعى واسألينى عما أهمس به لأجيبك أنى أحمد الله على إبلالك وإنى أسأله أن يديمك سالمة » الخ ...

لا ياعزيزتى إنى أكره الكذب والمجاملات الفارغة ولذلك أصغيت وسمعت وابتسمت (حسب أمرك) وتسرنى جدا صراحتك حتى فى الدعاء على .

أتدرين يا مى أن ذلك اليوم الذى تمنيت لى فيه العذاب كان فيه عيد ميلادى أيضاً وإنى تفاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامى الجديد بالضحك من تمنيك وبصداقتى لك تبعا لذلك التمنى المعكوس . أشكر لك ياعزيزتى أمانيك لى ورغباتك الصادقة وأقر لك أنى واقعة فيما رجوت لى والحمد لله ولكن يا «مى» لاأتمنى المزيد . إنه عذاب طاهر لايتعدى الميل إلى السكون والشعور بشىء من الحزن الشعرى الجميل . ولكنه ولله المنة والشكر لاتخامره شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم وأخشى أن يزيد ضرام النار التى طلبتها لى فأحترق « يامى » أو أصل إلى ذلك الحد الذى لاأريده لنفسى ولا أظنك تريدينه لى .

الساعة المفقودة (١)

عجيب ياسيدتى إنك تريدين عذابى وأنا أريد هناءك أتدرين ماذا سألقيه عليك فيفرحك ؟؟ إنى وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها . رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأنى أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون . تعالى إلى لتأخذيها وتستغفريها من وصفك إياها بالغدر وبعدم الإحساس فانها أحست بشوقى لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك ولتعارفنا إنها بثت إلى ماكنت تشتكينه اليها من العواطف والآلام . عثرت على وعثرت عليها لتكفى قلبك شر العناء من الوحدة ولتؤكد لك إنك وجدت «الصديقة التى لاتخون»

---

(١) كانت مى قد فقدت أو تخيلت أنها فقد ساعتها وكتبت فى ذلك فصلا طيبا أثبتته فى كتابها «ظلمات وأشعة» . دار بيروت للطباعة سنة ١٩٥٢ .

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل :

عجيب جداً ياسيدتى أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذى يسمى «الرجل» . إنى أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكنى أظنه — وبعض الظن إثم — أنانياً قبل كل شىء ورأيى أن أنانيته وحدها هى أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبدها لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو يحبها. ويموت من أجلها لا لأنه يحبها ولكن ليلهو بها وهو فى كل ذلك واسع الحيلة قوى الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب أما المرأة فهى دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقة وإذا كرهته كرهته علانية ولم يكن لذلك البغض من دواء ، عرف ذلك أبو الطيب فقال :

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد

هى صادقة مخلصة دائماً حتى وهى خاطئة . هى تحب لتفنى فى الحب ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب هى تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن ولكن الرجل لا يحزن إلا ليبحث عن تعزية وسلوان .

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . إنها تعلم أن حريرها الذى تقدمه للملأ زينة وحلية سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه .

أما الرجل فهو كالنحلة ينتقل من زهرة لزهرة متروضاً وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها . إنها تحب الأزهار حينا ولكنها تلهو بها أحياناً فتتركها هشيما . وهى تقدم للناس عسلا منه شفاء لهم وشمعاً نافعاً ولكنها تعملها لغذائها وسكنها قبل كل شىء .

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوى ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً فى حسبانه أن مايزيد فى قوتنا يضعف من قوته هو . لعله ظن أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر إلينا نظرة الداعيات الثائرات. وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة فى مملكته ونرجو منه أن يفك عنا الخناق فى مملكتنا المستقلة

التى تشد أزره ولا تفكر فى إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة . إننا نتقدم اليه كأننا ساعده الذى يريد أن يخدمه لا كأننا يد غريبة تريد أن تضربه . إننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقر عيناً وليعطنا مانشاء . وإنما نحن يا مى ضايقناه فى بعض شئون مملكته حتى ظننا نريد منازعته فيها . لنترك له السياسة التى يحبها وحمايتنا . وأقول لك همساً « إننا لا ننفع بدونه ولكنه هو أيضاً لا ينفع من غيرنا » .

إن المطالبات بحق الانتخاب وان كن يطلبن حقاً إلا أنهن ظالمات الرجل وأنفسهن معاً . لماذا يرمن مشاركته فى الجلوس على كراسى « البرلمان » ولا تقدم واحدة منهن صدرها للقاء كرات المدافع ونضال الفناء فى الحرب الحق أحق أن يتبع .

ليهنأ الرجل بمملكته . إننا لا نهز عرشه ليتداعى إلى السقوط كما تقولين . ولكننا نهزه لنطلب منه « الدستور »

باحثة البادية

وأود أن أوزر البحث فى أسلوب « ملك » بشىء من مقالة لها أتخيرها من كتاب « النسائيات » إذ كتبت فى « احترام الآراء وآداب الانتقاد » فقالت اللسان والقلم رسولا القلب إلى الناس ، أو هما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حواليها من الصفات ، وإن شئت فقل هما سلك الكهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم . تنقل عنهم رسالة أخلاقه حرفا حرفاً بغير زيادة ولا نقصان . والفضائل والرذائل كامنة فى الأشخاص ، لا يورى زنادها إلا الأقوال والأفعال ، فالمتكلم والكاتب تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولانه أو يخطانه . وإن حاولا إخفاءها لأن الطبع غالب ، والتطبع سمل بال قليل الستر . إن دارى شيئاً تظهر منه أشياء . والفكرة وإن جانبتها لا تزال تحوم حولك وترفرف إلى أن تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب فاذا قرأت كتابة شخص لم تلحظه

عيناك أمكنك بالتفرس فيها أن تحكم على أخلاقه بالإجمال . فالمتكلف تعرف من كتابته بأنه لا يزال ينتقى الألفاظ الوحشية ويتقعر فى أسلوب إنشائه ليدل على علمه وبراعته ، والرجل البسيط يتجنب متنافر الألفاظ ومعقد التراكيب من غير تبذل ولا ركاكة فى عبارته . كذلك من كرمت نفسه ترى أثر ذلك الكرم فائضاً على كلماته وفى ثنايا سطوره . والئيم بالمثل تكاد تلمس لؤمه وضعة نفسه وأنت تقرأ أماليه على القرطاس وأظهر صفات الكاتب على الورق الحكمة والحلم والحسد والجهل ، لأن الغرائز كلها حسنة أو قبيحة أو هادئة لا يستفزها الشيء القليل ولا يهيج لاعجها إلا إذا هيجت ، كالرائحة لا يبعثها إلا الهواء ، أو كتراب الأرض لا يثور إلا مع الرياح . أما الحسد والجهل فهما أبداً جائشان يغلى صدر حاملها ، ويكاد ينبثق من تلقاء نفسه من شدة الفوران ، كالبركان المضطرم يقذف الحمم لحرما احتواه جوفه من النيران » .

وإن القارىء المتذوق للأدب الممعن فى نصوص ماكتبت الباحثة فى رسائلها ، وفيما ألحقناه من موضوعاتها ليجد عند التدقيق فى تركيب الجمل ، وفى تخير الألفاظ ، وإيرادها فى مواضعها مظاهر الوضوح والسهولة فى الأداء والبعد عن التكلف ، وإطلاق السائغ من العبارة العربية . وإيثار الصراحة تارة فى مرح ، وتارة فى تجهم وحدة ، كما أنه يحس بنبضات السرور أو الحزن ، أو الطيبة ، ويشعر بروح الفكاهة والنكتة تتابع قلم « ملك » وتتخفى أحياناً ، وأحياناً تسفر لتشيع فى كتابة الباحثة حيوية ولطفاً وأنساً مع رصانة عربية واضحة . على أن أسلوب الكاتب الخاص يبدو فى مزج كل هذه الأحاسيس مزجاً خاصاً به وبذوقه ، وبفنه الذى لا يشاركه فيه الغير إلا بقدر . وهكذا يعرف الكاتب بأسلوبه الخاص للقارئين المتذوقين لفنه . وليس من اليسير أن تعرف الاسلوب تعريفاً جامعاً مانعاً لأن الأسلوب يحس أكثر مما يعرف فهو ذوق ، والذوق لا يحتمل قيود المنطق وتحديد المدلول إلا فى تكلف لا يشبع الفكر ولا يقنع وتتعدد الأساليب

بتعدد الكتاب ، وتلحقها أوصاف كثيرة ، كما تلحق الناس ضروب من الصفات . ومن الكتاب الأدباء من يلحق بخياله وقلمه وعواطفه وبيانه إلى حيث يرتفع عن الواقع المألوف ارتفاعاً قصياً ليكشف لقارئه علماً من المعانى المستخفية فوق الواقع ووراء الواقع ، وبذلك يأخذ بقارئه إلى نشوة ولذة من سحر البيان وروعة الفن والخيال ، حتى يحس القارىء المتذوق بما لا يحس به غيره ممن لا يشعرون إلا بالواقع المحسوس ، ومن الكتاب من يوجه نظره وأسلوبه لهذا الواقع فلا يرتفع بالقلم ولا بالرموز اللفظية ، ولا بالتشبيهات والكنايات إلا بما يتاخم الواقع ويلامس المشاهد المحسوس فيحسن التصوير ويناول الصورة لقارئه ظاهرة المعالم ، بينة الحدود مطابقة لمقتضى الحال ، خالية من كثرة التزويق والتنميق ، والباحثة أقرب ما تكون إلى هذا الفريق من الكتاب ، فموهبتها القلمية مهيأة لرسم ما هو كائن ثم تتعداه إلى ما يمكن أن يتحقق أو يكون قريباً من التحقق وهى حين تكتب لا تفارقها آثار الدين ونزعات الوطنية والشرقية والعروبة . والكثير مما يقبله العقل عن التقاليد مما يرضاه من القيم الاجتماعية التى تواضع الناس على تقديرها ، ولعل أبا الباحثة « حفنى ناصف » كان من هذا النوع الواقعى من الأدباء الذين يميزهم أسلوبهم فى داثرة الطلاوة والواقعية والوضوح ومساواة اللفظ للمعنى ، فهو بالنسبة لها قد يكون مورثاً ومدرساً وهى بالنسبة له وارثة أو دارسة . وإلا فهى موهبة خاصة « لملك » وقد يصح أن كلا من توريث وتدريس قد تآزر فكان ما كان من كاتبة الباحثة .

ولننتقل الآن إلى نزعاتها وأفكارها الاصلاحية :

النزعات الاصلاحية للباحثة وتفكيرها :

لقد ضمنت الباحثة أبقى أفكارها وتوجهاتها الإصلاحية فى كتاب النسائيات ، وتذكر فى مقدمته :

إنى فكرت فى جمع مقالاتى ، وطبعها كتاباً أقدمه للأمة المصرية الكريمة

راجية أن تغفر لى زلة القلم فيه ، فانى مبتدئة ، ولا يعدم المبتدىء أغلاطا . وعسى أن تقرأه الفتيات والسيدات المصريات، فهو مذكرة اللائى غنين منهن بأصالة رأيهن ، وحسن تربيتهن ، عن استجداء النصيحة ومرشد للاتى يسترشدونه . لا أدعى فيه ابتداعاً ولا إبداعا فما هو إلا سلسلة مشاهدات وتجارب أثرت فى فدونتها ليتعظ بها غيرى ممن لم تعركه الحوادث . ولم يتيسر له التجاريب ، وما قصدت إلا النفع العام والدفاع عن المرأة المصرية المهيضة الجناح . ولعل الله يحقق هذا القصد ويشد أزرنا لما فيه إعلاء شأننا وتقوية الفضائل فى أخلاق هذه الأمة ، بحسن القيام على تربية أبنائها ، والله الهادى إلى الطريق القويم »

والكتاب وإن وصفته الباحثة تواضعاً بأنه يخلو من الابتداع والإبداع، إلا أن البديع فيه أنها كانت أول من وجه كل قواه النفسية والبيانية من الكاتبات المختارات ، لإصلاح العائلة ، وإسعادها فى نهج متزن «وكانت قاعدتها فى تحرير المرأة قاعدة الاعتدال ، ورائدها فى ذلك هو الشرع الاسلامى »(١)

من أجل هذا سارت دعوة الباحثة فى السبيل المأمونة من غير تعثر ، ولم تلق مالقيه قبلها قاسم أمين من أساليب المقاومة والعنت .

وكتاب الباحثة الذى أسمته «النسائيات» هو مجموعة من المقالات نشرت فى صحيفة الجريدة فى موضوع المرأة المصرية ويحتوى على أربع وعشرين مقالة أكثرها فى موضوعات الزواج ووجوب أن تكون فى الرغبة والألفة وحسن المعاشرة حتى يسعد المنزل وتنتشر فيه روح التعاون ، ويترى فيه البنون تربية صالحة لتهيئة «مجتمع راق» فهو كتاب اجتماعى وأخلاقى لايخلو من نواح فى فنون التربية . وإذا كانت عائشة التيمورية قد دعت من قبل دعوة إصلاحية محدودة لرفع الغبن عن المرأة وتعليمها فان الباحثة كانت تتجه فى دعوتها إلى إصلاح العائلة جميعها فى جملتها وفى أجزائها .

(١) أحمد لطفى السيد فى مقدمة الكتاب .

كتبت الباحثة رأيها فى الزواج ، وفى الحجاب والسفور ، وفى البيت والمدرسة ، وفى زواج الأجنبيات ، ومما كتبته فى الحجاب والسفور تلك الكلمة التى تخاطب فيها الداعى إلى السفور ، وتوجه القول إلى المرحوم عبد الحميد حمدى ، ناشدتك الله أيها الأديب . كيف تأمر الآن بالسفور ونحن إذا مشت إحدانا فى طريق لا تزال تنصب عليها عبارات الوقاحة ، فيرشقها هذا بنظرة فاجرة وذاك ينضح عليها من ماء سفالته ، حتى يتصبب عرقها حياء فمجموع رجال مثل مجموعنا الحالى لا يصح بحال ما أن يوكل اليه أمر المرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه ، ومجموع نساء كنسائنا الآن لا يفهم إلا ما يفهمه الرضيع يصبح سفورهن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها ثم أفدنى أيها القارىء بالله ماذا تقول امرأة جاهلة أو متعلمة تعلما ناقصاً لشباب تجتمع به ؟ أتباحثه فى العلوم وهى لا تدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لا يعتد بها ، أم تناضـــله فى السياسة وهى لا تعلم أين انجلترا من جزائر الأرخبيل ، ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار ، مثلا أم ماذا تفعل . اللهم أنها لا تجد شيئاً تقوله إلا ماقد تستحسنه من هيئته وحسن بزته وهناك الضلال الكبير » .

وكان فى أقوالها فى أمر السفور ماأثار إلهام شوقى صديق أبيها ، فأرسل شعراً من أدق وألطف روائعه وردت عليه ملك بقصيدة من نفس الروى تملأها الرقة والظرف ، وتذكرنا برقة أبيها فى أسلوبه من الشعر فكأن شيطان الشعر واحد عند حفنى وملك . وكأن شيطانه وشيطانها يتآزران .

وإنى أنتهز هذه المناسبة التى جاء فيها ذكر الشعر لكى أضع تحت نظر الدراس بعض منظوم «الباحثة» فهو وإن قل ، شعر راق . ولو أنه كثر لسمى بتلك الكاتبة الممتازة إلى مصاف الشاعرات الممتازات .

ولنبدأ شعرها بتلك القصيدة التى نوهت فيها بما هو أليق للمرأة من الأعمال ، كما نوهت بمسألة الاختلاط بين الرجال والنساء ، وبمسألة السفور

والحجاب . والسبب فى إنشاء هذه القصيدة أن الشاعر الكبير شوقى كان قد بعث إلى الجريدة بإحدى روائعه الشعرية ، ورمز فيها إلى منازع الحرية وتوقان النفوس إليها ، وتطاول الشعوب والأمم إلى نيلها ، وإلى جور القوى على الأعزل ، واستغلال الأقوى للأضعف . وحض على ضرورة التسلح لدفع العدوان والهوان ، والاستعانة بالأسباب ، والالتجاء لفضل الله لإنقاذ الوطن مما كان يعانيه وقت إذن من المتاعب ، ومن تضييق على الحريات وما إلى ذلك مما تحوم حوله تخيلات شاعر ملهم ، ومما تتناوله تلميحاته وإشاراته فتصح إذا هى اتصلت بالشئون السياسية والعامة ، كما تصح إذا هى اتصلت بموضوع تحرير المرأة الذى أثاره قاسم أمين ، واشتغلت به «ملك» بعد ذلك على أسلوبها مكافحة ومناضلة ، وانشغل الرأى العام به كذلك

وبدأ شوقى قصيدته المشار إليها موجهاً حديثه إلى عصفوره الحبيس بالقفص والذى أطلق عليه اسم « ملك الكنار » وأهدى الشاعر القصيدة للكاتبة «ملك» وعلى ذلك أخذ المفسرون من الأدباء لتلك القصيدة الرمزية يؤولون ما جاء فيها على ما يتناسب مع مسألة المرأة ومطالبها فى التحرير :

وبدأ شوقى قصيدته بالبيت الآتى :

صداح يا ملك الكنار ويا أمير البلبل

إلى أن قال :

ياليت شعرى يا أسير رشج فؤادك أم خلى
وحليف سهد أم تنا م الليل حتى ينجلى
بالرغم منى ما تعالج فى النحاس المقفل
حرصى عليك هوى ومن يحرز ثميناً يبخل

إلى أن قال :

والقيد لو كان الجما ن منظما لم يحمل

يا طير لولا أن يقو لوا جن قلت تعقل
أسمع فرب مفصل لك لم يفدك كمجمل
صبراً لما تشقى به أو ما بدالك فافعل
أنت ابن رأى للطبيـ عة فيك غير مبدل
أبداً مروع بالاسا ر مهدد بالمقتل
إن طرت عن كنفى وقعـ ت على النسور الجهل
يا طير والأمثال تضر ب للبيب الأمثل
دنياك من عاداتها ألا تكون لأعزل

إلى آخر ما فى القصيدة :

وردت باحثة البادية على قصيدة الشاعر مفسرة ومشيرة إلى مذهبها فى الإصلاح ، ووجهت الحديث إلى فتاة ، فقالت :

يا هذه لا تعذلى وإذا أبيت فقللى
أفرطت فى لومى ولو أنصفتنى لم تفعلى
لا خير فى نجوى بغيـ ر روية وتعقل
ماذا فهمت من الكنا ر ومن حديث البلبل
حتى سخطت على المعيـ شة فى ظلال المنزل
وودت أن تجوى مقا ما بالعراء فتنزلى
رب الكبار أظنه عما زعمت بمعزل
خال الكنانة طائراً والشعر حسن تخيل
فحفا على مثواه فى قفص النحاس المقفل
ونهى زمان مراحه بين الربى والجدول
والقيد ذل لو يكو ن خلاخلا فى الأرجل
وغدا يعزيه ويأ مره بحسن تجمل
ويقول إن الحبس حر ز من تقضى الأجول

أهدى القصيدة فى الجريـ ـدة لى هـدية مفضـل

إلى أن قالت :

مجد الفتاة مقـامها فى البيت لا فى المعمل
والمرء يعمل فى الحقـ ـول وعرسه فى المنزل
كم خدمة يقضى نظا م البيت إن لم تعملى
من للولـيد يعينـه فى لبسـه والمـأكل
ويميط عنه أذى الهـوى بتلـطف وتحـيل

إلى أن قالت :

لكن إذا دعت الضرو رة للخروج فحيهـل
سيرى كسير السحب لا تأنى ولا تتعـجلى
وتنـكبى نهـج الزحـا م وفضلى النهج الخلى
لا تخضعى بالقول أو تتبرجى أو ترفـلى

إلى أن قالت :

أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمفضل
ذهب الأئمة فيـه بيـ ـن محرم ومحلل
ويجوز بالاجماع منـ ـهم عند قصـد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصرى أو طولى

إلى بقيه القصيدة التى تكشف عن مذهب الباحثة فى حرية المرأة على نحو من الاعتدال .

وللباحثة أشعار غير هذه القصيدة منها رد على أبيها الذى كانت تعمل له جراحة فى عينيه بدون تخدير فكتب لابنته ملك يقول :

ولقد ذكرتك والطبيب بجانبى والجسم فوق فراشه مطروح
وجفون عينى بالملاقط فتحت وبها المباضع تغتدى وتروح

إلى غير ذلك من وصف العملية الجراحية ، فكتبت له وهى فى السادسة عشرة من عمرها وكانت مريضة بالسعال :

من مبلـــغ عنى طبيبك أنه ... يفرى بمبضعه حشاى وأضلعى
يخبرك صدرى بالحقيقة إذ بدا ... من شر طعنته السعال مشايعى
فلئن سكت فمن ضرورات الأسى ... ولئن سعلت فزفرة المتفجع
ولئن بكيت فإنما لتذكرى ... عينيك تفتح بالسنان المشرع
فاسلم أبى وانظر إلى برأفة ... عينى فداؤك كى أقر ومسمعى

وقالت فى رثاء الشيخ محمد عبده :

ليبك العلم والاسلام ما سلما ... وليذرفا الدمع أو فليمزجاه دماً

إلى أن قالت :

والدين طهرته من بدعة عرضت ... عليه فى سالف العصر الذى انصرما
والعـــلم والدين للجنسين مطلب ... فليس يختص جنس منهما بهما
فنحن فى الحزن شاطرنا الرجال كما ... فى الاستفادة شاطرناهم قدماً
يا حجة الدين من يبنى دعائمه ... للمسلمين إذا بنيانه انهدما

إلى آخر هذه المرثية .

وقالت فى الحجاب :

أفتطلبون من الفتاة سفورها ... حسن ، ولكن أين بينكم التقى
تخشى الفتاة حبائلا منصوبة ... غشيتموها فى الكلام برونق
لا تتقى الفتيات كشف وجوهها ... لكن فساد الطبع منكم تتقى
لا تطفروا بل أصلحوا فتياتكم ... وبناتكم وتســـابقوا للأليق
أرضيتم عن كل شىء عندنا ... وخشيتم أمر القناع إذا بقى

إلى أن قالت :

ليس السفور مع العفاف بضائر ... وبدونه فرط التحجب لا يقى

وغير ذلك من الأشعار الحماسية لمناسبة إصدار قانون المطبوعات فى سنة ١٩٠٩ وتقول فيه :

يا أمة نثرت منظومها الغير ... حتام صبر ونار الشر تستعر
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم ... حتى كأنكم الأوتاد والحمر
ستسلبون غداً أغلى نفائسكم ... لحرية ضاع فى تحصيلها العمر

إلى آخر ما فى القصيدة .

ولنعد الآن إلى نثر الباحثة بعد حديثنا الموجز عن شعرها الذى سقناه لمناسبة له . لقد كتبت فى الزواج الذى لا يسعد ولا يسايره التوفيق ما يلى :

« أليس عجبا أن نرى نساءنا وفتياتنا يتهتكن كل يوم فى عرض الشوارع ويملأن حوانيت الباعة ويذهبن فى الخلاعة كل مذهب ، فيكلمن سائق الترام ويقفن مائلات عاريات الصدور متبرجات أمام المصور ، وإذا طلب خاطب مستنير من أبى الفتاة أن يسمح له برؤيتها والتكلم معها وأبوها يراقبها عد ذلك أمراً إداً . . هذا رجل وذاك مثله ، والأول تكلمه بلا مراقبة ، وإنما بعلم وبترخيص من أهلها ، والآخر يريد أن يكلمها أيضاً ولكن مع مراقبة أبيها ، وغرضه شريف ، وهو معرفة كنه التى سيتزوج بها ويجعلها شريكة حياته ومربية لولده . فما السبب فى منح الأول ومنع الثانى ؟ اللهم إن هو إلا الجهل والعادة وحب القديم حتى ولو كان مضراً . فنتيجة شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما مقدماتها الأسباب التى شرحت قبل ، وهى جهل أحد الزوجين بالآخر وزواج مختلفى الطباع متعلم وجاهلة وبالعكس ، أو غنى وفقيرة ، ومختلفى الدين والبلد ، والطمع فى الغنى بغير نظر إلى الأخلاق ، والزواج القسرى ، وتأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه فى أحكام الزواج والطلاق وهذه الأسباب كلها شعب لأصل واحد ، هو عدم الحكمة (١)

---

(١) النسائيات ص ٢٦ ، ٢٧

وكتبت فى تعدد الزوجات والضرائر بقلم يفيض بالعاطفة والحماس والانفعال ، ومما قالته :

إنه لإسم فظيع تكاد أناملى تقف بالقلم عند كتابته ، فهو عدو النساء الألد وشيطانهن الفرد ، كم قد كسر قلباً وشوش لبا وهدم أسراً وجلب شراً . وكم من بريء ذهب ضحيته ، وسجين كان أصل بليته ، وإخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا ، ففرقهم أيدى سبا ، وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ، ويضمرون السوء بعضهم لبعض ، يثأرون ولا ثأر بنى وائل ، وكانوا لولاه متفقين . إنه لإسم فظيع ممتلىء وحشية وأنانية كم أحرج رجلا وعلمه الكذب ، فأفسد عليه خلقه وكم بذر مالا كان يعده البعض رزقه ، وكم أحفظ قلب والد على ولد ، كم علمه الوشاية والحسد ، فاذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات ، يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك ، ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلا ! » (١)

وكتبت الباحثة فى «سن الزواج» وأنها بذلك سبقت غيرها من العاملين والعاملات فى إنصاف المرأة . « على ملاءمة سن الزوجين يتوقف شيء كثير من الوفاق والمحبة ، والواجب ألا تتزوج الفتاة إلا متى صارت أهلا للزواج كفئاً لتحمل مصاعبه ، ولا يكون ذلك قبل السادسة عشرة ... وزواج مختلفى السن إضعاف للنسل ، وشقاء للزوجين ، وقلب لنظام الطبيعة الدقيق » (٢)

ومما كتبته فى الزواج بالأجنبيات «وإن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق ، ففى عصر اسماعيل هجم علينا جيش من الشركسيات انهزمنا أمامه وخرج ظافراً منا بأحسن رجالنا ، فلم يكن شريف أو نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من شراء اسماعيل .

---

(١) النسائيات ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) « « ٢٦ ٣٥

ثم ابتدأ رجالنا فيما بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوروبيات وليتهن من ذوات الشرف ، ولكن كان أكثرهن وإن لم يكن كلهن — من الراقصات والخادمات وأضرابهن. كل ذلك يجرى ونحن ساكنات ننظر ولا نتكلم خيفة الريب ولكن نساء ذلك العهد كن جاهلات لا يفقهن شيئاً كان ذلك خير قصاص منهن على الجهل أما وقد صار بمصر الآن من المعلمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن أفليس من العار أن تقدر على أن تجعل ابنك شريفاً من ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوربية ؟؟؟ .

ثم اليس من العار أن تشرئب دائماً لما فى يد غيرك وعندك أحسن منه .

ألا رب معترض يقول ن أقد بطل الرق الآن وأن من يصاهر الترك يصاهر أكفاء . هذا صحيح ولكن الأم تغذى الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلغتها ، فإذا ماحنت التركية لوطنها نشأ متشبعاً بأميالها ويميل عن مصر ،وهو معدود من رجالها . وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطرى للاتحاد هو على ما أرى ناشىء عن تشعب أجناس أمهاتهم فابن الفرنسية يحب فرنسا ، وابن الزنجية يذكر خصب السودان ، وإبن العربية يفتخر بمحتبره ، وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده وهكذا أضعنا وطنيتنا المصرية من طريق المصاهرة بالأجانب .

ثم أجدنى محقة إذا قلت إن النوع يحن لنوعه فاذا تكافأ الرجل والمرأة فى العلم والتربية وكانا مصريين مثلا فان الحب بينهما يكون ألصق وأمتن منه لو كانا مختلفى الجنس والمذهب (١)

وفى هذا الفصل وأمثاله مما كتبت الباحثة نجد أن النزعة القومية متأصلة فى نفسها ، وأحرصها على خدمة هذه النزعة فى نفوس الوطنيين تعدها لأن تؤول تفرق الرأى بينهم ولنرجعه إلى التزوج بغير المصريات ، وهذا تأويل

---

(١) ص ١٤ و ١٥ النسائيات

لا يخلو من دقة كما أن فيه الكثير من تشتت الرأى العام وتبلبله قد يرجع إلى تعليلات أخرى غير ما تتخذه الباحثة من تعليل .

وقد تنتقل باحثة البادية إلى تحليل ما تتصف به النساء من النقائص وفى نظرها أن الغيرة الشديدة التى تسيطر على المصريات هى من أبرز ما يؤخذ عليهن فتقول ، عن المرأة الغيور :

« إذا ذهب زوجها لديوانه ودعاه صاحب له إلى الغذاء معه فلم يؤب لمنزله إلا بعد العصر تراها تتكدر وتثور زوابع غضبها وتتهمه إما بزواج جديد أو بمصاحبة غير شرعية ، تراها إذا دعى للسهر مع إخوانه فتأخر قليلا بالليل تسأله أين كنت ، ولا تصدقه إذا قال الحقيقة . .

فمبدأ عدم الثقة يسبب ما تخافه المرأة . ويصير الخيال حقيقة فيلتفت الزوج إلى ما تقول امرأته ، ولا يلبث أن يتزوج أو يخالل ، لأنها علمته أن هذا الأمر مستطاع له ، وسهلته على أذنيه وروحه بكثرة ذكرها له وشدة الضغط تحدث الانفجار ... ثم تقول الغيرة القليلة ممدوحة لأنها تدل على حب الشخص للآخر وعلى اهتمامه به فاذا رأت سيدة بعلها غير مستقيم السيرة وتأكدت ذلك عن طريق الصدق لا من شياطينها وأعوانها وإن لم تغر عليه فانها لا إحساس لها ، والحجر أقرب للتأثير منها . وأما إذا استعملت الغيرة فى غير موضعها فانها تشقى نفسها وتشقى زوجها وتشقى أهله وأهلها (١)

يستطيع القارىء أن يرى فى هذا المقال ما يدل على دقة تصوير الواقع وعلى جودة تفكيرها فى الشئون النفسية عندما تدرك منفعة القليل من الغيرة فى حفظ الروابط بين المرء وزوجه ، وضرر الغيرة الجامحة على الحياة الزوجية

وتسترسل الباحثة فى النقائص التى تنسب للمصرية (فى عهدها) فتتحدث عن الأثرة التى تقصى بين النساء وأقارب أزواجهن ، وتتحدث عما تصاب به النساء من مباراة فى السفه والاسراف فتقول (٢) ـ « علة المباراة الحقيقية

---

(١) ٣٩ و ٤٠ من النسائيات

(٢) ص ٤٦ « «

هى الحسد ، يأكل القلب ، ويكثر الهم ، فلا تطيق صاحبته أن ترى أجمل منها هيئة أو أغنى مظهراً ، وتهتم فى أن تكون هى المشار اليها بالبنان فى المجالس ويسكرها الطرب إذا ذكر غناها واقتدارها على اقتناء العربات الجميلة ، والخدم الكثير وبعضهن تبيع حليها أو شيئاً من أملاكها . لتشترى سيارة أو لتسافر إلى أوروبا لا لأنها تحب السياحة ، أو تستفيد من الأسفار ، ولكن لأن غيرها فعلت ذلك ... أرى أنه لا يجمل بالسيدة العاقلة أن يستحكم منها داء التقليد لأنه يدل على صغر النفس والاحساس بصغرها ... يقول الحديث الشريف :

« الناس بخير ما تباينوا » وهى حكمة بالغة أو هى كل نواميس العمران ولباب نظامات الاجتماع ... وعليه فلا يمكن أن يتساوى البشر ، ولا يمكن مع الأسف أن نكون كلنا غنيات .... والخلاصة أن الغنى ليس متيسراً لكل فرد فأولى أن يلزم كل حده لئلا يكون مثلنا كمثل الضفدعة التى أحبت أن تبلغ كبر الثور فاستعانت بالماء فانفجر جوفها فماتت . ولتعلم المرأة أنها وكيلة الزوج فى ماله وبيته ، والوكيل يجب أن يكون أميناً تقياً ، وأن التكالب على المباراة صفة مصغرة للنفس ، وأنى لا أزعم أن رجالنا وأبناءنا يقل فيهم الباحث ، ويندر المخترع أو لا يكاد يوجد لأننا متشبعات بحب التقليد لا تجدد همتنا بالبحث والاستنباط فيكون لهم من زوجيتنا وأمومتنا محك لأفكارهم ، أو أسوة ومثال حسن » (١)

ولعل من يدقق فى هذا المقال يتبين له أن الباحثة تؤيد مسألة التباين الاجتماعى فى الثروة ، وأنها طريفة فى تفكيرها حين تشير إلى النساء المقلدات اللاتى يستسلمن للمحاكاة المغالية ، يرجع إليهن عقم الأمة وخلوها من المخترعين والمخترعات .

ثم تأخذ على النساء الحدة وسرعة الغضب ، فتقول : « كل شريكين قد

---

(١) ص ٤٦ — النسائيات

يختلفان اختلافات بسيطة ، ولكنهما لا يذيعانها ، ومن أحق بكتمان السر من شريكى الحياة ، أعنى الزوجين . والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلا من اهتمامه ، بل يزيله بمجرد الفراغ من التكلم فيه »

وبعد أن تسترسل الباحثة فى تحليل نقائص نساء عهدها ، على نحو ما قدمت فى ذلك الموضوع ، تعود لتستأنف القول فى مساوىء الرجال ، فتتحدث فيما يصيبهم من طمع ، وما يتصفون به من ظلم وما يظهر عليهم من من الازدراء بالمرأة .

ومما كتبته فى الطمع (١) « لا أعد الرجل ذا مروءة ونخوة وهو يبيع حلى امرأته ويجردها حتى فى حال عسرة ، لا يعذر الرجل على مد يده لمال زوجه إلا إذا كان له من ضعفه وعدم اقتداره على العمل مبرر ، على أن هذه المسألة من التعقيد بحيث يسهل عندها ذنب الضب ، فان بعض النساء يهددن بالفراق إذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ، ويذكر لهن الزواج إرهابا ، فأى الأمرين تختار المرأة البائسة (٢) .

« ومن أقوالها الطريفة التى تدل على روح الفكاهة فى الظرف قولها ، إزداد طمع الرجل فملك عليه حواسه فصار ينام يحلم بالمال ويقوم يشتغل له ولا عيب عليه فى ذلك وإنما الذى يعيبه أنه زادت خميرة جشعة فجمعه ذوقه واستحكم منه الطمع فى كل شىء حتى فى عروسه ، (ماذا عندها) كلمتان ألفناهما وهما أول ما يفتح به للخاطب ، وقد لا يسأل غير هذا السؤال ، فأبو العروس الذهب ، وأمها الفضة ، وأخلاقها النحاس ، وسمعتها الطين ، ومعارفها العقار .

وتتابع الباحثة كتابتها فى ظلم الرجال للنساء فتستعرض الحوادث المختلفة التى يبدو لها منها سبب الظلم وتلوح بنتائج الاساءة فيتدفق البيان من قلمها حاراً شديد الوقع على المعتدين ممن لا يحسنون معاملة النساء ولا يقدرون

---

(١) ص ٥٣ النسائيات (٢) ص ٥٧ النسائيات

الأمور بتقديرها الحق . ومما كتبته فيمن يفترقون عن نسائهم لأنهن لم ينجبن البنين ما يلى (١) :

أن رجلا من ذوى الرتب عاف زوجته لأن أولادها منه كلهم بنات فطلقها واقترن بأخرى على أمل إنجاب الذكور فأتت له بأنثى ثم بأنثى ثم بأخرى وهكذا أبى الله إلا أن يتم ما أراد فكأنه استبدل بنات بغيرهن ولكنه خسر ود امرأة صالحة كانت تحبه وغير عليه قلوب بناته الشابات وظن أنه كسب ود أخرى وما هو إلا واهم فيما زعم .

ليت شعرى إذا فرضنا أن ولادة البنات عيب كما يرى بعضنا فهل للمرأة يد فى ذلك ولماذا لا يعيب الرجل كما يعيبها . لماذا لا تعافه المرأة وتطلب اليه أن ينفصل عنها ، وتتزوج غيره لتلد ذكوراً . إذا صح أن يتشبث أحد الزوجين بهذه الخرافة صح للثانى أيضاً إذ هما فى حقها وبطلانها سيان .

وتمضى الباحثة فى تتبع مساوىء الرجال وازدرائهم للمرأة فتشير إلى مايحفل به البعض عند ولادة الصبى واستيائهم عند ولادة البنت . وتثور « ملك » عندما تتصور أن بعض الرجال قد يشخص ازدراءه لامرأته حين لا يكاشفها بآلامه وأحزانه وبما ينوى تحقيقه من الأعمال كأنها غريبة عنه وتزداد ثورة الباحثة عندما يمر بخيالها شبح من يستسهلون الطلاق فتراها تجأر بما يلى (٢) : « أى ازدراء وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما ، وتشتت ملتئمهما ، وأى أمل لها فى مستقبل مظلم لا تدرى متى ينهار بنيانه . إن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا من غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وإنما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما أنَّ منها النساء البائسات » .

ثم تنتهى الباحثة من ثورتها وغضبها على من يزدرى المرأة ، بعد تقليب وجوه الإزدراء فتقول متوعدة ومهددة « ماجعل الله لرجل من قلبين فى

(١) ص ٦٠ النسائيات (٢) ص ٦٣ من النسائيات

جوفه ، فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون إصلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور أما والله لو أرانا رجالنا عناية واحتراما لكنا لهم كما يحبون فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون . فإن أرادوا إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون » (١)

وبعد أن تبرز لنا « باحثة البادية » مساوىء النساء ومساوىء الرجال ، وتشخص لنا فى حذق ومهارة مختلف الأمراض والعلل التى تتعرض لها نفسية الرجل والمرأة تعود لتصف لنا الدواء فتوجه إلى خير الطرق للخلوص من هذه الأدواء . ومن خير الطرق التى تراها فى ذلك أن لا يضيع الرجل ما يمكن أن يكون له من تأثير حسن فى بيته وفى بنيه وكذلك ينبغى على المرأة أن تستغل ما منحها الله من طيب المزايا لاسعاد البيت ومن يعيشون معها فيه . وعلى ذلك تستوجب الباحثة على الوالد المستنير اللبق أن يخالط أولاده ليمنحهم من استنارته وعلمه وتجاربه ويضفى عليهم من فيض فضائله وميوله الرفيعة . ومن أقوال الباحثة فى ذلك ما يلى (٢): « إن الأسرة الواحدة يجب أن تكون تامة الامتزاج مرتبطة بالحب الصحيح فلماذا يضيعون ذلك الحب الطبيعى بقسوتهم وجفائهم ولماذا لا يبثون روحهم فيمن حواليهم من بنات وأخوات ولماذا لا يجعلون لهم تأثيراً حسناً فى أسرهم . وكما يتوارث الأولاد اللون والخلقة عن والديهم يجب أن يتوارثوا عنهم أيضاً أخلاقهم الحسنة وميزاتهم . وبودى لو يجتهد كل شاعر فى أن يجعل أبناءه ذكوراً وأناثاً شعراء . وكل رياضى أن يعلم أسرته الرياضة وكل سياسى أن يجعل زوجته وذويه يتباهون بمبدئه حتى يتم الامتزاج المطلوب وتظهر فينا روح الحياة الطبيعية والسلام » .

وتنصح الباحثة بمقاومة التكلف بين الزوجين وترى أن الكلفة بينهما مرض يجب أن يتقى لأن الزوجية تقتضى أن يسير كل من طرفيها على فطرته

---

(١) ٦٥ النسائيات (٢) ٧٣ من النسائيات

وبجيته حتى يتشخص الامتزاج والتقارب بين من يرتبطان برباطها الوثيق فهى ترى أن « بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق مع مايريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه ويشذ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة إرسالا من غير تعقيد ولا إبهام فالسماء معقودة على الأفق فى مصر وهى كذلك معقودة على الأفق فى اليابان وفى جريلاند لم يضع الله لها عمد المرمر فى إيطاليا ، ولا قوائم العاج فى السودان ، ولم يقرها على حوائط البللور فى النمسا . تنيرها الشمس نهاراً (فى القطبين) والقمر ليلا وقد نثرت فيها النجوم نثراً إلا قليلها فهو منظوم » والكاتبة تريد أن تمهد بهذه المقدمة البليغة الخطابية إلى أن الله لم يتكلف فى رسم النجوم ورصها رصاً هندسياً فى أشكال منسقة ومنمقة ولم يفعل ذلك فى مشاهد الطبيعة من غابات وأحراش وأنهار وبحار ومع ذلك فإن فى هذا الذى لا تكلف فيه من مشاهد الطبيعة ومظاهرها ما يأخذ جماله بلب المتأمل المتفكر وعلى ذلك فيكون لمظهر البساطة الزوجية جماله ويكون لمجافاة التكلف فيها كل بهجة ومسرة .

ولا يفوت الباحثة أن تسدى للسيدات جملة من النصائح التى تجملهن فى أعين أزواجهن وخلفهن فتراها تطالبهن بمظاهر الابتهاج والبشاشة فتقول(١) « البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة ومعوان على قضاء الأشغال يصل نورها إلى قلب صاحبها فيفعمه غبطة . وكذلك يلقى شعاعه الكهربائى على من حوله فتنتعش به أرواحهم وهى جميلة فى الكهل كما تجمل فى الطفل إلا أنها أبهى وأشد تأثيراً فى المرأة تلك التى تسيطر على القلوب ولا تدرى .

خلقت المرأة لطيفة بالفطرة والبشاشة من لوازم اللطف كما هى من المؤثرات فى الجمال وإن لين صوتها ونعومة أديمها وتناسب أعضائها لتستدعى مراعاة النظير فى رشاقة حركاتها وانفراط أسرة وجهها كذلك صوت المرأة

---

(١) ص ٨٦ النسائيات

يدل على تربيتها فالمرأة المهذبة لاترفع الصوت ولاتكاد تسمعها عن بعد إلا كالهمس » .

وقد نجد الباحثة تشتد فى اللوم والتقريع وتؤاخذ السيدات اللاتى يتعودن التدخين أو يتعاطين المسكرات فتفرد فصلا من كتابها بعنوان « جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر » ويبدو لى أن أنقل بعضاً من ذلك الفصل الذى يفيض بلطف الأسلوب ويتجلى بين سطورها روحها الفكهة ومظرفانيتها اللاذعة حين تكتب مايلى (١) :

« الله أكبر ماجمال المرأة المعنوى إلا فى عفتها ووداعتها . والتبغ مذهب لتلك الوداعة مخل بصفائها . صور قدماء الرومان واليونان آلهتهم برموز وتماثيل تدل عليها وكذلك يصور المعاصرون من الفرنجة كثيرا من المعانى فى أشكال مجسمة تعينها . مثلوا الحنو الوالدى والشفقة والصبر والحب وغيرها فى حجارة نحتوها وصوروا نقوشها ، ولعله لم يفتهم تصوير الكسل ولو أنصفوا لصوروه امرأة تقضى وقتها بين السيجارة والقهوة . وأظننا لانجهل مثلا حية كثيرة له .

وكما يذهب تعاطى التبغ بالجمال المعنوى كذلك يسلب الجمال الحسى . يرمى الأسنان بالصفرة ويغير اللثة والشفتين وأظنه يغير طعم الفم أيضا . ولو عاش الشعراء الأقدمون إلى هذا الوقت لما رأينا فى أشعارهم ذكر اللؤلؤ والبرد ووميض البرق وغيرها مما كانوا يشبهون به أسنان النساء لشدة بريقها . فاذا كانت المعاصرات وخصوصا المتمدينات منهن يزعمن أنهن أرقى من مثيلاتهن الغابرات فى كل شىء فقد أخطأن . وإذا كان « دارون » وأنصاره يدعون اطراد التحسن والارتقاء فى التسلسل الذى قالوا به فقد كان يتحتم عليهم أن يستثنوا جمال النساء لأنه راجع القهقرى » .

---

(١) ٨٩ النسائيات

ثم تسترسل الباحثة فى تحقير كل مامن شأنه أن يضعف جمال النساء وفى الحض على كل مايقوى معه هذا الجمال فتنصح لهن اتخاذ الرياضة البدنية وتقول (١) « للرياضة أنواع شتى تستعملها النساء الغربيات ولست أشير على نسائنا باقتباسها بأنواعها فقد لاتلائم مجتمعنا فمنها الألعاب المختلفة والركض والسباحة وركوب الخيل وأقلها كلفة وأكثرها ملاءمة للشرقيات المشى . . . . . إن آباءنا وأجدادنا كانوا أكثر منا مراعاة لترويض النساء من حيث لايدرون فان المنازل القديمة كانت كلها مبنية على الطراز التركى تحجبها أسوار عالية وداخلها الرحبات المتسعة والحدائق الغناء مما تمرح فيه نساء البيت ولا رقيب عليهن ويمتعن أنفسهن ببهيج منظر الحدائق وفوارات الماء . فمن لاذ للسمع ، وجميل للنظر ، وحلو للذوق ، ولطيف للمس ، وزكى للشم . طيور صادحة ، غزلان سارحة ، وفاكهة جنية ، وزهور شهية ، وروائح عطرية . خضرة الزمرد وشفافية البلور فى النبات والماء ، وبها الياقوت وأريج المسك فى الزهر والهواء ، وسواق ناعرة تجلب النوم وتجعله هينا وبالجملة كان عيش تلك البيوت مرتبا ونساؤها كما قال شوقى:

يمرحن فى مأمن مثل حمام الحرم

وباحثة البادية حين تشخص العلل الاجتماعية والنفسية ، وحين تنصح باتخاذ الوسائل للوقاية منها ودفعها بضروب من المعالجة تمد مختلف مقالاتها وفصول كتابها بما ينفع الرجال والنساء من النصح المؤدى لخير المجتمع ، تطلق أفكارها فى صراحة وتنتقد النقد المهذب النزيه المقبول الذى يؤدى إلى نتائجه دون أن يؤذى ودون أن يجرح . وهى تؤزر فصول الكتاب بخطبتين فى حزب الأمة وفى قاعة الجامعة وتردد فيهما آراءها فى إصلاح العائلة وفى التنديد بما يبدو لها من أخطاء الرجال ومن أخطاء النساء وفى إشاعة مختلف التوجيهات التى تحسب أن العمل على هديها يؤدى للنجاح إنما

---

(١) انظر صحيفة ٩٢ من النسائيات

(٢) « « ٩٦ « «

تفعل ذلك بلسان حاد ، بلسان داعية ومصلحة ومؤمنة برسالتها ودعوتها حيال الطرفين اللذين خلقهما الله لكى يسكن أحدهما إلى الآخـــر ولكى يتراحما ولا يتنافرا ولكى يتعاونا ويتكاملا لإبقـاء النوع البشرى وتقول الباحثة فى ذلك : «لم يخلق الله الرجل والمرأة ليتباغضا ويتنافرا وإنما خلقهما الله لسيكن أحدهما إلى الآخـــر فيعمر الكون إذ فى ائتلافهما بقاؤه . ولو انفرد الرجال فى بقعة من الأرض وانعزلت النساء إلى أخرى لانقرض الحزبان وحقت عليهما كلمة الفناء» (١) .

والباحثة حين تتحدث عن وجوب ائتلاف الرجل مع المرأة لاتجد أن فى هذا الائتلاف مايبرر ضرورة لتخصيص فى الأعمـال بنوع من القسر والقهر لـكل من فصيلتى الرجال والنساء وعندها أن « مسألة اختصاص كل فريق بشغل مسألة إصطلاحية لا إجبار فيها » (٢)

وبعد أن تدفع « ملك » حجج القـائلين بوجوب توزيع الأعمال بين النساء والرجال ليكون لهن مايشغلهن من أمور البيت وللآخرين ما يشغلهم من مشاق الـكفاح الحيوى نراها تعنف على من تتجه هذا الاتجاه فى التدليل فتقول « ولا يغيظنى أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا . إننا لسنا محلا لاشفاقهم وإنما نحن أهلا لاحترامهم فليستبدلوا هذا بذاك والاشفاق لايتأتى إلا من سليم لعليل أو من جليل لحقير فأى الصنفين يعتبروننا والله إنا لنأنف أن نـكون أحد هذين » (٢) .

وبناء على ذلك تدعو « الباحثة » إلى حرية التعلم للمرأة فـكل ماتتعلمه يعمل فى توسيع أفقها وأن تعلم المـــرأة ماتريده وتناولها مختلف المعارف والعلوم لايؤدى إلى إفساد ملـكاتها لأن ذلك مرده إلى سوء التربية ويجب على كل بصير أن يفرق بين التربية والتعليم .

---

(١) أنظر صحيفة ١٠٠ من النسائيات

(٢) « « ١٠٣ « «

ومجال التربية يكون أوسعه وأكثره إثمارا فى البيت وليس فى المدارس ومعاهد العلم . و« الباحثة » التى ترى وجوب تعميم الحرية فى تعاطى الأعمال وفى مختلف دور العلم نجدها لاتبيح الحرية فى لباس المرأة فتقول « يشكو الرجال من تبرجنا فى الطرقات وحق لهم لأننا خرجنا فيه عن المألوف والجائز . نحن نزعم أننا نحتجب ولكننا مابلغنا حجابا ولا بلغنا سفورا . لاأريد أن نرجع لحجاب جداتنا ذلك الذى يصح أن يسمى وأدا لاحجابا . فقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها لاتسير فى الطريق إلا وهى محمولة على الأعناق . ولا أريد سفور الأوربيات واختلاطهن بالرجال فإنه مضر بنا . إن نصف إزارنا السفلى اليوم مرط لا يتفق مع كلمة حجاب ، ولا مع معناها ، ولا مع الحكمة منه . أما نصفه العلوى فهو كالقمر كلما تقدم قصر » (١) . ثم نجد الباحثة تأخذ فى أن ترسم للنساء نوعا من اللباس يستر الشعر والمعصمين والجسم وتتدرج من ذلك إلى أن تنتقد لباس الأوربيات وتبرجهن وتوسعهن فى الاختلاط وتنتقد الرقص الغربى انتقاداً شديدا وعلى الجملة فهى تصد وتنهى عن الاستماتة فى تقليد الغربيين وتبدو تعصبها لشرقيتها وتشددها فى إسلاميتها فيما أرسلته من الخطب وتود لو يحتفظ الشرقيون ببعض تقاليدهم لتبلغ أممهم رقياً له طابعه وله شخصياته وتنتهى من ذلك كله إلى وضع دستور للمرأة المصرية فتقول :

« بقى علينا أن نبين الطريق العملى الذى يجب أن نسير عليه ولو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية :

المادة الأولى — تعليم البنات الدين الصحيح أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة .

المادة الثانية — تعليم البنات التعليم الإبتدائى والثانوى وجعل التعليم الأولى إجبارياً فى كل الطبقات .

---

(١) انظر صحيفة ١٠٩ من النسائيات

المادة الثالثة – تعليمهن التدبير المنزلى علماً وعملا وقانون الصحة وتربية الأطفال والاسعافات الوقتيه فى الطب .

المادة الرابعة – تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء فى مصر .

المادة الخامسة – إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد

المادة السادسة – تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد فى العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

المادة السابعة – إتباع طريقة شرعية فى الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

المادة الثامنة – إتباع عادة نساء الأتراك فى الآستانة فى الحجاب والخروج .

المادة التاسعة – المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان .

المادة العاشرة – على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا .

وهذا التلخيص فى مواد تتضمن جملة من اتجاهات ملك فى مقالاتها وفصولها لخدمة المرأة المصرية .

وقد تقيد هذه الاتجاهات فى أسلوب آخر فى خطبها الثانية التى ضمتها إلى الأولى وأثبتتها فى كتاب النسائيات إلا أنها فى الخطبة الثانية التى وضعتها فى المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية إلا أنها فى الثانية تتوسع فى معالجة موضوع الملابس والأزياء لتزيد تهكمها على ملابس الأوربيات وأساليبها فى التفنن الذى لا يليق بالاحتشام وعندما تقارن « الباحثة » بين الغربيات والشرقيات وتعترف للأوليات بكثير من المزايا إلا أنها ترى « أن الشرقيات أسلم قلباً من الغربيات وأقل خداعا لعدم الاختلاط بالرجال أيضاً فإن الغربية لتجوالها فى الخارج تتعلم كيف ترضى هذا وذاك لتظهر فاتنة جذابة وتعيش خداعة محتالة إذ الحاجة تعلمها الاحتيال على العيش فهى تطلبه بكل الوسائل

الممكنة وهى لا شك أنشط من الشرقية وأثبت منها على العمل إلا أن هذه أكثر قناعة وأشد رضا بالقليل » (١) ثم تأخذ على الغربيات « أن ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر فيزعمن أنهن يجتنبن الرذائل بمحض إرادتهن وتربيتهن . ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرأة عن إتيان ما لا يرضى فهل يصح أن تطبق هذه النظرية على كل امرأة . ألم يكن الايمان بالله وترقب ثوابه وعقابه هما المانعان لكثير من الناس عن الانتحار والكفر وإتيان المناكير والفحشاء والخيانة ألاساء ما يحكمون » (٢)

وتقول الباحثة فى خطبتها الثانية بكل وضوح وصراحة « إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الغربية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل . نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يراقينا حتى نبذل من ضعفنا قوة . وإنما لا يجوز فى عرف الشرف والاستقلال أن نندمج فى الغرب فنقضى على ما بقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة » (٣)

ونقول على الجملة أن خطب الباحثة سواء أكانت فى دور الأحزاب أو فى المؤتمر الاسلامى تتضمن كلها النزعات الاصلاحية المتفرقة فى فصولها فى الجرائد وتنم عن محاربتها للعادات السيئة وتمسكها بالتقاليد الشرقية النافعة وخضوعها لتوجيهات دينها الاسلامى واعتزازها بمصريتها وبعروبتها .

منزلة الباحثة فى ميدان الاصلاح :

ويجدر بالقارىء المتقصى لآثار « ملك » ألا يغيب عن نظره ما كان لكتابة الباحثة من التأثير الاصلاحى لأنها لم تنأ بنفسيتها بعيدا عن بيئتها

---

(١) انظر صحيفة ١٣٨ من النسائيات
(٢) « « ١٣٩ « «
(٣) « « ١٤٢ « «

فتبينت مساوىء المحيـــط الذى عاشت فيه بالمعاينة ، وتاقت لاصلاحه الاصلاح المستطاع وكانت ترسم خطواط ذلك الاصـــلاح وهى متسمة بميسمها الشرقى والمصرى والاسلامى وتعتز بكثير من مقومات مصر والشرق والإسلام مادامت تلك المقومات لاتجافى الطبع السليم فى شىء .

فمن أجل ذلك كله كانت صلتها وثيقة بالميدان الذى تعمل فيه ، ومن ثم كان لصوتها صدى مسموع وكان توجيهها مطاعا ومقبولا . وفضلا عن ذلك فان الباحثة تناولت تلك الناحية الحية التى يهتم بهـا الجميع وهى ناحية الأسرة التى يود كل واحد أن يتمتع بما تهيئه من خير وسعادة فالأسرة ناحية باقية ما بقيت الانسانية وإذا فسدت فسد المجتمع وإضطربت الحياة الاجتماعية

وفوق ذلك فان هذه الناحية تناولتها أقلام الكتاب والباحثين فى العهد الذى عاشت فيه باحثة البادية فى كتابات متناقضة ومتعارضة وكان قاسم أمين قد تناول الموضوع تناولا تبدو فيه روح الثورة فوجد من المعارضين من وجد ومن مر الانتقادات مايدعو إلى التفكير فى كل مايعوق المطالب العادلة التى يأملها المصلحون لرقى الحيـــاة الاجتماعية . . . وفى هذا الجو الصاخب المضطرب الملىء بالتجارب تناولت « ملك » نفس الموضوع ولكن فى أسلوب معتدل استطاعت أن تقنع به المعارضين والثائرين على سواء فكتب لدعوتها فى إصلاح الأسرة النجاح والتوفيق .

ثم كان لباحثة البـادية من الصلات بالأسرة ، ومن شخصيتها الجذابة المحبوبة مايدنيها من النفوس ويهىء لرسالتها النجاح وفضلا عما اكتسبته بنفسها من التجـارب فى محيط الزوجية وما لقيته فى حياتها من صعاب ومتاعب مما كان له الأثر الصادق فى نفسها ، فأثرت هى الآخرى بهذا الأثر الصادق فى مجموع من قرءوها كاتبة أو سمعوها محاضرة . . .

وإذا أضيف إلى ماتقدم طبيعتها من النشاط والإقـدام وحالتها من المزاج العصبى الصريح الحساس الذى يحفزها لانتهـاز كل فرصة للتبشير بمبادئها وإقناع من حولهـا بآرائها . . كل ذلك يبين لنا المدى الواسع الذى

كان لملك فى ميـــدان الاصلاح الاجتماعى فهى تستحق على من يذكرها ويؤرخ لها أن يضعها فى منزلة رفيعة لرائدة لبقة موفقة هيأت جو البيت المصرى لما ينشد له من الهناء والسعادة .

الـــــوفاة

وإن هذه المصلحة المتحمسة لم تبخل يوما عن مشاركة مواطنيها فى عواطفهم وأحاسيسهم الوطنية والسياسية فناصرت بقلمها مختلف الحركات القومية فى الدفاع عن الحريات وبخاصة حرية الصحافة وأسهمت فى الدعاية والعمل لجمعية الهلال الأحمر المصرى فأسست جمعية مماثلة لجمعية الهلال لمنكوبى الحرب الطرابلسية مما يشعر بما كان لهذه الكاتبة من ذكاء وهمة ونشاط والباحثة كغيرها من الصالحين والمصلحين كان لابد أن يدركها الموت شابة مكتملة الحيوية .

وأعود إلى أخيها «مجد الدين» فأسأله عن وفاتها فيقول «لست من عشاق الخرافات ولكنى أقص حكاية وقعت فى حداثة الباحثة ، ذلك أن إحدى معلماتها الانجليزيات كانت تقرأ لها كفها فتنبأت لها بمركز ممتاز فى العلم والأدب وحسن الأحدوثة والأثر حتى إذا ما وصلت المعلمة إلى علامات العقد الرابع شهقت فجأة ، ولم تشأ أن تزيد شيئاً فكأنه كان من المقدور للباحثة أن تموت شابة » . ويقول مجد الدين «لقد كنت متهما بالعمل لتهريب ضابط تركى أسير فى الحرب الأولى وكان المفروض أن أحبس أو يحكم على بما هو أشد ، وكانت ملك « مريضة بالحمى» فى دار زوجها بقصر الباسل بالفيوم ، فلما علمت بمسألتى سارعت بالحضور إلى القاهرة وركبت عدة قطارات وعربات وقاومت حتى أفرج عنى ولكنها بعد ذلك عاودتها الحمى واشتدت عليها وهرفت ثم خفت صوتها واختطفها الموت فى ١٧ من أكتوبر سنة ١٩١٨ فى الثانيـة والثلاثين من العمر .

وهنا تمر على وجه « مجد الدين » سحابة من ذكريات الأسى لكنه يتابع حديثه ويقول :

وبعد أن ماتت أختى اجتمعت طائفة من النساء لتأبينها بالجامعة برياسة المرحومة هدى شعراوى واجتمعت طائفة من الأدباء والمقدرين لتأبين الباحثة بعد ذلك فى القاعة التى حاضرت فيها وكان ذلك برياسة الشاعر اسماعيل صبرى نائباً عن عدلى يكن وزير المعارف . وكان والدى متعباً وسقيما على أثر الصدمات التى أصابته عندما قبض على فلما استمع لما ألقى فى الجامعة من المراثى تأثر شديداً وعاد إلى البيت لينام فتخبى فى غطائه وأخذ يبكى بكاء مراً ويزفر زفرة الثكلى واشتد عليه مرضه ومات بعد ذلك بأيام.

وأثبت هنا مرثيـــة حافظ إبراهيم التى القاها وقتئذ بالجامعة فى رثاء «الباحثة» لما تتضمنه هذه القصيدة المؤثرة من صدق فى الوصف للكاتبة ولحال أبيها . قال حافظ :

رثاء باحثة البادية

حافظ ابراهيم

(ملك) النهى لاتبعدى ... فالخلق فى الدنيا سير
إنى أرى لك سيرة ... كالروض أرجه الزهر
ربى أبوك النـــاشئ ... ين فعاش محمود الأثر
وسلكت أنت سبيله ... فى الناشئات من الصغر
ربيتهن على الفضيـ ... لة والطهارة والخفر
وعلى اتبـاع شريعـة ... نزلت بها آى السور
فلبيتكم فضل على الـ ... أحيـاء أنثى أو ذكر
لله درك إن نثر ... ت ودر (حفنى) إن نثر
قد كنت زوجاً طبة ... فى البدو عاشت والحضر
سادت على أهل القصو ... ر وسودت أهـل الوبر
غربيـة فى علمها ... مرمـوقة بين الأسر

شرقيـــة فى طبعهـــا   مخــدورة بين الحـجر
بينا تراهـــا فى الطرو   س تخط آيات العـــبر
وتريك حكمة نابه   عرك الحـوادث واخـتبر
فاذا بها فى مطبخ   تطهو الطعام على قـــدر
وإذا بها قعدى تخيـ   ط وترتضى وخـز الإبر
فخرت بوالدهـــا ووا   لدها بحليتهـــا افتخر
بالعلم حلت صـدرها   لا بالـــلالىء والـدرر
انظر شمائل فـكرها   بالله يوم (المـؤتمر)
واقرأ محـــاضرة الجر   دة) والمقالات الغرر
وارجع إلى ما أودعت   عنـد المجـلات الـكبر
تعلم بأنا قـــد فقدنا   خـــير ربات الفـــكر
ذنب المنيـــة فى اغتيـــا   ل شبابهـــا لا يغتـــفر
يا ليتها عـــاشت (لمص   ر) ولم تغيبهـا الحـفر
كانت مثالا صـــالحاً   يرجى وكـــنزاً يدخـر
إنى رأيت الجاهلا   ت السافرات على خطر
ورأيت فيهن الصيـــا   نة والعفاف على سفر
لا وازع ـ وقد انطوت   (ملك) يقيهن الضرر
لا كان يومك يوم لا   ح الحزن مختلف الصور
علمت هاتفة القصو   ر نواح هاتفـــة الشجر
وتركت أتراب الصبا   حزناً يقطعن الشعر
يبكين عهدك فى الصبا   ح وفى المســـاء وفى السحر
وتركت شيخك لا يعى   هـــل غاب زيد أو حضر
ثملا ترنحه الهمو   م إذا تحـــامل أو خطر
كالفرع هزته العوا   صف فالتوى ثم انكسر

أو كالبناء يريد أن ينقض من وقع الخور
قد زعزعته يد القضا ء وزلزلته يد القدر
أنا لم أذق فقد البنـ ين ولا البنات على الكبر
لكننى لما رأيـ ت فؤاده وقد انفطر
ورأيته قد كاد يحـ رق زائريه إذا زفر
وشهـدته أنى خطا خطوا تخبل أو عثر
أدركت معنى الحزن حز ن الوالدين فما أمر
وشهدت زوجك مطرقا مستوحشاً بين السمر
كالمدلج الحيران فى الـ بيداء أخطأه القمر
فعلمت أنك كنت عقـ د هنائه وقد انتثر
صبراً أبا (ملك) فأن البا قيـات لمن صـبر
وبقدر صبر المبتلى طول المصيبة والقصر
كن أنت أنت إذا تسا ء كانت أنت إذا تسر
يابرة بالـوالديـ ن أبوك بعدك لا يقر
فسلى إلهك سلوة لأبيك فهو به أبر
وليهنك الخدر الجديـ د فذاك دار المستقر

ويحسب « مجد الدين » عندما تطوف بخياله هذه الذكريات المحزنة أنه ربما كان فى مغامراته من الأسباب ما عجلت وفاة علمين بارزين من أعلام النهضة المصرية . لكن الله هو واهب الأعمار ومرجعها اليه وعليه أن يمحو بفضله آثار الأحزان والآلام .

والباحثة التى تهادى نعشها بين الكثيرين من المشيعين والمترحمين والباكين والناظرين إليه من نوافذ الدور وشرفاتها تستقر بقاياها فى مدفن بقرافة الإمام الشافعى إلى جانب قبر أبيها « حفنى ناصف » .

ولو أحسنت الدولة لثبتت علامة مميزة لهـذين القبرين . فأحدهما يضم بقية من جثمان « باحثة البادية » والآخر فيه بقية لجثمان « حفنى ناصف » . إنهما قبران يوحيان معنى التقدير والخلود .

مى الأديبـــــــة

«مى وتصورها للأدب وفنه . صورة الكاتبة وملامحها . حياة مى ومحيطها وصفاتها النفسية . المحصول العلمى والأسلوب وتقدير مى للأدب» .

أما بعد فلنتحدث عن «مى» الرائدة الأديبة والكاتبة المفكرة . فمن تكون تلك الرائدة التى يتجمع حول اسمها ، جموع من الشباب ، من الدارسين المفكرين . يتجمعون حول هذا الاسم فى درس يبحث ، أو محاضرة تلقى ، أو فى حـــديث يذاع ، وذلك فى رضا وإقبال وغبطة وانشراح . ونسائل أنفسنا لم يكون هذا الاقبال والاهتمام وفيم يكون هذا الاغتباط والرضى من أجل شخص هو فى الجملة شبيه بكثيرين ممن اشتغلوا بالكتابة والأدب؟. وأحسب أن مرجع هذا الاهتمام والرضى إنما مرده إلى حلاوة المزيج الجامع بين عمق فى التفكير وذوق فى فن الأدب ، وهى خصائص يختص بها الله من عباده من يشاء أن يعلى بين الناس ذكرهم ويحفظ للحياة أثرهم .

وقد تتلخص خصائص «مى» فى كلمة أو كلمتين ، هى أنها أديبة ، أو كاتبة مفكرة ، فمن تكون هى «مى» ومن يكون هو الأديب والكاتب المفكر

أما هى فهى «مارى زيادة» بنت «إلياس زيادة» وأما إسم «مى» الذى عرفت به فقد تحدثنا عنه وتقول (١) : لذلك حكاية طريفة : لما صدر كتابى الفرنسى قامت والدتى تحتج على وتقول لى : «مافى أحلى من اللغة العربية» ، وهى التى اختارت لى اسم «مى» . فقد تذكرت أنها عندما كانت فى المدرسة ، عهد اليها مرة بتمثيل دور «كامى» رواية «لكورناى» وكان مترجم الرواية قد عرب اسم «كامى» إلى «مى» ، فكانت حلاوة هذا الاسم لاتزال على

---

(١) انظر جريدة المكشوف . بيروت السنة الرابعة . العدد ١٤٨ فى ١٦ من مايو ١٩٣٨

شفتيها بالرغم من مرور السنين » وزيادة على ذلك فهو اسم منحوت من أول حرف وآخر حرف لاسمها الأصيل .

فهوم مى للأدب :

وأما من يكون الأديب والكاتب المفكر . فانى لا أرغب فى إجهاد نفسى لتعريف الكاتب أوالأديب ، وأميل لتحديده تحديداً مذاباً أو تحديداً متموجاً أو تحديداً إن شئت سمه غائماً أو طليقاً . أحدده على نحو ما تحدد عند « مى » نفسها عندما تسائل نفسها عما هو الشعر وتتدرج من ذلك إلى مفهوم النثر والكتابة الفنية فتقول عن الشعر : « هو عاطفة ذائبة ، أوفكرة متوقدة ، أو خاطرة عميقة سكبت فى قالب موزون الكلام والنغمة . . . . وما النثر إلا شعر أفلت من أقيسة الوزن الضيقة . غير أنه لا يكون مرضياً إلا إذا خضع لنواميس الإنشاء ، بما فيها من توازن الجمل وموسيقى الألفاظ ، وسرد الأفكار بسلامة وسذاجة فالنثر إذن شعر حر ، ويتسنى لكل كاتب أن يكون شاعراً فى نثره . . . ولكل إنسان ، مهما كان عادى الميول ، ساعات قليلة أو كثيرة ، يكون فيها شاعرا . فاذا كان من أهل القلم أفضى إلى الورق بهمس سرائره ، وكشف للغرباء عن خفايا قلبه »(١)

وإنى ، بغير تعمد التعمق والتمحص ، أعقب على قولها بأن الأديب والكاتب المفكر حتى والعالم ، ممن يتجمع الناس حول شهرتهم فى الأدب والتفكير والعلم ، إنماهم الذين تهيؤهم المواهب والظروف ، وتصطفيهم الأقدار ، ليتأثروا بما يلامسونه من مظاهر الحياة الباطنة والظاهرة ، وليستخرجوا منه سرا أو سحرا ، وليؤثروا فى الناس وفى الحياة بما تأثروا به واستخرجوه ، وليثيروا بذلك أحاسيس وعواطف وأفكارا كامنة فى القلوب ومستجنة فى الأذهان . وكل ذلك يكون بأدوات لفظية وبيانية فيها طلاوة التعبير ،

---

(١) أنظر الصحائف « لمى » المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤ ومجلة سركيس عدد يونية ١٩١٣

وبذوق فنى خاص يمتنـــع عن التعريف المنطق الجامع الجامد ،وتدور هذه الأدوات فى نغمة صوتية لفظية تطرب السمع، ويلابسها دقة فى البيان ويجـّليها نور من البرهان . ثم تظل آثار هؤلاء المصطفين تعمل عملها وتنتج ثمرها فى ممدود وموصول من الزمان ، وفى مدى واسع من المكان ، وعند هؤلاء المصطفين الكثير من اللذات الروحية ، والمتاع الفكرى لمن يستسيغ المتعة الفكرية المتصلة برفيع المثل وعندهم فائدة لمن ينشد الفائدة وعندهم العبرة لمن يتعظ ويعتبر .

وقد تقول « مى » من الكتاب من هو ملخص جلسات ومدون وقائع . ومنهم كولومبس جاء لاقتحام البحار ، أو ركوب الأخطار ، واكتشاف عوالم مجهولة .

ولقد تحوم « مى » ونحوم معها كذلك حول تحديد للأدب أو استخلاص تعريف لمعناه ولأثر الأديب فيه فنجدها تقول : « ألا إن لكل كائن فى هذه الحياة خفقات ، ولكل نفس وثبات ، كل منا يعبر عنها حسب هواه .. ليست قيمة الأثر بأهميته بقدر ماهى باخلاصه . أننا لنتألم دواماً ، فى عالمنا هذا ، ونفرح على التناوب . وفى كلا الحالين نزفر . وزفرات البشر على اختلاف منازعهم تتشابه . ولا يفرق بينها إلا قالب الزفرة » (١) .

لقد أطلعنى زميلى وصديق توفيق الحكيم على خطاب أرسلته « مى » اليه قبل أن تنتابها المحن والأوصاب بنحو سنتين وأثبت نص هذا الكتاب لما فى ذلك من زيادة الايضاح لفهمها معنى الأديب ، وتصورها للأديب القادر الكبير .

قالت « مى » :

حضرة الأديب الكبير

لأعرب عن نوع إعجابى بشهرزادك وأعترف بأنى اقتنيت «فتيان الكهف»

---

(١) أنظر سطور لمى . الصحائف المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤ صحيفة ١١ .

(٢) أنظر مقدمة أزاهير حلم تأليف مى زيادة وترجمة جبل دار بيروت للطباعة سنة ١٩٥٢

بغية تعقب شخصية الكاتب : تلك الشخصية البعيدة الغور المتحركة ، مع ذلك ، شفافة فى الأجواء السحرية التى تشغف بها وتبدعها . فأستولى ولو استيلاء موقوتا على العنصر الأساسى فى تلك الشخصية .

ولكننى لم أفز من هذه الناحية بشىء . ولم يزدنى كتاب «فتيان الكهف» إلا شعوراً بأن شخصية المؤلف ـ ككل صورة صاغها المؤلف ـ لا تفتأ تطارد نفسها وتبز نفسها إذا ما عثرت عليها حينا . فما تكاد تغزو فى فنها منطقة وتنشىء صورة حتى تكون قد تجافت تلك المنطقة وتحولت عن تلك الصورة . وإذا بكل انتهاء يدفع بتطلعها إلى إبتداء .

أشعرنى كتابك بأن بيراندللو ( ) مصرياً يتولد عندنا . وذاك من الشواهد على أن الحضارة الفكرية فى مصر ماضية فى التوغل إذ ليس من هو أدرى منك بأن الفرق الجوهرى (المشتمل على فروق لا تحصى) بين الحضارة والإفتقار إلى الحضارة هو أن الافتقار إلى الحضارة غرار واحد تطبع عليه جميع الشخصيات . بينما الحضارة فى ازدهارها تسبك كلا من شتى الشخصيات فى قالب مستقل . ونسيج من نوع خاص هى شخصيتك الجديدة الكثيرة التملص والتقلص .

جديدة ؟ ! بل هى قديمة أيضاً كالماء والهواء . قديمة كعناصر الفكر والشعور والفن . ويخيل إلى أحيانا أن كل صورة صغتها فى كتابيك إنما أنت التقيت بها فى بعض أعمارك السالفة فجلت بها جولة الخبير فى شغف سحيق موفور الشجن والإغراء .

بيد أنى عرفت منك بخصومتك مع صديقنا الدكتور طه حسين ، وخصوصاً بمبادرتك إلى مصاغاته ، أكثر مما عرفت فى كتابيك .

واسمح لى أن أذكر مبلغ سرورى باعتذارك عن قبول حفلة التكريم . لكان يسوءنى ـ لست أدرى لماذا ـ أن تصمد أنت « لزفة » أدبية هى حسنة فى ذاتها وفى وقتها ولكنها أصبحت كثيرة التداول ففقدت معناها الأصيل

وأشكرك لأنك عرفتنى بشخصية فنية كنت أظن أن أعواماً كثيرة ستنقضى قبل أن بنجلى مثلها فى اللغة العربية .

« مى »

وإن من يمعن النظر فى هـذا الخطاب الذى يحوطه شىء من الإبهام ، لجهد نبذله الكاتبة فى تقصى الأمور ، والغوص فى النظرات ، يرى أن « ميا » تقدر فى الأدب الممتاز وفى الأديب القدير تحرى التوغل والتحليق الموصول لاكتشاف الأسرار والآفاق البعيدة النائية . وأنها تغتبط بتلك الحركة الدائبة . فى مختلف الأجواء التى تحول دون استقرار الكاتب إلى قرار وتجعله يتملص من جو إلى جو آخر طلبـــاً للتجديد والإبداع والحقائق وما وراءها من مجهولات وأسرار .

وإن الأديب الذى كتبت له هذا الخطاب هو مصرى عربى يشغف بما شغف به سلفه من الفراعين فى تصيد أسرار النفس والروح والبحث فى خفاياها ومستوراتها وأن توفيق الحكيم ، الذى يبنه وبين الكاتب الايطالى « بيراند يللوه » شبه من جهة الولوع بالمسائل النفسية ، يحرص على أن يحمل شخصيات رواياته وفنه الأدبى على التمسك بروح التسامح والتصافى والمحبة وهى الروح التى حرص السيد المسيح على أن يبشر بها بين الناس ويغريهم على التمسك بمثلها العليا ، وهى روح تقدرها كاتبة مسيحية كمى ، وهى روح قد يستمد منها « توفيق » لتطعيم أدبه ، وينتفع بها فى معاملاته حين تشير « مى » إلى ماكان بينه وبين صديقه الدكتور طه حسين من شبه خصومة أدبية كانت نهايتها إلى تسامح ومصافاة ، وأنها حين تنوه فى الخطاب بمختلف الأعمار تشعرنا بتذوقها للفلسفات والديانات الهندية القديمة ولما تضمنته من شئون الحلول ، وتقمص الأرواح ، وتلاقيها وتعارفها فى مختلف الدهور .

فكأنى بالأديبة الكبيرة فى جملة ما أثبتناه لها من أقوال حول الأدب وفهمه تقدر نزعات التحليق والغلو فى الخيال ، واقتحام المجهولات وسرائر النفوس

والتعلق بالمثل الرفيعة ، والصدق ، وجمال الأسلوب ، وتخير القالب الذى تصب فيه العبارات والالفاظ والجمل الموزونة الموسيقية التى تتمتع الاذن بوقعها . كأنى بالأديبة إذن تجعل فى كل ماتقدره من النزعات ومن صفات الاسلوب والقالب معنى الادب ويتراءى لها من مادة ذلك ومن خلاله صورة الادب والاديب .

وليكن «لمى» أن تصور الأدب والأديب أو تتصورهما على نحو ما تقدم ، لتفهم من معنى الكاتب والأديب ما تشاء ، إلا أنه يحسن بالقارىء الفطن أن يدرك ما فى تصورها المتحرك المهتز فى رجرجة لمعنى الأدب والأديب . وذلك لأنه مهما يكن من توخى الإحكام فى تحديد هذا المعنى فان التحديد ، وإن أفاد لتيسير الدرس والتحصيل العلمى ، فقد يعوزه عنصر الذوق الشخصى والمزاج الفردى ، لكى يدرك معنى الأدب إدراكا قوياً ويستطعم استطعاماً . وذلك لأن معنى الأدب يخالطه ذوق المتذوق له ويواصله فنه فى هذا التذوق . والفن والذوق كلاهما يستشعره الشخص بقلبه ووجدانه أكثر مما يقيسه العقل والمنطق المحكم المستقر المحدود .

لا « مى » ولا أحد منا يتفق تماماً مع الآخرين ، عند إحساسنا بصورة أدبية أو عند تقديرنا لقطعة من الأدب ، إلا على وجه الجملة والتقريب . ولكل أن يستفتى ذوقه فى التقدير وإن أفتاه الأدباء أو أساتذة الأدب والمختصون فلنتذوق من أدب مى ، ولكن ليتذوق كل منا حسب مقتضيات ذوقه ووفقاً لهواه .

صورة مى :

وقبل أن أسترسل فى الحديث عن تلك الكاتبة المفكرة الأديبة يطيب لى أن أصورها فى هيكلها المادى على نحو ما بقيت صورتها فى مخيلتى وهى فى نحو الثلاثين من العمر أصورها فى مادتها قبل أن أصورها فى معناها وأدبها .

فهى فتاة ربعة بضة ، ووجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة ، وبشرتها

بيضاء من غير سوء ، وتقاسيمها مليحة مشرقة ، وعيناها دعجاوان واسعتان سبلاوان ويشع فيهما بريق الذكاء ، ويعلوهما حاجبان يمتد كلاهما عريضاً أسوداً من أول العين إلى آخرها فى تقوس منسجم دون أن يقترنا أو يتقاربا من أعلا أنف أزلف جميل ، وفمها يزدان بشفتين رقيقتين قرمزيتين لا يمتدان فى خديها الريانين إلا بما يتجاوز قليلا نهاية الأنف . وهى ذات جيد ملىء لا يعيبه قصر ، وقد يزينه عقد قانى الحمرة إن لبست ثياباً قاتمة اللون وأسنانها بيضاء فيها فلج وفى الغالب لا تفارق الابتسامة محياها . وشعرها أسود فاحم لامع وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها وجيدها فتبدو هذه الحركات الخفيفة كأنها نبرات من الضحك الهادى ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة ، تزيدها ظرفاً وتكسبها لعوبية وسحرا

حياة « مى » ومحيطها :

ولقد ولدت هذه الأديبة الكبيرة فى فلسطين وفى مدينة « الناصرة » بلد السيد المسيح ولا نعلم بالدقة تاريخ ميلادها ، ولكن من المؤكد أنه بين سنتى ١٨٨٥ و ١٨٨٦ م . وأبوها « الياس زيادة » لبنانى ، من قرية شحتول من قضاء كسروان ، وأمها فلسطينية الأصل . وترعرعت « مى » حتى نحو سن الرابعة عشرة فى « الناصرة » التى أتمت فيها دروسها الأولية ، وكان أبوها وأمها يعتنقان فى النصرانية مذهبين متباينين ، فالأول مارونى والثانية أرثوذكسية . وقد تعزو « مى » تسامحها الدينى ، ومجافاتها للتعصب إلى ذلك التباين الذى كان بين الأب والأم فى مذهبها الدينى .

ولما انتقلت أسرة « الياس زيادة » إلى كسروان ألحقت الطفلة مارى زيادة « مى » بمدرسة للراهبات الأجنبيات بعين طورة فى سنة ١٨٩٩ م . وفى تلك المدرسة الدينية التى جادت وجدت فيها أساليب التربية والتعليم من هؤلاء المنقطعات للعلم والعبادة كان حظها فى تعلم الفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية وفيراً وأوفى من حظها فى تعلم اللغة العربية . وعرفت « مى »

فى هذا الدور من حياتها بالنشاط والمرح البرىء ، ودقة الملاحظة والذكاء وميلها للكتابة والتحرير وحسن التعبير ، وحسن الإلقاء ومع ذلك كانت «مى» غريبة الأطوار ، فكثيراً ما كانت تندفع إلى العزلة . وتخلو بنفسها وتمعن فى التفكير وفى الكتابة سواء أكان هذا الكتاب لبيرون الشاعر الانجليزى أو لغيره فتقول (١) :

« نحن الآن فى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً . وأنا وحدى فى الغابة منذ ساعتين وحدى مع بيرون شاعر العنف والعذوبة الذى يضعه الانكليز فى المرتبة الرابعة من شعرائهم مع أنه يستحق أن يكون الأول بعد شكسبير ... أكان بيرون ، يدرى ، أكان يهمه أن يدرى أن فتاة لبنانية ستقضى معه أو مع ما تبقى منه ساعات الوحدة الطويلة فى غابات لبنان الجميلة :

. . . يا لهذه الأصوات الشوادى . . . ما لأصوات الصيف الساطع على هذه القمم تبدو من البحر متوغلة فى تيه الأثير الذى لا يدرك ولا يحد . . يا للساعات الحلوة التى تنقضى خالية مثريثة ، وحالمة ، منعمة طليقة من قيود الاجتماع ومقتضيات العالم .. بأى شوق بأى شوق أنتظرها طول الشتاء .

يا هذه البرية ، يا هذا الخلاء فى لبنان .. إنى لألقى على كل صخر من صخورك ، تحت كل شجرة من أشجارك ، فى كل مذهب من مذاهب أوديتك نثرات من كيانى — انثر الإبتسامات والزفرات ، والأحلام ، والأغانى ، والآمال والإعجاب والتأمل . . . »

وتسرح خيالها فى واسع الأحلام ، ونظرها فى مختلف الآفاق فمن فضاء إلى سماء إلى بحر إلى شجر إلى غيـــوم إلى نجوم . وكثيراً ما كانت سحب الاكتئاب تلامس محيا أديبتنا فتغير من إشراقه دون أن تخفى منه ملامح الوداعة والجمال .

ولكى نتبين الحالة النفسية لهذه الكاتبة فى هذه المرحلة المبكرة من

---

(١) انظر أزاهير حلم لمى صحيفة ٣٢

عمرها يجدر بنا أن نقرأ لها بعض ما كتبته حينذاك من « يوميات عائدة »(١)

يوم الأربعاء أول مارس: قد بدأنا شهر مارس ما أسرع مرور الزمن . .

ان أنا شعرت بالزمن متعجلا كل هذا التعجل فى حداثتى ، فماذا عسى يكون عندما أتقدم أعواماً أخرى ؟ وبعدئذ ، بعدئذ ، عندما أمسى عجوزاً .

عجوز ، أنا ؟ أترانى أصل إلى ذلك العمر ؟ وكيف يكون المرء عجوزا ؟ كيف يشعر عندئذ وكيف يفكر ؟ يخيل إلى أنى سأرحل قبل ذلك ، وأن الموت سيحملنى غضة الشباب فيطير بى إلى حيث تسبح الملائكة وتلبث الازهار ناضرة .

أشتاق إلى الموت فى هذه الأيام . ذلك لأنى لا أفهم الحياة التى يقول مرشدنا الروحى « أنها مشكلة المشاكل » ماهذه الحياة التى قال عنها المرشد أنها مشكلة المشاكل .. وإنها سريعة سرعة السهم المنطلق فى الفضاء .

ما معنى هذه التقلبات ، وهذه الحاجات ، وهذه الانظمة المتولدة أبداً هنا وهناك فى وفى غيرى ونحن نراها شيئاً طبيعياً وإن آلمتنا وأسخطتنا . . انتقلت من تأمل إلى تأمل حتى انتقلت إلى فكرة الموت . كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم فما كنت أحاول أن أفهم ، بل كنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح ، غير أنى اليوم انتشرت فى نفسى فكرة الموت مع لذة الشعور بها انتشار الألحان مع الأرغن العازف

— هذه تلك النظرة الجافية التى حملتنى على البكاء وأحزنتنى طول النهار . كيف اتخلص من شعورى؟ كيف أصير صخرة ؟ حدثينى أيتها الحجارة العسيرة ، كيف صرت حجارة (٢)

الخميس ٢ مارس مساء : وانتشر شذى البخور فى فضاء المعبد عندئذ

---

(١) هى «مى» نفسها وسجلت هذه اليوميات بالفرنسية فى ديوانها « أزاهير حلم » المترجم بقلم جميل جبر وطبع سنة ١٩٥٢ بدار بيروت للطباعة.

(٢) انظر صحيفة ٣٥ و ٣٧ من أزاهير حلم .

جثوت على سريرى ، وطلبت الموت ، لا جبنا ولا ضعفاً ، بل شوقا إلى السماء الزرقاء ، حيث الطهر والنقاوة والجمال ، والكمال وما زال هذا الشوق فىّ حتى الساعة ، ساعة الغروب .

الجمعة ٣ مارس : أف لى ، إنى خائرة العزم .. أنا التى أطلب الموت وأريد أن أتحلى بالفضيلة والتقوى ، ما عرضت لى معاكسة صغيرة إلا تمرد فى الكبرياء وحب الذات ، والغرور والنزق ، وتحالفت جميع عواطفى الشريرة على هذا الفعل الصغير من أفعال التواضع والتجلد ، فإذا بى أشكو وأتذمر وأبكى . . .

إلهى إلهى متى أصير فاضلة وأحتمل صابرة كتوما . . .

الثلاثاء ٧ مارس صباحاً : (!) هذا الطقس يلقى على نفسى غشاء من الاكتئاب والتخدر . عندما يكون الجو رماديا كذلك يكون وجدانى .

إنى أوثر الشمس بازغة تبهج العالم والسماء أوثرها صافية فى زرقتها السنية . والنور أن يغذى النبات ويحيى الأزهار أفضل عندى من أن أرى الرياحين منكسة الرؤس والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر ... التقيت بالمرشد فحييته فابتسم ونظر فى وجهى ، ثم عبر لى عما أشعر به فقال : — أنت اليوم تعبة يا ابنتى فم تشكين فخجلت وقلت : أنى لا أشكو ألماً معيناً ولا علم لى بسبب تعبى فابتسم مرة أخرى وقال : —

إذن هى المخيلة .. المخيلة الحادة النشيطة الطيارة التى تتعب صاحبتها . ومضى يهز إصبعه باسماً . إنه لمملوء بالعواطف الطيبة ، هذا المرشد ، وعنايته مفعمة رقة وعذوبة كم أنا شاكرة له ملاحظته . أنى تعبة .

الأحد ١٢ مارس مساء : « أومن بإله واحد » .

نعم يا إلهى ، أومن بأنك واحد لا إله إلا أنت ، وأنك أنت خلقتنا وأنك صالح وأن الحياة جميلة .

هذا يوم بهى .. الموسيقى فى هذا المساء على أبدع ما عهدت . لا بد أن يكون فى السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربانية ما لم نسمعه من هذه الأرض إذن ، ولم يخطر شىء منه على قلب بشر .

إن الموسيقا لتخاطبنى بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكى وعواطفى إنها تنيلنى أجنحة وتطير بى إلى عوالم لا يطرقها غيرها ، أشكرك اللهم لأنك فطرتنى على حب الموسيقى والجمال .

يوم الاثنين ٢٠ مارس (١) :

« كانت عائدة ذات طبيعة غنية خصبة ، تحب الجرى واللعب والضحك وتبتكر للهو أساليب طريفة ترفعها فى تقدير رفيقاتها . ولكنها كانت وحيدة الروح وكثيراً ما كانت تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد فى أطراف الساحة فتجلس هناك ناظرة إلى البحر البعيد ، إلى زرقته الغناء واستدارة الأفق المخيم عليها ، متمتعة بجمال الطبيعة ومتهيبة مظاهر روعتها جميعاً ..

... أخذت عائدة تكتئب ، ولا سيما أن عيد الميلاد قد دنا وأخذت أيام العام الأخيرة تسرع نحو هوة العدم . كانت تكتئب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلهن المقيمين فى المدينة أو فى ضواحيها .. فتودع رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لهن عيداً سعيداً حتى إذا مضت أخراهن انطلقت إلى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء .

وكان مساء العيد حزيناً ، وجوه مكفهراً ، والدير صامتاً كتوماً ، مرمرياً كالمقابر القديمة يضن بخفاياه . وكان لعائدة يومئذ أن تفعل ما شاءت دون قانون يقيدها فتقضى أكثر أوقاتها فى غرفة الموسيقى المنفردة فى أطراف الحديقة تخيم عليها الأشجار ذات الغصون العارية .

(١) أزاهير حلم . أنظر الكتاب

هنا لك جلست طـــويلا والسماء تمطر رذاذاً ثم نهضت إلى البيانو ، وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة « ما أشد برد البيانو » ثم أضافت : بل البرد فى يدى ، البرد فى روحى ، البرد فى وحدتى وغربتى إنى جليد ولـكنى جليد يتعذب وأشعر بأن كل ما فى هذا الدير جليد حى ينبض ويتعذب ويبـكى .

وألقت برأسها إلى خشب الآلة الموسيقية . على أن يدا لطيفة اجتذبتها مداعبة شعرها وخدها . فصرخت الفتاة قائلة : أتركينى لا أريد أن يشفق على أحد لأنى لا أطلب الشفقة »

ومن يدقق فى قراءة ما ورد فى الخواطر فى أزاهير حلم « وفى » يوميات عائدة ، يتبين له أن « ميا » كانت تود أن تعامل على غير ما تعامل سائر التلميذات فى إخضاعهن إلى النظام المدرسى ، وكانت تتمرد . فى وداعة على مراعاته فى دقة يريدها المدرسون ممن لا يعملون حساباً للمواهب والنبوغ وما قد يدعو اليه أحياناً من شذوذ أو انحراف عن وتيرة المألوف ، وكانت منذ السن الباكرة تفـكر وتتأمل .

وفى سنة ١٩٠٤ ودعت « مى » عينطورة حيث تيقظت فيها شاعريتها المبـكرة الغضة ، وحيث تذوقت من أجوائها نشوة الجمال والتأمل العميق ، فغادرت لبنان وعينطورة إلى الناصرة حيث مقام الأبوين وعاشت فى تلك المدينة يعوزها أنس الاختلاط بالناس فى وفرة وتنوع ، وأصبحت فى شبه وحدة تمـكن لها من إرسال خيالها الخصب الزاخر إلى حيث مطامع الخيال الخصيب فى بحبوحة المنى والأحلام . وتقول « مى » فى لبنان وعينطورة التى ودعتها ما يلى (١) :

« فى مشاهد لبنان الجميلة حيث الجنان المزدانة بمحاسن الطبيعة الضاحكة والجبال المشرقة بجلالها على البحر المنبسط عند قدم هاتيك الآكام الوادعة

(١) أنظر أزاهير حلم ص ٢٢ سنة ١٩١٧

كنت أسرح الطرف بين عشية وضحاها وأنا طفلة صغيرة بمدرسة «عينطورة» فكانت توحى إلى نفسى معانى الجمال ، فتفيض بها شعراً أسطره فى أوقات الفراغ وأثناء الدروس التى كنت أشغل عنها بنظم الشعر وتدوينه ، وقد تجمع لها من هذه المنظومات مجموعة من الخواطر وضعتها فى لغة فرنسية نقية متينة أسمتها «أزاهير حلم» وأهدتها إلى النفس الكبيرة المعذبة المتألمة «لامرتين» ونشرتها فى مصر بعد أن وفدت اليها مع أبويها فى سنة ١٩١١ . وكان نشرها تحت إسم « إيزيس كوبيا » وإيزيس هى زوجة أوزوريس وترمز إلى مريم العذراء وكوبيا « كلمة لاتينية معناها « زيادة » وهو لقب « مى » أى مارى زيادة وكان لديوان « أزاهير حلم » تأثيره الفعال الحسن فى المجالس الأدبية وأخذ الناس يتطلعون لمعرفة واضعه حتى اكتشفت « مى » وأصبحت توقع على كتابتها باسمها الحقيقى .

وقد تقول الأديبة الكبيرة فى الناصرة مسقط رأسها ومكان ذكريات طفولتها ومثوى أبويها ما يلى « إيه يا ناصرة . . كم أنا آسفة لفراقك . عندما تنقضى أيامى فى بلاد مصر البعيدة أو فى غابات لبنان تعاودنى الذكرى اليك يا ناصرة ، إلى سمائك الصافية إلى جوك المكوكب ، إلى الأمسيات العذبة ، فى ظلالك السمحاء . أود لو أنى إستطعت أن أعكس فى أعماق كيانى أديمك اللازوردى . تعاودنى الذكرى إلى كل من أحببت فى ماضى من أهل وخلان ، ثملوا من هوائك العذب ، وإلى أولئك الذين فصلتهم المسافة عنى وبقوا بالقرب منى على اتساع البعد يراودون أفكارى . . . إيه يا ناصرة لن أنساك مادمت حية . . . غير أنى ويا للأسف ، سأبتعد عنك سأبتعد عن أكوام غيومك ، وعن كواكب ليلك . لن أرى بعد المنازل الدافئة التى احتفظت ببسمات صباى وأمانى وأحلامى . غير أنى سأحمل ذكرى كل هذه الأشياء تافهة كانت أم عظيمة ، كأعز مالدى فى الوجود (١) وإن هذه الناصرة التى أحببتها مى وترنمت بذكراها هى التى ترعرع فيها

(١) أنظر أزاهير حلم ص ٤٥ سنة ١٩٢١

السيد المسيح ودرجت فيها قدماه . فاعتادت نفوس المتدينين المؤمنين أن ترى فيها وفى أنحائها نورانية وأن تجد عندها موضعا للقداسة وأن تجد فى رحباتها معينا للطمأنينة والاغتباط وذلك بتأثير الإيحاء والذكريات التاريخية الخالدة .

بل هى تلك الناصرة التى شعرت فيها « مى » وهى طفلة بنشوتها الموسيقية الأولى وبالهزة الفنية المبكرة تتوجه بها النفس المهيأة لتذوق الفن والجمال سواء أكان فى انسجام الأصوات أو فى تآلف العواطف والمعانى مع الكلمات، أو فى تناسق الألوان وتساوق الحركات ولقد تقص علينا أديبتنا خبر ذلك فتقول فى غضون حديث لها عن الشاعرة التيمورية (١) ما يلى :

« كل ذلك فى تلك البلدة بفلسطين وقد بدأ الحى متحليا ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السرى . إذ ذاك يهرع أهل الحى إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون إلى آهات الطرب الشائعة فى الفضاء حتى لتتهادى أصداؤها نحو ماجاور من جبال الجليل . والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافىء ويحميهم من أهوال الظلام ، فتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان .

كنت على ذلك فى ليلة فاذا بصوت ينشد على نقر العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن جفن من السحر أم سحر من الأجفان
خال بخديك أم صنع من الديان توهت فكر الأنام فى الجفن والخالات
تبارك الله ما أحـــلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسى كما كانت صغيرة وقتئذ بل بكل قواى الكامنة التى سينميها المستقبل وبكل ما فى الأيام التى عشتها وسأعيشها من

---

(١) أنظر حلية الطراز ديوان عائشة التيمورية القاهرة مطبعة دار الكتاب العربى ١٩٥٢

أمل ويأس وسعادة وشقاء ولعلى استشعرت ببعض ما سأفهمه بعدئذ من نجوى الموسيق الشرقية . »

وشاعرة هذا الموال الذى ذهب على ألسنة المنشدين على أوتار الملحنين كانت هى عائشة التيمورية وسمعته « مى » فى طفولتها المبكرة يدخل إلى نفسها اللينة الناشئة أنغاماً وترتيلات تتهادى بينها أطياف الحب والهوى وتتمايل معها مخايل الحسن ومعانى الجمال .

إذا كنت أتريث وأتباطأ قليلا عند ذكر الناصرة وعينطورة وذكريات «مى» فيهما، فذلك لأنى أجد عند هذين البلدين أقوى الأسس التى قامت عليها نفسية الكاتبة بما أودعاه وأبقياه فى وجدانها الغض من تأثيراتها المادية والمعنوية وإن من يتأمل فى الطابع الروحى للناصرة وكذلك فى الطابع المادى لتلك البلد التى استقبلت « مى » حين وفدت إلى هذه الدنيا ، وإن من يتأمل فى محيط لبنان الجميل وفى دير « عينطورة » البلد الذى شدت فيه « مى » بأصول متينة فى العرفان ، وراضت نفسها فيه على سرحات بعيدة فى التفكير ، وإن من يقدر أن فى النفوس استعدادات ومواهب تحفزها شئون البيئة لتؤتى ثمراتها ويستحثها المحيط لتنضج نتائجها، أقول إن المتأمل والمقدر لذلك كله قد يدرك فى يسر أن الأقدار أعدت شحنة من المزايا ومختلف الصفات تتلاقى وتتخالط وتتمازج وتتفاعل ليتهيأ منها شاعرية وكاتبية ونزعات فكرية وفلسفية طريفة تتغلغل فى نفس أديبتنا الممتازة . فجو دينى مسيحى تلقفها من مكان لمكان ، وجو ملىء بالجمال الطبيعى أحاط بها من كل ناحيه وجو للتحصيل العلمى المتين يحثو بها فى صرامة وقوة، وجو للتدليل والاعزاز، لأنها كانت وحيدة أبويها وكانت ذكية وبهية وأن ذوات الذكاء والبهاء طالما يكون من نصيبهن التدليل والاعجاب . وكل ذلك يدخل فى صميم تكوين الأديبة الكبيرة فى حياتها .

الصفات النفسية لمى :

وإذا كان للمرأ قابلية للتجاوب مع الأجواء والظروف والأحوال فماذا

يا ترى تكون الصفات التى تدخلها فى ذاته هذه الاجواء والظروف المحيطة ؟

وماذا فعلت يا ترى هذه الاحوال والظروف « بمى » فى حياتها منذ إذ سطعت هذه الحياة إلى أن أفلت ، وغيبها الردى .

و « مى » تذكر لنفسها بعض هذه الصفات التى خلعتها عليها الاقدار والظروف « المحيطة وأنها حقاً لم تجهلها أو تتجاهلها حين كتبت فى دعابة إلى صديقتها « جوليا طعمة دمشقيه » هذه الرسالة الطريفة إذكانت هذه الاخيرة تطلب إلى أديبتنا صورتها .

« عزيزتى .. أصحيح أنك لم تهتد بعد إلى صورتى فهاكها — استحضرى فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندى كما يقول الشعراء أو كالمسك كما يقول متيم العامرية وضعى عليها طابعاً سديمياً - فليسمح لى البلاغيون بهذا التعبير المتناقض - من وجد ، وشوق ، وذهول ، وجوع فكرى لا يكتفى ، وعطش روحى لا يرتوى ، يرافق أولئك جميعاً ، استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد أكبر للشجن والألم - وهذا هو الغالب دوماً - واطلقى على هذا المجموع إسم « مى » ترى من يساجلك الساعة قلمها(١) » . وحقاً كان شعرها فاحماً فيه سواد المسك والبن . على أننا إذا اعتمدنا على ما قرأناه من آثار « مى » وعلى ما علمناه واستنتجناه قد نستطيع أن نصف « ميا » بكثير من الصفات ، فنصفها من جهة المعنويات بأنها كانت متدينة ومؤمنة وكثيراً ما ارتفع بها إيمانها إلى نزعات تصوفية نقية لا يرقى اليها إلا من تتحلى نفسه بالإيمان الراسخ الشديد ويمتلىء عقله بالعلم الواسع وبالتفكير السديد

وكانت متدينة إذ تنسمت من شذى المسيحية السمحاء وعطورها منذ نشأتها الباكرة وإذا استوحت من قراءتها وتأملاتها المتدبرة مايجدر بمثلها من ذوات الذهن الصافى والنفس المطلقة الذكية أن تتنسمه وأن تدركه من المعانى الرفيعة الجلية .

وكانت حساسة أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكى لمرور سحابة

(١) رسائل مى مكتبة بيروت ١٩٥١

زاهية فى الأفق الأزرق (١) وكانت عزيزة الجانب ، شديدة الثقة بنفسها إلى درجة بالغة من الكبرياء لكى تقول لغيرها « أتركينى ، لا أريد أن يشفق على أحد لأنى لا أطلب الشفقة (٢) .

وكانت معتدة بشخصيتها وبأفكارها لكى تقول : « أنا أفكر بنشر صفحات من كتاب وهل يفكر هذا التفكير إلا الراشدون (٣) » « لا بد من نشر أفكارى . سأنشرها فى كتاب متقن الطبع (٤) » . وكانت طروباً محبة للموسيقى لدرجة قاصية لكى تقول : « أنها تنيلنى أجنحة وتطير بى إلى عوالم لا يطرقها غيرها . أشكرك اللهم لأنك فطرتنى على حب الموسيقى وحب الجمال (٥) »

وكانت مزهوة بما فيها من ملاحة حتى لتكاد أن تكفر باليوم الذى يتحول فيه نشاط الشباب وطلاقة ملاحتها فى الصبا ، وقسمات وجهها النضير البسام إلى تقبض الشيخوخة وتغضنها ووهن الهرم وقد تقول : « فى ذلك كيف يكون المرء عجوزاً ؟ وكيف يشعر عندئذ ؟ وكيف يفكر ؟ (٦) »

وكانت قوية الإرادة تعرف الصبر والمصابرة والجلد والمقاومة لإدراك ما تريد وينم عن ذلك مثل قولها ومن ذلك كثير يجب ألا يذعرنا المستقبل . علينا أن تستعد لندرأ الطوارىء وكل مقدر فى الحياة ... وإنه لمن البطولة أن ننظر إليه وجهاً لوجه ولا نضطرب ... (٧)

وإنها ذات استعداد غالب للشجن ، ودأب ، وجلد وشوق ، وذهول . وذات جوع فكرى لا يكتفى وعطش روحى لا يرتوى كما تقول . وقد اعترفت فى يوميات عائدة بما يتمرد فيها من الكبرياء وحب الذات والغرور والنزق (٨) فاذا أضفنا إلى هذه الصفات أو الملامح النفسية بعض ما قد ينضاف إليها من صباغ وعطور معنوية أخرى كصبغة الروح الشرقية ، وصبغة النزوع الإنسانى والطبيعة الأنثوية ، التى تبدو عليها فى وضوح وجلاء ،

---

(١) حلية الطراز مطبعة دار الكتاب العربى ١٩٥٢

(٢) أزاهير حلم ٤ و ٥ و ١٨ و ٦٦ و ٤٢

(٣) أزاهير حلم ٤ ، ٥ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٤٢

(٤) أزاهير حلم من يوميات عائدة ص ٣٥

(٥) أزاهير حلم من يوميات عائدة ص ٦٦

(٦) أزاهير حلم من يوميات عائدة ص ٣٩

(٧) أنظر أزاهير حلم

(٨) يوميات عائدة

وسمات الظرف، وخفة الروح، وشيطنة الغمز الذى لا يدمى، والتهكم الرشيق الذى لا يجرح، والدل الحيى، واللعوبية المتسترة تارة، والمتبرجة تارة أخرى . إذا أضفنا كل ذلك إلى كل ذاك فقد تتجلى طيف «مى» لمخيلة من يستطيع أن يؤلف بين هذه النزعات والصفات البشرية .

المحصول العلمى لمى

والآن لنتكلم عن المحصول العلمى لمى وثقافتها وأسلوبها .

أشرت فيما سبق إشارة عابرة إلى أن التعليم الذى أصابت منه «مى» فى مدرسة عينطورة كان جديا وتلقته عن منقطعات ومنقطعين من أهل الدين والتقوى وفى تقديرنا أن من يتعاطون فن التعليم فى الأديرة وشعبها قد يؤثر أكثرهم طريقة أهل العلم فى القرون الوسطى إذ يعنى بتحفيظ النصوص وانتقاء أفضل ما تنتج قرائح أشهر المفكرين والأدباء من نثر أو نظم ينسجم كلاهما مع تعاليم الدين وما يهيء مدخراً نفسيا ومثالا يحتذى به التكوين الفكرى والأدبى . وفوق ذلك فإن هؤلاء المعلمين لا يتساهلون فى تحشيم تلاميذهم مشقة العمل المتوالى الموصول ، ولا يفرطون فى تحشيم أنفسهم ملاحقة تلاميذهم بالمساعدة والشرح والعون على التحصيل وعلى التشجيع فى سبيله . وفى هذا الأسلوب من التعليم ما يشعرنا بمتانة الأسس والقواعد التى قامت عليها تربية «مى» وتعليمها . ولعل الأديبة المفكرة لم تهمل الإشارة إلى ما كان من واسع العلم ، ومن الفضائل والمواهب والمجاهدة عند من تلقت عنهم أصول التربية والتعليم فتقول (١) «كم ذا أغبط معلماتى فبينهن من تثير إعجابى . ولا شك أنها جاهدت كثيراً للتغلب على نفسها لأنها ليست من تلك الطبائع الكثيفة البليدة ، بل هى بالعكس نشيطة ، حادة الذكاء ذات مواهب ممتازة غزيرة العطف ، رقيقة الشعور . منذا لا يحب نور عينيها المتألق ؟ ومنذا لا يحب الحلاوة فى أجفانها المسبلة ؟ . وتقول كذلك (٢): «يروعنى من المرشد جزالة صوته ، وصدى ذلك الصوت المتورع فى المعبد

(١) أنظر أزاهير حلم . يوميات عائدة صحيفة ٣٩
(٢) أنظر أزاهير حلم يوميات عائدة صحيفة ٣٨

رهيب . ويروعنى منه علو أفكاره وشرف تعبيره . لن أصف هيئته الخارجية لأن النفس إذا هى كانت جميلة ضعفت أهمية المظاهر ولكن يروعنى منه امتيازه فى هيئته وحركته وكلامه . وجبهته هى جبهة العلم والذكاء والإدراك . ونظرته نظرة الفيلسوف الذى يكتب ويرحم ويتجلد وعلى كل هيئته تغلب عاطفة الصلاح »

إن «ميا» تعجب بمن يجاهد نفسه ليتحلى بطيب الصفات ، وتعجب بذوى المواهب وأصحاب الفكر العالية ، وتعجب بجبهة العالم ونظرة الفيلسوف ، وإن الإعجاب الشديد يدفع إلى المحاكاة وبخاصة إذا كان المعجب طموحاً ، وإذا كان وراءه استعداد موفوراً لبلوغ المطامع « فمى » وإن كانت تتمرد على النظام المتبع الصارم الدقيق فى مدرسة الدير إلا أنها تخضع لما يقترن به من وفرة التحصيل العلمى والانكباب على القراءة فتقرأ وتقرأ كثيراً دون ملل ، وتجد المتخير المنتقى لتقرأه فى أهم اللغات الفرنسية والانكليزية والألمانية وغيرها . فمكتبة الدير زاخرة وأكثر أهله مولع بالبحث والتحصيل ، وإنهم يجاورون العلم والتعليم ، ويؤدون لتلك الجيرة المباركة حقها ، فما أحق إذن أن يقتفى الأثر شباب المجاورات الموهوبات وما أيسر « لمى » أن تكون فى طليعة المحصلات . وليس من الصواب أن نحصر دائرة الكتب التى قرأتها مى وأن نصفها فأغلب الظن أنها دائرة يتسع محيطها فى الأدب القديم والأدب الحديث ، وفى عدة من اللغات الغربية بين قديمها وحديثها وسواء أبلغت هذه اللغات التى أتقنتها الكاتبة إتقاناً خمس لغات كما يذكر العقاد (١) أو تسع لغات كما تذكر « مى » عن نفسها (٢) فإن الذى يعنينا هنا أنها قرأت كثيراً منذ النشأة الأولى وبعد هذه النشأة فى عدة من اللغات .

وإذا كان القارىء الممعن المكثر يهضم ما يقرأ ويذكره فإن أثر ذلك الهضم وأثر ذلك الذكر ليبدو واضحاً جلياً فيما يكتبه وينشره ، وفى كل ماكتبت « مى » دليل قائم على سعة تحصيلها وإدمانها فى القراءة ووافر الاستفادة مما قرأت . على أنه مهما يكن من رغبة فى الاطلاع والتحصيل

(١) الرسالة عدد ٤٣٥ (٢) الهلال إبريل ١٩٢٨

العلمى والأدبى فإن ناحية من نواحى هذا الميدان العلمى والمعنوى يكون أكثر استهواء للمشغوفين بالقراءة وبكد الافهام. ولقد تحدثنا «مى» عن نفسها من تلك الناحية فتقول (١) لو سألت ثلاثمائة أرباع الشبيبتين الفرنساوية والسورية كيف تعلموا ما يعرفونه من تاريخ فرنسا، لأجابوك لأنهم قرأوا فى روايات «اسكندر دوماس» وهذا كاف للدلالة على كثرة انتشار الروايات بين جميع طبقات البشر وعظيم تأثيرها فى أفكار الشبيبة. ومعارفها، وأميالها وعواطفها وأخلاقها.

لا شك فى أن الفرع الروائى من شجرة الآداب مرغوب جداً ولا أظننى أجد معارضاً يعارضنى إذا قلت أنه أكثر انتشاراً من غيره كالفرع العلمى والتاريخى والجغرافى والفلسفى وغيرها. لأنه لا يتسنى إلا لأفكار الأفراد التوصل إلى سماء الفكر العظيم حيث تجول أرواح المؤلفين ومطالب المفكرين. على حين أن الجمهور بأجمعه وبدون استثناء تقريباً يفهم معانى القصص ويلذ له سماع حوادثها. فلو سرت ليلا فى بعض الشوارع من مدن مصر وسوريا. ودخلت بعض البيوت أو القهاوى حيث يجتمع «عشاق هذا الفن» لرأيت جمهوراً متجمهراً حول رجل قام فى الوسط، يقص على الحاضرين قصة الزير أو عنتر أو مجنون ليلى أو غيرها من القصص القديمة.

وهذه الطريقة نفسها كانت تستعمل عند قدماء المصريين والرومان واليونان فإلياذة «هوميروس» الشهيرة ليست إلا حكاية معركة حربية جرت فى الأعصر الغابرة. فنظمها «هوميروس» بأبيات حماسية جميلة وأصبح الشعب ينشدها فى غدواته وروحاته، ويترنم بها، وعاطفة الوطنية المجيدة تهز فؤاده وتحرك فيه حب النخوة والمجد والشجاعة. ومنذ فجر القرن السادس عشر أخذت العلوم بالانتشار رويداً رويداً، وكثر عدد الكتاب والمؤلفين، وتكاثرت الروايات نظماً ونثراً من تاريخية وخيالية وانتقادية، فارتفعت الأفكار وتلطفت الشعائر وصار الروائيون يتفننون فى رواياتهم تفنناً مدهشاً ويختلقون لها الوقائع العجيبة والحوادث غير الاعتيادية، ويدخلون فى خلال فصولها بعض المبادىء السامية والحوادث التاريخية والاكتشافات العلمية

(١) ابتسامات ودموع تأليف مكس مولر معربة مطبعة المحروسة ١٩١١

وكيفية المعاملة بين الناس ، إلى غير ذلك مما يجعل الرواية مفكهة مهذبة مفيدة بوقت واحد . أما أنا فلى ولع غريب بمطالعة حياة المفكرين والشعراء الذين كتبوا حوادث حبهم بيدهم . « كفرتر » لجوتى الألمانى ، « وغرازيالا » « ورفايل » للامرتين ، وأثالا « لشاتوبريان » والحياة الجديدة للشاعر الايتاليانى « دانتى والعذارى على الصخور » « لدانوتيو » الشاعر الايتاليانى العصرى ، وهلم جرا .

ذلك لأن هؤلاء الكتاب لا يدونون تذكاراتهم إلا بعد أن يجتازوا من هذه الحياة مراحل عديدة ، فيعودون يوماً إلى ماضيهم ويعللون الأفكار التى طرأت على أنفسهم والعواطف التى أثارت أيام شبيبتهم أو أظلمتها كأنهم يدرسون أخلاق رجل غريب عنهم ، ويجتهدون فى إستجواب تأثيرات تمشت فى روح غير روحهم فيخلصون فى إظهار الخطأ وامتداح الصواب وهى أحسن طريقة لإفادة القارىء إذ يترقى عقله بما يقتبسه ، فيتحاشى الخطأ ويسير فى طريق الصواب .

على أن إطلاع « مى » لم ينحصر فى دائرة الأدب أو فى الفرع الروائى منه أو فيما هو أضيق من ذلك حين تميل وتولع « بمطالعة حياة المفكرين والشعراء الذين كتبوا حوادث حبهم بيدهم » وهى وإن تكن قد عنيت بأفعال مؤلفات راسين وكورنايل ودانتى وشكسبير وجوتى ولامارتين وهوجو وشاتوبريان ودانونتسيو وبراندللو وشيللر وبيرون وشيلى وويلز وغيرهم ممن لا يحصون من كتاب الغرب فقد تدلنا كتابتها على أنها قرأت أو اطلعت على ما كتبته طائفة من كتاب العرب المتقدمين وشعرائهم كالمعرى والمتنبى وموسوعات الأدب كالأغانى والعقد الفريد والكامل . وما إلى ذلك كما قرأت للأدباء المتأخرين والمعاصرين كشوقى وحافظ ومطران ومحرم والكاشف وصروف وشميل وغيرهم كما أنها طالعت سير من اشتهرن من الأديبات وقرأت لهن وبخاصة « مدام دى سيفينتى وجورج ساند ومدام دى ستال » وغيرهن من عربيات وشرقيات كالتيمورية واليازجية والباحثة وغيرهن

بل ويتجاوز إطلاعها حدود الأدب الصميم إلى الفلسفة وتاريخها فى القديم والحديث وفى الشرق والغرب ، إلى التاريخ العام ، إلى فقه اللغات وحياتها ، إلى علوم رياضية وطبيعية وحيوية مما هيأ من ذهنها دائرة للمعارف ، وجعل منه موسوعة من الموسوعات تحرص على الاحتفاظ بما فيها ، وتحسن تثميره ، وقد تنوء بما تحمل من كثرة ووفرة فى المعارف ، وتزاحم الأفكار .

أسلوب « مى » وفهمها للأدب :

على أن كل مختزن فى النفس من العلم والمعرفة والعواطف والإنفعالات لابد أن تخرج للناس خلاصته ونتائجه ، فيما يقال أو يدون ، أو فيما يظهر من أفعال ، وإن خروج النتائج الفكرية وظهورها عن أهل الأدب فى كتاباتهم إنما يكون فى أسلوب خاص مميز فما هو أسلوب مى ؟

ويحق لى هنا أن أنقل صحيفة رائعة ونصاً بليغاً كتبته « مى » عن الأسلوب الكتابى ثم أعقب على ما كتبت ليتحدد أسلوبها فى الذهن تحديداً . وهذه الصحيفة التى أنقلها من كتابها عن باحثة البادية قد نقلها قبلى المرحوم الدكتور يعقوب صروف وعلق عليها . وإنى حين أثبت هذه الصحيفة وأثبت التعليق أثبت تعقيبى على ذلك قد أصل إلى تصوير واضح لأسلوب « مى » وتحديده تحديداً :

قالت مى عن الباحثه(١) « وما حاجتى إلى الكلام عن الكاتبة ؟ إننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالقدرة الكتابية مكتفين بما ورد من أقوالها فى الفصول الماضية لأثبتنا على الورق ما قد سبق وقرره حكمنا الصامت ، وهو أنها كاتبة كبيرة يطلق الناس عادة إسم الكاتب الكبير على من كتب كثيراً وهم فى ذلك مخطئون إن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ، حتى ولا بالصغير ، لأنه ليس كاتباً على الإطلاق . إنه ينقصه مايسميه الإفرنج « قماش الكاتب » أى السر الذى يقود الفكر إلى إختيار الألفاظ الصائبة ، ويعلم اليد صياغة الجملة الملائمة . وينقصه خصوصاً اللهيب الخفى الذى ينشر بين السطور أشباح النور والظلام .

---

(١) مى عن باحثة البادية ومقدمة الدكتور صروف ص ز .

ماهى الكلمة ؟؟؟

الكلمة التى تعين الحركة والإشارة والصوت واللون والانفعال . الكلمة التى تعنى أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها . ماهى وماهو سر إنتخابها الايحدية لجميع البشر ؟ والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام فما هى تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاه وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائى والليل وعمقه وكواكبه والنفس وعجائب خفاياها ؟ . . كيف تنبض فى الألفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة السطور ، وهيجان الغضب ، وأنين الشكوى ، ورنين النجاح والظفر . لماذا تهتز الألفاظ تارة كالأوتار ، وتولول طوراً كأمواج البحر العجاج ، وتهمس حينا همسا عجيبا كأنما هو منطق من سحيق الذرارى ومبهم الآمال القصوى ؟؟؟

قال فكتور هوجو — إن الكلمة كائن حى ، وقد تكون خالقاً ، ساعة تجعل المخيلة ترى مالا يرى ، وتنظم فى القرطاس أفقاً مفعما بالكائنات الجميلة ، وتصبح سحراً يصير الغائب حاضراً ، والعدم وجوداً .

إن للإفصاح عن الفكر أساليب جمة ، ولكن لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد ، وهو الذى يتفق مع ذاتيته . إن أفلاطون الذى اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ، ظل ينسخ كتابه « الجمهورية » إلى عمر الثمانين ليزيده تحسينا وإصلاحا . تلك لأن الكتابة التى يراها الكثيرون مسألة هينة هى أكثر الفنون دقة وعسراً . ولا أظن اكتشاف القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الأسلوب ، هذا القطب الآخر ، على الكاتب الذى عنده شىء يقوله « لأن نفسه تفيض به وتحثه على إعلانه . كلمات النفس حركات خفيفة نظيفة ، فكيف يسر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبع أداة القلم خطوات النفس ، الوثابة الكثيرة الإهواء ، فى تموجها وتجنيها المباغت ، من الفرح إلى الحزن ، ومن التحنان المذيب إلى النقمة البركانية ؟ (وكأن ميا هنا تصف نفسها ولو أنها فى صدد الحديث عن الباحثة) إن ذلك لسر تملص من القواعد والنصوص ، وترفع

عن أن تلقيه للضمائر إلى الألسنة ، وهو كل مقدرة الكاتب ، أو كل ضعفه وقد علق الدكتور صروف على هذه القطعة بما يفيد قدرة الابتكار الذى اتصفت به « مى » لإبراز المعانى والتشابه والاستعارات الطريفة .

ومما تقدم ذكره وظهر على هذه الصحيفة المنقولة ، قد نشترك مع الدكتور صروف فيما يعزوه للكاتبة من مقدرة فى ابتكار المعانى ، ونجد أن « ميا » وهى ترى أن فى أسلوب الكاتب صورة لنفسه ولما حوالى هذه النفس من الصفات ، قد تعيننا بما كتبت على تحديد لنفسيتها ولأسلوبها إذ وصفت نفسها وهى فى سياق الحديث عن الباحثة ووصفها لها بأنها من النفوس الوثابة الكثيرة الاهواء فى تموجها وتحنيها المباغت من الفرح إلى الحزن ، ومن التحنان المذيب ، إلى النقمة البركانية ، أو فيما قالته كاتبتنا الكبيرة عن نفسها لجوليا دمشقية من أنها (أى مى) من النفوس التى تمر عليها سحب « من وجد وشوق وذهول وجوع فكرى لا يكتفى وعطش روحى لا يرتوى » أو من النفوس « ذات المخيلة الحادة النشيطة الطيارة التى تتعب صاحبتها » كما كان يقول عنها الراهب مرشد الدير الذى تكونت فى رحابه ثقافة الكاتبة فى نشأتها الاولى .

سواء أكان بعض تلك الصفات أو كلها أو أكثر منها يتعلق بمى أو يتصل بها اتصالا متيناً ، أو ضعيفاً فإنه من اليسير أن يتكشف المتكشفون فى أسلوب الكاتبة ، وفى أثناء صفوه البادى الباسم ، سحباً قد يرسلها التمحيص الشديد والتعمق فلا يلذ هذا الأسلوب إلا لمن يدركونه من الممحصين والمتعمقين ، وإن فى الأسلوب حركة وتوثب يستشعرهما نشطاء النفوس المتوثبون المتحفزون ، وفيه ارتفاع وتسام فى الخيال يراه من يحلقون بأبصارهم وبصائرهم فى أبعد أجواء السماوات المعنوية والخيال ، وفيه من المبتكر فى التشابيه والمعانى ما ليس بالجارى ولا بالمبذول فى ميدان الكتابة ، ولا متداول ومعروف فى عرف الكتاب ، وفيه ذوق وفن يستشعره أهل الذوق والفن وفيه شحنة من الانفعالات الأخاذة للنفس فتهز نفس القارىء الحساس هزاً ، فهو أسلوب خاص بمى لا تقلد فيه أحدا إلا ذاتها وإن بدت فى بعضه

ملامح الأدب الغربى من ناحية الروائى والعاطفى . فأسلوب الكاتب المنطبع بذات نفسه يطيب ويروق لصنف معين ممن تنسجم نفوسهم مع نفسية هذا الكاتب وتتوافق نظراتهم ومعلوماتهم وذوقهم مع ذوقه ومعلوماته . ولذلك تتعدد أصناف الأساليب بتعدد الكتاب ، ويصح أن تتعدد الأوصاف لهذه الأساليب . فمن أسلوب فخم ، لأسلوب رقيق . لأسلوب طلى لأسلوب محكم ، لأسلوب غامض ، لأسلوب عابس . لأسلوب باش ، لأسلوب مهلهل ، لأسلوب مرقع ، لاسلوب منوع الصوت والاداة ، لأسلوب وتيرى موحد ، لأسلوب رفيع ، لأسلوب وضيع ، لأسلوب غائم ، لأسلوب مشرق لأسلوب مستقيم هادىء ، لأسلوب ملتو معوج ، لأسلوب مركز ، لأسلوب متشعب ، لأسلوب قاطع حازم ، لأسلوب متردد متحير ، لأسلوب مظلم مبهم ، لاسلوب منير صفو ، لاسلوب منمق ، لاسلوب مصقول ، لأسلوب ناعم أملس ، لأسلوب خشن جاف ، لأسلوب طلق ، لأسلوب مقيد ، لأسلوب حافز مثير ، لأسلوب مخدر ، وقل ماشئت من الصفات التى تربط بين نتاج الكاتبين وأذواقهم وبعض صفاتهم النفسية وبين ذوق القارئين ودرجاتهم فى تقدير ما يقرأون وأن الاساليب كنغمات الموسيقى تتعدد وتتعدد تطبيقاتها وفقاً لمختلف الآذان السامعة . على أن الكاتب الجدير بوصف الاديب لا بد أن يكون له أسلوبه الذى ينسجم مع صفة الأدب الراقى أن الأسلوب الادبى الجدير يروق لمن يدركون أرقى الانفعالات والعواطف والافكار والمعارف الانسانية السليمة الصادقة التى تكون للراقين السليمى الطبع والفطرة من البشر وإن اختلفت بهم الأزمنة والأمكنة .

فأسلوب مى فى الكتابة يدركه المتذوقون للأدب الإنسانى العالى فى أبقى وأثبت مافيه ، وأصفى مافى سلامة الفطرة الخالدة إلى مايشاء الله لها الخلود وهو من نوع الادب الذى تمتزج فيه العاطفة الصادقة بالعلم المنطق الصحيح يجمع بين الوجدان العميق البعيد فى أغواره أحيانا إلى نور العرفان وصراحة العقل الجازم المدقق فى بنيانه والمحقق فى طوفانه . فهو وجدانى منطقى فى

الغالب وإن طغت عليه أحيانا تموجات العاطفة وحركات الوجدان . وهو كثيراً ما تتناسب فيه موسيقى الالفاظ وترنيمها حين يجتمع بعضها إلى بعض وفى وفاق مع المعانى فيرتب مجموع جرسها تنغيم ترتاح له الاذن الحساسة للنغمات . ولقد يكون من الكتاب من لا يبيحون لأقلامهم أن ترسم ألفاظاً لاتستسيغها أسماعهم ، فهم يكتبون بالقلم وبالاذن فى وقت واحد ، إن صح هذا التعبير . وقد تكون كاتبتنا مى من هذا الفريق حين تعنى بانتقاء لفظ لحسن وقعه فى سمعها . على أن ميا وإن كانت تعنى بموسيقية الالفاظ عناية بالغة وتقدر ما فى الصناعة اللفظية من أدب وجمال إلا أنها تقول : (١) « ولكن تلك الصناعة اللفظية وجه من الوجوه العديدة فى الادب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الادب فى أن يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة . فلا يكون بعد إلا أدباً . » ومن ذلك يتبين أن كاتبتنا الادبية تقدر فى الادب جمال اللفظ المتلبس بغزير العلم ، وبدقة المعانى مع تهيئة ذلك وتقديمه للناس بطريقة فنية وذوقية خاصة وتقول فى نفس الخطبة : « إننا معشر الشرقيين عريقون فى الادب وإن أدياننا عمدت إلى اللهجة الادبية لتكون أسرع اتصالا بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر . ولئن أجمع نفر من علماء اللغات فى الغرب على أن اللغات السامية حماسية غنائية ، بيانية ، خطابية ، أكثر منها اختصاصية علمية ، ميكانيكية . فنحن نعتز بذلك لأن اللغة الادبية هى لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لاتضيق دون العرض والطارىء الاضافى » (٢) .

وشخصية الإنسان فى نظر « مى » تتكون من عوامل التاريخ والإختيار والذكر واللغة والفن وبخاصة الأدب . والأدب « عندها » هو من أهم المقومات للشخصية . وربما كان الأصح أن أقول انه حجر الزاوية فى تكوين الذاتية

(١) جريدة المكشوف بيروت السنة الرابعة ١٩٣٨ من خطبة لمى بالجامعة الأميركية .
(٢) جريدة المكشوف بيروت السنة الرابعة ١٩٣٨ من خطبة لمى بالجامعة الأميركية .

الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية ، فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شئون وأحوال ، فى حين أن الذاتية هى ما نظل عليه دائماً فى صميمنا فى جميع الشئون وفى جميع الأحوال » (١) ويبدو لى أن مدلول الأدب ومعناه لم يتحدد فى ذهن « مى » تحديداً تاماً واضحاً . فهى تحسه وتأنس به وتمتع بملامحه وتذكره فى أشتات من القول أكثر مما تركز فيه حديثها تركيزاً وأكثر مما تلم بأطرافه المترامية الممدودة فى دائرة معينة ، وفى جهة محدودة وأكثر مما تعين معالمه أو تبدى صورته للغير فى ألوان بينة زاهية خالية من الغيوم . وأحسب أن تحديد الأدب قد ينتهى عندها إلى تلك الحالة التى تكون عليها النفس الرشيدة حين يتكون لها مفهوم الحياة ، أو بعبارة أخرى فهم الإنسان لهذه الدنيا وفلسفته وشعوره حيال أمورها المتنوعة المتشعبة ونظرته فى قيمة هذه الأمور وتقديرها ومن ثم قد يتناول هذا الإنسان شئون العيش ويسعى فيه سعيه وفقاً لما تمليه هذه الفلسفة ، ولما توحيه هذه النظرة ، ولما يوجه إليه هذا التقدير . وعندئذ يتذوق الإنسان هذه الحياة ويتعاطاها على نمط فنى راق يتصل بأهداف رفيعة ، ومثل عليا ترضاها وتسلم بها الإنسانية السليمة المتعالية ، أو ربما يتعاطاها هذا الانسان على نمط خسيس مبتذل وفقاً لما يمليه عليه أدبه الخسيس المبتذل وما يتصل به هذا الأدب من أهداف وضيعة خاسئة . . . . ثم تقول « مى » نحن فى حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الأديب ، ويشرح حالة الأمم ، وينشر أمامنا صحيفة الأزمنة الثلاثة الماضى والحاضر والمستقبل . فالماضى ينبثق إنبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتب الأديب ذخائر الماضى فكذلك هو يطلع على شئون الحاضر ، متصلا بكبار الحوادث التى تهز قومه فى النقمة وفى النعمة ، فى السخط وفى الرضى . وإذ يرى الحوادث داخلة فى دور الغليان والشعوب فوارة صاخبة كالحمم فى فوهة البركان ، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الانصاف والصحة والصدق

(١) جريدة المكشوف ببيروت السنة الرابعة ١٩٣٨ من خطبة لمى بالجامعة الأميركية .

والانشراح عندئذ تم فى داخله عملية عجيبة ولا العمليات الكيمائية — يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية اليه سر الفن الجميل ، فينقل الينا منها ماينقل ، جاعلا لكل شيء أهمية خاصة تهز منا المشاعر . وتستثير الحماسة ، وتكيف الآراء . ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث ، والشعوب ، ينبعث لنا الهزيج الفتان فيلفتنا إلى أن فى طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن فى أرواحنا ممكنات توسع أمامنا أفق الحياة .

وترى « مى » أن للأديب من نفسه قوة تسوقه إلى الأمام ، وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته فى المناعة ، وعن سر قدرته فى الابداع ، وذلك السر الدفين المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق إلى أجواء من التفكير ، والاحساس والتكوين لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها .

وسرعان ما يتصل الحاضر المستقبل فى فن الأديب ، جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته فيشب حاملا معه الفكرة التى تنيل الحياة قيمة فى تذوق الجمال الحى ، والأدبى ، وفى ممارسة الجمال تأملا وسعياً وجهادا ، رافعاً بيده مشعل الحب العتيد للوطن ، وللرجاء وللتقـــدم وللشهامة والبطولة ورضاء غريزة الحرية .. وتتدرج « مى » فى رسالة الأديب فتقول :

رسالة الاديب تعلمنا أن لكل قطر من الاقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسكبها فى قالبها وتدمغها بطابعها الخاص . . رسالة الاديب تعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستعيدها ونستخدمها لا أدوات تستخدمنا وتستعبدنا . . . رسالة الاديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التى ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشد احتياجاً منا فى الماضى إلى ثقافة أدبية تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وأن هذه الحضارة الآلية المتنقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل تسعم بها وتشقى ، دون أن يكون لنا يد فيها ، تدعم أما الثقافة الادبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً وساعة فساعة مدى الحياة . رسالة الاديب تعلمنا أن للعالم العربى على تعدد أقطاره وحدة واحدة

تشغل مكاناً فسيحاً فى القارتين الاسيوية والإفريقية ويستطيع أن يقول هذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولكن للاديب فنا مغرياً ينيلنا الثقافة والفائد بيننا نحن نرتفع فى بحبوحة من اللذة والمتعة ، فى جو ممغنط أخاذ هو فى الواقع جو الحياة .. رسالة الاديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا الادبية الممتازة عن سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون ، ومازالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة . . . .

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية ، إذ بها لا بغيرها تقاس مواهبنا ويسبر غور طبيعتنا . وهى التى تثبت وجودنا وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا .. رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التى تجذبنا من كل صوب لتركزنا فى شخصيتنا الأبية .. رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شىء ونستفيد من كل شىء باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ؛ نازعين إلى الجمال الحسى الأبى حيال كل دمامة خلقية مساجلين النفوس والعناصر ؛ مناجين المنظور وغير المنظور لنجعل من حياة متناثرة متداعية ؛ حياة متناسقة متماسكة . أى شىء لا تعلمنا رسالة الاديب؟؟

ولقد هيأت «مى» الخطبة المشار إليها ؛ وضمنتها خلاصة أفكارها فى رسالة الأديب وفى شئون أخرى ، فى غضون إبلالها من الحالة العصبية التى نزلت بها وقبل وفاتها بنحو ثلاث سنوات أو أربعة فكانت الافكار التى وزعتها مى فى قولها وقتئذ تامة النضج مكتملة باكتمال السن ، وعظيم التحصيل ووفرة التجارب . فأنت ترى أن فى نظرة هذه الكاتبة للأدب وللأديب ما يدل على تعليق أهمية كبرى على أنها العاطفة العميقة الحساسة المتأثرة بكل شىء ؛ وعلى التأثر الصادق المتغاغل فى شعور الكاتب ، وعلى اللفظ الجميل الأنيق الذى يعبر عما فى نفس الأديب وعلى العلم الواسع المتين والمنطق السليم ، وعلى الذوق الذى ، لا يقع تحت التعريف والفن المتصل بهذا الذوق وعلى النزوع إلى الجمال فى المحسوسات وفى الافعال ، وذلك كله يدخل فى

مفهوم الادب الذى يستمد منه الافراد غذاء لنفوسهم ، وتستمد منه الشعوب ما تطمح إليه من المكانة والتقدير .

وإن الادب الذى أشاعته «مى» حين يشمل جميع هذه العناصر المتقدمة الذكر يكون أدباً ، كما أشرت لذلك ، له أسلوبه وفنه وترنيمه ونغمته الخاصة فهو أدب لا يداخله التقليد إلا همساً ، وسمته الواضحة ذوق وفن وتفكير وعلم غزير . وكل أولئك يتلاقى فى نفس الكاتبة ويمتزج بعضه ببعض بنسب تقدرها مواهبها تقديراً ليجعل من أدبها مزيجاً ذا طعم خاص ، وذا طابع معين يتشخص به أدب مى .

وهذا الطابع أو الاسلوب ، أو القالب الذى له شكله الخاص المميز هو ما يصور لنا طرافة الأدب مهما يكن لون الموضوعات التى تصب فيه وحالتها من جريان وابتذال . وإن فى جمال القالب وما يشيع فيه من سر التأثير الناتج من تجاوب الانفعالات والعواطف المتوقدة ، والتوجيهات الروحية والنفسية الصادقة الحية المرتفعة ، إن فى ذلك كله ، سر الادب وخاصة الاديب . وذلك ما فهمته «مى» وذلك ما يفهمه الكثيرون من الادباء وأهل الذوق والفن .

ويطيب لى هنا أن أنقل لأمين الريحانى بعض ما كتبه فى سنة ١٩٣٨ حول «مى» فى هذا الصدد حين قال (١) .

«من أطيب ذكريات الفريكة زيارة الآنسة «مى» منذ نحو خمس وعشرين سنة . هبطت الينا من ضهور الشوير مع والديها ، رحمهما الله ، حيث كانوا يصطافون . كانت الآنسة «مى» يومئذ فتاة دون العشرين من سنها على ما أظن . ولا أزال أتصورها فى ثوبها الابيض وقبعتها القوراء المزدانة بالزهور ، وفى ابتسامها الساحر ، وروحها الزاخر بالنور ، نور الحماسة والكياسة والطموح . فتاة شرقية لبنانية العين مصرية اللهجة عربية اللسان والروح . هبطت إلينا من عل وهى يومئذ تدنو من باب الحياة الادبية بخطوات ثابتة ، وقلب مفعم بالآمال والاحلام تريد دخول البيت لتملأه من النور الذى أحملتها مشعاله يد الهية .

(١) جريدة المكشوف بيروت ١٩٣٨ العدد ١٤٨

وكنت أنا يومئذ قد دخلت البيت وأضرمت فيه ناراً تدفىء وتنير ، وتزعج كذلك الابصار . فيها شرر وفيها دخان . أى نعم . كان قد ظهر الجزءان الأول والثانى من الريحانيات وفى الأول مقالى فى وادى الفريكة .

* * *

قد أشرت إلى الجزئين الأول والثانى من الريحانيات ، وإلى نار أضرمتها تخلل نورها الشرر والدخان . وبكلمة صريحة بسيطة أقول . كنت يومئذ اتهم بالكفر والإلحاد وكان الآب « لويس شيخو اليسوعى » يبذل جهده ليردنى إلى حظيرة الايمان ، ليردنى إليها حياً أو ميتاً لله من هذا الكافر الريحانى .

وكان كل ليلة ، بعد صلاته ، يشحذ سكينة ، رحمه الله ، ويروح متتبعنى فى جريدة الآباء المحترمين ومجلتهم فى البشير والمشرق . . . وفى هذه الضجة من حياة الناسك ، ناسك وادى الفريكة ، كان الناس ، إلا نفراً من المختارين يمتنعون عن زيارة الوادى . لذلك أسجل بالفخر والإعجاب اسم الآنسة مى . فما همها ولا روعها ما كان يقوله الآب « شيخو » ، وما كان يقصده ، فقد كانت حتى فى تلك الأيام ربة نفسها ، مستقله فى فكرها ، وفى أميالها ، ومرامى أدبها . ولا همها ولا روعها أن فى الريحانيات ألوانا من الأدب حمراء سياسة ودیناً واجتماعاً .

ما خشيت على نفسها ، ولا على عقيدتها ، من الألوان الحمراء والسكاكين المشحوذة . ومن غريب أمرها فى هذا الاستقلال الفكرى والعصمة الروحية أنها كانت الصديقة الحميمة للدكتور الفيلسوف شبلى شميل وهى المعجبة بنبوغه وبأدبه ، وبنبالة عقله . وكانت كذلك الولية الصافية للدكتور العالم يعقوب صروف ، وهى المكبرة لعلمه ، المحترمة لأدبه المعجبة كل الإعجاب بسمو أخلاقه ومن المعلوم أن للدكتورين الفاضلين رحمهما الله ، نزعات كان يسميها الآب شيخو وأمثاله من هناترة الإيمان نزعات كفرية هائلة هى أشد من نزعتى أنا وأفظع .

ومع ذلك فقد بقيت الآنسة « مى » فى طهارتها بعيدة عن هذه النزعات فى

من تجلهم كل الاجلال . لا وربك ما تأثرت بشىء منها .

والنشوء والارتقاء — داروين — بخنر — الاقتراض السديمى — التكون الذاتى — الحلول المطلق العدمية . . أرجوكم يا أسيادى الأساتذة أن تأذنوا لى فى درسها على مهل . . وإن الله ليهدى من يشاء ويضل من يشاء .

ولقد استمرت «مى» فى ضلالها ، أو فى هديها كما تشاء أنت . فلا أنا ولا الدكتور صروف ، ولا الدكتور شميل استطاع أن يغير عقيدتها الموروثة . أن يدخل على إيمانها شيئاً من الاضطراب ما استطعنا أن نفسد هذه الفتاة بالافتراضات السديمية . ولك أن تقول أنه لم يلصق بها شىء من هذه العلوم . وما « علق » عليها شىء منها !

ولقد حافظت الآنسة مى على درة الإيمان التى تتعهدها بالصقل والتنظيف على الدوام الكنيسة الرسولية الكاثوليكية المقدسة . وقد حظيت بمقابلة رئيس الكنيسة الأكبر ، قداسة البابا ، ست مرات والأعجب من ذلك أنها ظلت إلى قبل محنتها بستة أشهر تحترم آباء الكنيسة وتجزل لهم العطاء — قداسات من أجل والديها .

إنى أذكر هذه الحقيقة البارزة فى حياتها لأردفها بحقيقة أخرى . وهى أن الآنسة مى على ما قاسته فى السنتين الاخيرتين من العذاب الروحى ، والألم الروحى والجسدى ، ومن الحزن الذى يولده الاضطهاد ، والجور والخساسة ، والجبن فى الناس لم تفقد إيمانها بالله ، ولم تفقد إيمانها بالحياة وبالمبدأ الإلهى الذى ينير الحياة فى أجمل مظاهرها ويجعلها فى أحطها وأظلمها شيئاً يرثى له ولا ينبذ .

هذه هى الحقيقة الكبرى فى حياة الأديبة النابغة تثبت ، فوق ما قدمت أنها منذ نشأتها مستقلة حرة فى تفكيرها تستشف مواطن الإلهام حيثما وجدتها ، وتستوحى الحياة فى مظاهرها الكلية والجزئية وتطالع وتدرس وتفكر دون أن تقتدى بأحد ممن تقدمها أو عاصرها من الأدباء .

وإن لإيمان «مى» الأعلى ، إيمانها بالله وبأكوانه ومخلوقاته ، لهذا الإيمان رواسى لا تهزها أنواء الحياة ولا تدركها عوادى الشك والقنوط .

وأحب أن أزيد على ذلك كلمة فى أسلوب مى الأسلوب الذى تتخذه للتعبير عن أفكارها وعقائدها . فمما لا ريب فيه أن لها فى الإنشاء أسلوباً خاصاً بها – بمزاجها ، بعصبها ، بذوقها ، باتجاهاتها ، وبشتى العوامل النفسية ، والذهنية ، والروحية . فتراها فيه الأديبة المحدثة والأديبة المحققة والأديبة المرشدة والأديبة اللاهية . فيترقرق النور خلال هذه المزايا الشخصية ويكسبها فى كل مظاهرها شيئاً باهراً ساحراً . هو باهر السحر فى نقاوته وأغيامه فى هدأته واضطرابه فى نقمته وحنانه فى سخريته وتهكمه . إنه ليندر فى كتابنا اليوم نساء ورجالا من تتجلى هذه المحاسن كلها فى أسلوبهم فانك لتقرأ «مى» وإن كانت تردد المألوف من القول المبتذل من الأفكار ذلك لأنها حتى فى ما قد يكون من مألوف أو مبتذل فى أدبها تكسبه بأسلوبها المزية الفنية التى ترفعه إلى مستوى المبتكر من الأدب ، والجدير السديد منه

وهكذا اتجه الريحانى فيما كتب عن «مى» إلى إبراز ما فى أسلوبها من مزية تتصل بذوقها ومزاجها وعلمها وشتى نوازعها النفسية ، بل هى على الجملة مزية الموهبة لكاتبة أديبة ولأدبها طابعه الخاص .

ومما هو جدير بالملاحظة فى أسلوب «مى» أنها كانت شديدة الحرص على تخير اللفظ الأنيق المصقول الذى يحسن وقعه على سمعها وترتاح أذنها لجرسه وموسيقاه ومن الأمثلة على ذلك وهى متعددة فى نواحى ما كتبت ، ما أجده فى كتابها « ظلمات وأشعة » حينما كتبت عن طائر حبيس قضى بعنوان دمعة على المغرد الصغير فقالت (١) « ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر . يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتشقق بوطئته جلابيبها ، وتنتثر وريقاتها كذلك ملامسة الألم النفس المنفردة ليثير منها الأشجان ، ويستقطر من محاجرها العبرات .

(١) ظلمات وأشعة . دار بيروت للطباعة ١٩٥٢

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر .

أما أنا فلا هذه العطايا تغريني ولا تلك المواهب تستهويني شيء واحد تام الجمال فى تقديرى وهو مايشترك فى تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب . شيء واحد ينبه إعجابى وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا وهو زهرة نادرة المثال ، شمس الذكاء والمعرفة تحييها ، ومياه العواطف العذبة ترويها . ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح فى ثنياته

طائر صغير نسجت أشعة الشمس ذهب جناحيه وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة فى عينيه ثم سقطت عليه يد البشر فضيقت دائرة فضائه وسجنته فى قفص كان عشه فى حياته ونعشه فى مماته .

طائر صغير أحببته شهوراً طوالا . غرد لكآبتى فأطربها ، ناجى وحشتى فآنسها ، غنى لقلبى فأرقصه ونادم وحدتى فملأها ألحاناً .. إلى أن قالت والآن أنظر إلى القفص .. لقد صمت الطائر المغنى ، وجمد الشعاع المحيى ، فلا ترى فى القفص إلا قليلا من الشمس المائتة . . مات الصغير الغريد ، مات صغير حشاشتى .. مات عند بزوغ الفجر ، وقبل انقضاء الربيع . ولا يبقى فى خاطرى إلا الأثر من ذلك اللحن المتواضع البديع . شعاع ذهبى أطل حينا واختفى فى كبد الآفاق ، ابتسامة لطف أشرقت ، وما لبثت أن توارت فى أخفية الظلام .. نغمة حب تموجت ساعة ثم تلاشت فى هاوية السكينة ، صديق صغير غرد فأطربنى ، وسكن فى جوارى فآنسنى .. هذه قيثارتى فقدت أحد أوتارها فناجت بلابل أنغامها فما أتعس القلوب الشديدة التأثر . . وما أمر الجرح الصغير الذى يفتح جراحات كبيرات .

ومما فيه طابع الأسلوب الجميل المتأنق ما كتبته «مى» عن نهر الصفا (١) إذ تقول « هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية ، وتحولت الورود إلى أشعة سحرية .

---

(١) أنظر ظلمات وأشعة

هنا اغتسل قوس قزح ، فترك فى الماء من ألوانه ألحاناً فضية .

ومن دماء الأحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية .

هنا بعث الأفق بأسراره إلى الأرض مع خيوط من الأثير ذهبية .

هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات المياه . فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ، هناماجت حمائم الشعر ، وغنت أطيار الأنغام . هنا لثمات النسيم شوق وهيام ، ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام » .

ومما كتبه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى أسلوب مى وصدق فيه وأحسن ما يلى :

لم يكن أسلوب «مى» الطريف الجديد إلا بدعة فى الأساليب العربية فلا تجد فيه نثر الجاهلية وسجع كهانها . ولا تصادف فيه أثراً من طريقة عبد الحميد الكاتب وتلاميذه ، ولا ترى فيه طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل ومن كان بينهما ، ولا تجد فيه ركاكة كالتى شاعت فى العصر التركى ولا ترى فيه تطرف السوريين فى أمريكا وإباحتهم التى يعتبرها المحافظون من اللغويين تهجماً على قداسة اللغة العربية . نعم لا نرى فى أسلوب مى واحداً من هؤلاء ولكنك تراهم فيه جميعاً .

أما أسلوبها حين تتقابل بحثاً أدبياً أو موضوعاً اجتماعياً فقد كان فى غاية من السلاسة والسهولة والوضوح فالفكرة عندها واضحة ظاهرة لا تتصيدها من وراء الغيوم أو من خلف الضباب ، والعبارة عندها سهلة لا تعقيد فيها ولا إبهام واللفظ عندها سائغ حلو الوقع على الآذان ، فإذا قرأتها لا تمسك نفسك من الإعجاب بها والاقتناع بمذهبها وفى عبارات « مى » حين تكتب أو حين تخطب موسيقى تستسيغها الأسماع ، إلى أن قال : ولكن ميا كانت تتحرى اختيار بعض ألفاظ قليلة الاستعمال لتخلع عليها الحياة من جديد ولتديرها على الألسنة والأقلام عوداً على بدء . وجهادها فى ذلك معروف مشكور . وقد تعدل عن لفظة مألوفة أو صيغة من الاسم والفعل معروفة

إلى لفظة أخرى وصيغة ثانية أقل دورانا على الألسنة وشيوعاً على الأقلام أو أكثر إمعاناً فى العامية .

فهى تقول الرياح تعتول بدل تعـــول . وتقول حولك الأقوياء يتكافحون بدلا من يكافحون .. وكان لها غرام باستعمال صيغ المبالغة من اسم الفاعل ، ولعلها بذلك تقصد إلى التهويل والمبالغة والتأثير فى نفس سامعها أو قارئها . فالجرمانى عندها «مبطاش» لا باطش ، واللاهث والهاتف عندها لهاث وهتاف بصيغة فعال للمبالغة وتقول عن نفسها « أنا التى ترانى طروبة طيارة » بدلا من طائرة .

كما أغرمت باستعمال صيغة أفعل دلالة على الوصف لاعلى التفضيل ولعل هذه الصيغة كانت تقع من نفسها موقعاً حسناً فقد آثرتها وأدارتها على كلامها فهى تقول «يتركه جثة فى قبضة الموت الأغبر والصبح « الأنور » والنادى « الأسنى » .

ويشير الأستاذ عبد الغنى حسن إلى عناية « مى » بوضع ألفاظ عربية لمصطلحات أوروبية فيقول « ودليلنا على ذلك أنها بعد سنة ١٩٢٣ أخذت تضع المصطلح العربى الجديد وبعد قوسين بعده تضع اللفظ الإفرنجى فتقول تساوق الألحان « هارمونى » والنغم « ميلودى » وأحياناً كانت تضع اللفظ الإفرنجى مكتوباً بحروف عربية ثم تضع بعده المصطلح العربى فتقول . الشعر الليريكى أو الغنائى ، والشعر « الديدا كتيكى » أو الشعر التهذيبى «والدراماتيكى» أى المفجع «والأبيكى» أى القصص الحماسى .

وأشار الأستاذ عبد الغنى إلى الأسلوب التهكمى عند مى فقال :

« رأت مى » انتشار كلمة فلان ومدامته فغمزت مستعمليها بقولها لايخفى على ذوى المدامات وغيرهم — وسمعت رجلا عربيا يزعم اللغة العربية ثقيلة على لسانه وأن بعض حروف الحلق فيها كالحاء والخاء يمزق الحلق ويثقل على السمع فعز ذلك الانسلاخ البغيض على «مى» وكتبت مقالا عنوانه « تكلموا

لغتكم » وظلت تلذع هذا العربى بسخريتها العفيفة قائلة أنه من الطراز الحديث المكرر ثلاثاً ، فتح فاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين .

وطفق حضرته يتكلم الفرنسوية جاعلا الراء منها غيناغنا (١)

ويطيب لى لمناسبة الأسلوب أن أذكر الرأى الذى أثبته الأستاذ عبد الغنى حسن للمرحوم المازنى حين سئل عن أسلوب مى فقال أسلوب مى سليم نقى فقد أشرت إلى قلة عقلى لما تلقيت كتابيها . ذلك أنى أكره الأسلوب العاطفى أو الوجدانى وقد نسيت وأنا أقرأ كتابيها أن الكاتبة امرأة وأنها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها إلا إذا كتبت بروح المرأة وأنها بغير ذلك تكون متكلفة ولا قيمة لها . وقد كانت مى امرأة صادقة الأنوثة غير طائشتها ومخلصة لجنسها وطبيعته أعظم إخلاص . وأحسب أنى قد بينت كيف كنت قليل العقل (٢)

أما المرحوم الدكتور يعقوب صروف فإنه استشهد ببعض ما كتبته «مى» عن أسلوب باحثة البادية فى الكتاب القيم الذى أخرجته أديبتنا الكبيرة عن الباحثة مما يدل على إكباره لمى وتقديره البالغ لكتابتها إذ يقول (٣)

فإثباتها (والضمير يعود على مى) الصمت للحكم والعمق لليل ، والنبضان للحياة ، والأنين للشكوى ، والرنين للظفر ، والولولة للألفاظ ، والتموج للنفس ، وقولها أن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ولا بالصغير ، وأنه قد يكون بين سطور الكاتب لهب خفى ينشر بينها أشباح النور والظلام وأن البعض يستطيعون أن يرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاء وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائى وأنه لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد يتفق مع ذاتيته ثم قولها « إن من يحاول الوصول إلى هذا الأسلوب محاولة يهوى

(٢،١) أنظر كتاب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن حياة مى مطبعة المقتطف والمقطم بالقاهرة ١٩٤٢ .

أنظر مقدمة كتاب باحثة البادية لمى بقلم يعقوب صروف

فى دركات التصنع والتكلف وتتعثر قدماه وقلمه بذيول الزوائد والحواشى الحاضرة بين المتداولات كالحلوى على أطباق حلوانى العيد ، أو يداهمه مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئه الشقى بأنه حكم عليه بسف التبن ، كل ذلك من المعانى التى تكاد تكون مبتكرة فى العربية وقد أيدتها بأقوال أعظم شاعر فرنسوى وأكبر فيلسوف يونانى .

حسبى هذا الشاهد من فصولها للدلالة على بلاغتها فى التعبير عما فى نفسها وعلى ابتكارها المعانى وإفراغها فى قوالب جديدة ، واستعارات أنيقة .

وقد يحدثنا فؤاد حبيش فى جريدة المكشوف عن اليقظة الذهنية التى كانت لمى حتى فى غضون محنتها وأيام مرضها وعن تخيرها للعبارة الموافقة لتضعها فى مواضعها ، وعن تحسسها لنغمة الألفاظ وجرسها فيقول (١)

بين يدى الآن مسودة محاضرة مى (٢) «رساله الأديب إلى الحياة العربية» مكتوبة بالحبر وعليها بعض التصحيح بالقلم الرصاص . قالت مى «فرب زفرة حزن أو صيحة نهوض وجدت صداها» فإذا بالقلم الرصاص قد ضرب على كلمة «نهوض» واستبدلها بكلمة استبسال . والفرق بين الكلمتين من حيث المعنى الذى أرادته الكاتبة ظاهر لا يحتاج إلى شرح . وكتبت مى عبارة . أما الأشجار ذات الحيوية المنيعة فالأعاصير : (وكأنها رأت أن لفظة المنيعة لا تؤدى المعنى المطلوب ، أو أنها لا تطابق كلمة (الحيوية) فاختارت لفظة (العصية) وأمثال هذا التدقيق فى الاختيار كثير . ورغبت إلى مى أن تصحح (بروفة) محاضرتها بنفسها ، فحملت (البروفة) إليها فاذا هى تحكم أذنها الموسيقية فى كثير من الجمل فتقلبها رأساً على عقب ، وتقدم كلمة هنا ، وتؤخر كلمة هناك . جاء فى محاضرتها قولها ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضى مولانا سيبويه من

(١) أنظر جريدة المكشوف العدد ١٤٨ فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٨ بيروت

(٢) محاضرة القيت ببيروت ١٩٣٨ م

من الناحية الواحدة ، وترضى الواقع والذوق من الناحية الأخرى . .) فنفرت أذنها من قرب الناحيتين فقدمت عبارة (الناحية الواحدة) على عبارة مولانا سيبويه وأبعدت بين الناحيتين بنسبة موسيقية عادلة .

وورد ذكر الكتب المقدسة الثلاثة فاستوقفتني عندها وقالت بعد تفكير قليل ألا ترى الأفضل أن نستعمل هنا عبارة (الكتب الدينية) فيكون أقرب من الواقع ، فقد لا يؤمن هذا بقداسة كتاب ذاك ؟ ومهما يكن من تنوع فيما كتب الكاتبون من نقاد الأدب عن أسلوب « مى » فإن أظهر ما يتميز به يدور حول الذوق الفنى ، والتأنق فى تخير اللفظ المصقول والعبارة المصقولة المنغومة ومزج ضروب من الأساليب بعضها ببعض مع وضوح عصبية للغة العربية وسريان العاطفية والروح الأنثوية بين السطور مع ملابسة ذلك بطيوف الشجن ، ومع بروز الطرافة فى الكثير من التشبيهات والاستعارات .

الطريقة التفكيرية :

وكما أن لمى أسلوباً فى كتابتها وإنشائها لتدوين ما تجيش به نفسها من النوازع وما يمر بخاطرها من الأفكار فإن لها إتجاهاً وسبيلا فى التفكير يرجع أكثره إلى ضرب من المثالية المتطلعة إلى الخير والمحبة ، والذواقة للفن والتواقة للجمال . وتلك المثالية التى أعزوها لمى هى مثالية تحوم حول شئون الناس ومشكلاتهم النفسية والاجتماعية وهى مثالية لا تمعن فى البعد عن الواقع ولا تطوح بنفسها فى أجواء الخياليات وأبعاد الأثيريات كما يرى العقاد فيما ذكره فى حديثه عن مى مع الأستاذ عبد الغنى حسن . وأديبتنا الكبيرة مع مثاليتها المعتدلة تحب أن تصف ما ترى وتؤثر أن تعبر عما تشعر به وذلك ما كان يراه المرحوم أنطون الجميل حين تحدث عنها كذلك مع الأستاذ عبد الغنى حسن على أن ميا وإن كانت فى نظر العقاد والجميل لا ترتاح للإمعان فى أجواء الخياليات ، وتؤثر أن تدنو من الواقع إلا أنها كانت تتحاشى المسف

والبغيض من هذا الواقع فتعلو عن الخاسئ وعن الدنئ والمريب نحو ماهو جميل ورفيع ومحبوب. ولذلك فانى أميل إلى أن أعزو لأدب « مى » صفة المذهب المثالى ومنازعه وإن صح كذلك أن تنسب لها الواقعية. على أنه مهما يكن من صلة للمذهبين بقلمها الخصيب فإن رذاذ الدموع وسحب الرأفة والمحبة ترف وتحلق كثيراً على ما دونته هذه الكاتبة وفى الحق أن ميا كما ذكر خليل تقى الدين: قد خلدت عن الناس صوراً عذبة ناعمة تكاد تطفر ألوانها وموسيقاها وأنغامها إلى عينى القارىء وأذنيه وحواسه جميعاً.(١)

ولو أردنا أن نتبين مرجع هذه المثالية المتصلة بمعنى المحبة وما إليها من تراحم وإحسان لوجدنا أن همسا خفياً تتكون عناصره من وراثة متأصلة لما يسمى بالروح الشرقية وهى روح تلابسها الغيرية وتستمد كذلك من نزعات التسامح والمحبة التى توحيها مسيحية سمحاء دانت لها مى وكذلك من استعداد عاطفى عام للأنثوية ومن استعداد مرهف خاص بهذه الأديبة لكل مايمت للخير وللجميل. أقول أن من ذلك كله تكونت العناصر التى كان لها تأثيرها وهمسها الخفى الدافع لجميع قوى الكاتبة وأسلوبها التفكيرى لكى تتوجه بقلمها فى شئون المجتمع وفى أحوال النفس البشرية فكثيراً ما يتألق المعنى الإنسانى العام فيما ترسله « مى » من وحى جنانها وقلمها. وطالما تتلمس المناسبات والأسباب فى سياق ما تكتب إلى تعزيز القيم المعنوية العليا وتمجيد الفضائل ودحض الرذائل، والحض على المعروف والنهى عن منكر، وإيثار كل حسن بما لقلمها من تأثير وطلاوة لتحببه للقارىء وبما فيه من قوة لكى تبرز دمامة القبيح وبشاعته ولتبغيضه وتحقيره عند الناس. وشأن « مى » فى ذلك هو شأن المثاليين الذين يبشرون بما ينبغى أن يكون وينفرون من كل ما هو مذموم، ولا تخلو كتابتها عند مواتاة الفرص من غمز للمظالم وإجلال للمكارم والحسنات. وأقدر أن روح المسيحية وإلهامها نفوس من

(١) مى. من كلمة لخليل تقى الدين فى العدد ١٤٨ من المكشوف بيروت ١٩٣٨

يؤمن بها صادقا ، فى التعلق بمبدأ التضحية والاستهانة بالآلام لخير البشرية فى سبيل تسويد معنى المحبة ونشرها بين الناس ، أقدر أن فى تلك الروح ما هيأ لمى دعوتها المتكررة فى تقدير الشدائد والمحن والآلام وفضلها فى تطهير النفوس وإصلاحها وتنقيتها وتجنبها مآثم الخطايا ومزالق الزلات . وأما بعد الإشارة إلى التحصيل العلمى لمى وأسلوبها فى الكتابة وفى التفكير فننتقل إلى نواحى فلسفتها العامة والاجتماعية .

فلسفة مى العامة والاجتماعية

وسبحان من يهيء النفوس لما يهمها ويودعها متنوع الشواغل والمشاغل ويستدرجها إلى مختلف الوجهات وإلى متباين الأهداف ، مما يدفعها لاستنفاذ جهودها فى سبيل مايهمها ، واستغراق الوفير من حيويتها ونشاطها فيما يشغلها وعلى ذلك فمن الناس من يأسره المال فيلهيه عما عداه ومنهم من يهمه الجاه ولا يرضيه سواه ومنهم من تستنفد طاقته الشهوات والامانى الرفيعة ومنهم من يصرف جهوده للرغبات الوضيعة ، ومنهم من يهيم بالإصلاح والتعمير ومنهم من ينزع إلى الإفساد والتدمير ، ومنهم من يشغف بمعرفة العلل البعيدة القاصية ومنهم من لايمتد نظره إلى الأسباب القريبة الدانية ، ومنهم من هو كالأنعام أو أضل يستكفى من الحياة بأن يتغذى وينمو ويقضى حين ينتهى العمر ، ولا مناص من انقضائه ، فلا يعنى بهدف يرمى إليه ، ولا يتجشم التفكير فى حل مسألة أو فهم معضلة .

وهكذا تتعدد المقاصد بتعدد مايشغل الناس أو بما يجوز أن يسمى بتعدد فلسفاتهم التى يرتبون عليها مسالكهم ومسعاهم وآدابهم ونظراتهم فى هذه الحياة ، والتى يترتب كذلك على أقدارها وقيمها أقدار الناس وقيمتهم فى هذه الحياة وفى مراتب الوجود الاجتماعى فيكون منهم من يذكر ويشكر ، ويكون منهم من ينسى وينكر ، ويكون فيهم من يذم ويلام وسبحان من له التصريف فى شئون الخلق وله

الدوام . وإذا كان فى وفرة القراءة والتحصيل الفكرى والأدب والكتابة لتصوير النفوس وإظهار ألوان من الحياة الاجتماعية ما يبدو أنه استأثر بنفس « مى » واستغرق لبها فإن وراء الكتابة والأدب والتحصيل تستجن نزعة فلسفية أخاذة بملكات الكاتبة ، قوية السيطرة عليها ، ملحة على عقلها إلحاحاً شديداً .

والنزعات الفلسفية التى طالما تطوح بالفكر فى بيداء المجاهيل عندما يعرض الإنسان لمسائل ماوراء الوجود المحسوس ، ولمواضيع مابعد الطبيعة حين يتطلع إلى معرفة سر الحياة ، أو كنه العلة الأولى ، أو فهم حقيقة النفس ، أوإدراك الغاية من الوجود أوغيرذلك من أمثال تلك الموضوعات العويصة التى شغلت البشرية منذ الأزل ، وستظل تشغلها على الدوام أبداً دون أن يصل الناس فيها إلى حلول ، ودون أن يظفروا منها إلا بهذا الإرهاق المضنى المخصب للنفوس والجدير بالعقل الإنسانى وبعظمته وجبروته ورقيه ، أقول أن هذه النزعات الفلسفية قد احتلت من نفس كاتبتنا مكانا واسعاً رحباً . وقلما يخلو منتوج قلم هذه الكاتبة مما يشعر القارىء بأن «ميا» تريد أن تحوم حول ماحوم وما يحوم حوله الفلاسفة فى التطلع إلى كشف الأستار والطموح إلى بلوغ العلل البعيدة والغايات القاصية . وإنها لترجع من وراء ذلك حقاً بلا طائل ، وبما لايشفى النفس ، كما رجع ويرجع غيرها من الغابرين واللاحقين . على أن ماترجع به بعد تحويمها الفلسفى من الافتراضات والتخمينات وأشباه الحلول كثيراً ماتلازمه ثروة قيمة من التفكيرات والتعبيرات والاستفهامات والإشارات التى تثير فى نفس من يقرأ لمى تلك الرغبة الرفيعة العليا بالبحث والدرس والتحقيق ، والكاتب الذى يستطيع بكتابته أن يهيىء جواً معنويا وتفكيريا ينتشى به قارئه ويرغب فيه وينعم به ويطيب به نفسا إنما هو الكاتب الحق وأدبه إنما هو الأدب الذى يطول الانتفاع به ، أو يبقى إلى مدى مديد . وقد يقال نحو ذلك فى أدب مى فهو

أدب له قيمته ووزنه لأنه يستمد مجراه من معان إنسانية كريمة ومن قيم رفيعة هى من صميم مايشغل البشر وهى من أشد ما تأثرت به نفسية « مى » وتستطيع بذلك أن تؤثر به . وفى رأيها أن « الأدب هو فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظما . . . والشرط الجوهرى للكاتب الأدبى هو أن يكون ذا إحساس قوى يتأثر بجميع الحوادث فإذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الأدبى وكيف يؤثر من لا يكون متأثراً » (١) وعلى ذلك فيصح على أدب «مى» فى جملته أن يكون من تلك الآداب المقروءة الطويلة الأجل التى تهز أوتاراً فى قلوب القارئين .

ولا أريد أن أجشم نفسى كثيراً فى تتبع النزعات الفلسفية وإحصاء النبضات التفكيرية العميقة ، التى تبدو هنا وهناك بين الصفحات التى دبجتها يراعة الأديبة العربية على أننى أثبت بعض النصوص للتدليل على ذلك وعلى سبيل المثال ، فهى تقول فى محاضرة ألقيت بالجامعة المصرية فى سنة ١٩٢١ وعنوانها « غاية الحياة » ما يلى :

أيتها السيدات موضوعنا اليوم « غاية الحياة » ولا أعرف كلمة خطيرة كهذه وأكثر تفلتاً من حدود التعريف . إن لفظة الحياة فى معناها التام تشمل الكون بأسره مما يرى ومالا يرى . وهى ذلك التيار الخفى النافذ فى كل شىء ، المحيط بكل كائن ، وقد حوى من الاقتدار والجبروت ماألقى فى روعنا أنه من روح الله . كأننا نحسب الحياة نسمات نور وانعاش منطلقة من صدر تلك القوة الكبرى التى نسبح جميعاً فى بحار وجودها ونسميها الله

فإذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأنى لنا تعيين غايتها : من ذا الذى يجرؤ على تعيين غاية الفلك فى دورته ، والنجوم فى سيرها ، والمذنبات فى تكوينها ، والشموس فى تشععها واحتراقها والنيازك فى تساقطها فى الأرض حجاراً سوداء؟ من ذا الذى استشف من البحار غاية المد والجزر ، ومن القمر غاية الاكتمال والانتفاض ، ومن النوع البشرى غاية مدنياته وأديانه وأنظمته

(١) أنظر سوانح فتاة لمى ص ٤٣ مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩٢٢ .

وكل ما يتقلب عليه من الأطوار ؟ كيف نتحرى غاية الربيع بحلوله بعد الشتاء فيتبعه الصيف المتلظى الذى لا يلبث أن يزول أمام الخريف الحزين ؟ وما غاية الغصين فى تمايله وتجرده وإيراقه ، وغاية البذور فى النمو والانتاج والذبول ؟ نحن نعرف بعض الاسباب الطبيعية فى الخليقة وما يترتب عليها من النتائج وإلى أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء ؟ لغز رائع لا يحله الإنسان مهما ارتقى علما وفضلا وإخلاصاً . والإنسان الذى هو جزء من هذا الوجود غير المدرك ، أكثر ما يستعمل كلمة « الحياة » ليعنى كمية أيامه على الأرض ومجموع أعماله وكمية أيام كائنات أحاطت به وقد امتاز عنها جميعاً بما أوتى من إدراك وإرادة وحرية ..

ولكن للإنسان وحده قوة التميز والمقارنة والاستنتاج والإبداع فى أتم أنواعها الممكنة .. له وحده أن يتصرف بالموجودات التى يفعلها ويعالجها ويستخدمها لحاجته . وهى تعنو له صاغرة لأنها لا تعقله وتبقى دونه مهارة ومقاومة وإن جمحت يوماً وفتكت به ساعة غضب عنجهى فتلك طوارىء عاديات كالصواعق والفيضان والطوفان والأوبئة التى لا تدوم غير وقت ما . ولسرعان ما يهب لمقاتلتها واختراع ما يمكنه منها ويقيه شرها ولئن خنعت الموجودات إلى النظام الكلى الذى يسيرها قهراً فعاشت عيشتها الصخرية العشبية البهيمية وأدت وظيفتها المعينة جاهلة صاغرة فإن الإنسان وفى ذلك ميزته وفخره — لا يكتفى بتلك العيشة الابتدائية العنصرية ولا يعيشها مرغماً بل سعيداً مدبراً مختاراً . وهو فوق ذلك يخلق لنفسه غايات قومية وسياسية وفكرية وقلبية جمة ، تتسابق إلى تحقيق غاية قصوى يوجه نحوها مجهوداته ، ويجمع أعماله فى شبه قناة حيوية تنتهى إلى تلك الغاية البعيدة تلك الغاية المحبوبة التى يخالها تناديه وقد اتخذها كعبة آماله :

عنده هذه الكلمة « كعبة الآمال » المرادفة لموضوعنا (غاية الحياة) يقف الكل ويزفر زفرة حارة إذ يتساءل (ما غايتى من الحياة ؟ أأعرفها أنا

وهل تشعر أو تبالى بوجودى ؟ ما هى يا ترى أثروة أبتغى حشدها ؟ أجاه أم قدرة أم حال أنعم فيها بجميع أسباب الهناء ، وأتذوق خلالها لذائذ الفوز والسيطرة ؟ أهى علم لا أفتأ أذهب فى غوره ليكشف لعاقلتى حجب الحياة وأسرارها ؟ أهى إرهاف ملكاتى الذهنية والنفسية إرهافاً يرفعنى فوق أقرانى ويجعلنى موضوع إعجابهم ؟ أهى تقوى تدنينى من خالقى وتطمئن بها نفسى ؟ أهى شخص أيقظ فى حياة الوجدان العجيبة وتمثلت لى فى ذاته صفات الألوهية المعبودة حتى صرت أستهين لأجله بكل عزيز وأجازف بكل مكنون ؟ وأين أنا الآن من ضالتى المنشودة ؟ ماذا أكسبنى جهاد الأعوام الغابرات ، وإلى أين أوصلنى ذلك الجهاد الطويل ؟ ماذا جنيت من الكد والتجلد والرجاء وبعد دموع أرسلتها وأخرى أمسكتها ، وزفرات أطلقتها وأخرى كتمتها ، أراض أنا عن نفسى وعن غيرى أم أنا كلما خطوت خطوة إلى الأمام تقهقرت إلى الوراء خطوتين ؟ أم أن ما كان يبدو لى حقيقة محسوسة إنما هو خداع فتان كلما جريت نحوه ملتمساً ودنوت منه مستعطفاً ارتد وتباعد كما يرتد ويتباعد السراب فى الصحراء وعدت أنا إلى عذاب محتوم واصطبار جميل ؟ غايتى من الحياة السعادة فهل أنا سعيدة ؟)

وهنا يقف كل فترة أخرى ويزفر زفرة جديدة سعيداً كان أم شقياً لأنه لا بد لكل قلب من فراغ لايملأ ، ومن حاجة لاتسد ، ولأن النفس البشرية تشبه بركة الماء مهما راقت صفحتها وتلألأ سطحها حركها قليلا تتعكر وتكفهر بما ركد فى أعماقها من الأوحال . وفى أعماق كل نفس آلام ثاوية وتذكارات جاثمة ، وجراح صديدة اندمل بعضها على فساد يكفى أن تلمسها يد أو إشارة لتمضها الأوجاع فتعمد إلى الاستغاثه والأنين .

إن السعادة غاية الجميع ، أما السبيل اليها فمختلف باختلاف الطبائع . حرمها الناس طويلا فازداد شوقهم واحتشدت فى قلوبهم الكظوم والضغائن حتى لكأن الانسانية تتحرك اليوم فوق بركان ثائر . ففى كل مكان حروب

وتقاتل على المنافع . ومن الغريب أن النقيضين ، أى يقظة الوطنية ، وانتشار الاشتراكية يسيران جنباً إلى جنب ، والأمم جميعاً على وجل واضطراب تنتظر من وقت إلى آخر تغير الأحوال ووقوع ما كان يرجى أو ما لم يكن ليرجى .

بيد أن الحياة العامة لا تأخذ من حياة الفرد سوى ساعات معدودات وفى أشد حالاته تحمساً تظل حياته الداخلية على ما هى تقريباً . يظل له عوزه الذى لا يملؤه الغنى العام تظل له آلامه الجسمية والروحية يتجرع مرارتها ويحتمل من وخزها ما لا يخدره التهليل العام . ترى ما هو تأثير تلك الأفراح الوطنية الجميلة فى العليل اليائس وفى المعدم الذى ليس لديه ما يسد رمق صغاره ، وفى القلب الذى حوى جمرة تأكل سويداءه ، وفى الصدر الذى اكتظت فيه الغموم ؟ تلك لمحات ابتهاج تسطع ثم تترك القلب أكثر وحدة وسواداً ، والعليل أكثر أسفاً على أيامه المتتابعة كالأظلال

السعادة هى الغاية وما السعادة فى حقيقتها ، وعلى تنوع صورها فى الأذهان سوى تطور متتابع نحو حالة تستوفى عندها جميع القوى وسائل النمو والانبساط والظهور كاملة وافية بأقل ما يمكن من المقاومة والألم ، هذا إذا تعذر الخلاص منهما على الإطلاق ، وهل من تطور ونمو بلا عمل ؟؟ لا جمود فى الخليقة حيث كل مخلوق حتى ولو اختفى وراء مظاهر الموت يؤدى وظيفته ويتمم ما وجد لتتميمه . وكذلك كل خلية من خلايا الجسم تعمل لتؤدى وظيفتها . غير أن ذلك العمل الآلى ليس ليغنى الفرد المفكر المريد الذى لا تكفه الغاية العامة فى الكون ، إنما هو يعمل عملا خاصاً إضافياً يتفق مع غايته المختارة تتمرن عليه مجهوداته ويمارس به قواه . تلك السعادة التى يحلم بها لا بد أن يسعى اليها سعياً خصوصياً حثيثاً أريباً فى تحنيه وتشعبه وتنوعه ؟ ومع ذلك ليست كل قيمة العمل فى أنه موصل إلى الغاية المقصودة ولكن قيمته المعنوية الكبرى فى كونه آلة الاستقلال الفردى

وخالق الاحتيـــاج إلى الاعتماد على النفس .

وما هو الاعتماد على النفس إن لم يكن مكيف الذاتية الحرة التى تدرك أهمية احتياج الآخرين إليها وتدرك كونها مخلوقة على صورة الله ومثاله . لأن الله وهو المبدع الأعظم ، خلق الإنسان وأودعه قوى الإدراك والاختيار والابتكار التى لا تظهر إلا فى العمل . فبهذا العمل الذى يخلقه الإنسان ويتقنه يصبح إلاهاً صغيراً . بالعمل يكبر فى عينى نفسه وتنسجم حوله هالة الكرامة المعززة عناصرها من داخله المتشبع ثقة بكفاءته وأقدامه . بالعمل يرفع رأسه الذى أحناه الطلب والاستنجاد ، وينظر إلى الناس كأشباه لا هم فوقه ولا هم تحته بل هم إخوان يعملون فى سبلهم المختلفة . وينظر إلى الحياة متفرساً فى ملامحها بلا وجل لأنه تعلم فى مدرسة الإعتماد على النفس أن المصائب والمحن والمعاكسات الداخلية والخارجية تعجز عن النيل من قواه الجوهرية ، وأن تلك الرزايا إنما هى عناصر اختبار ، له أن يستخرج منها دروساً قيمة ، ومعلومات جديدة ، تزيده قوة ونبلا . ليس النبيل من ورث نسباً ومالا فاستخف بالناس والأشياء اتكالا على وراثته بل النبيل من خلق نفسه ، وما زال بها كل يوم يجددها بعمله ليخلف للمستقبل ثمرة مجهوداته .. النبيل من لا ينتظر «الظروف» «والحظ» «والبخت» تلك الكلمات التى يتملح بها الذليل الخامل ، بل ينتهز الفرص ليجعلها صفحات جليلة فى كتاب عمره . وما الأيام والساعات سوى فرص ثمينة للغاية يستخرج منها العجائب.

وحسبى هذا القدر من محاضرة مى فى غاية الحياة لأبين أن هذه الكاتبة حومت حول التفكير فى معنى الكون ومبدعه ، وحول الغايات من مختلف الظواهر الطبيعية ، وحول البشرية وما يتميز به الإنسان وحول متنوع مقاصده وقيمتها ، وحول نزوعه إلى السعادة وماهيتها ، وحول معانى أخرى فيها من الدقة والعمق ما فى المعانى المتقدمة . ثم تمضى المحاضرة فى موضوعها لتحصره فى موضوع المرأة وما يصح أن يكون لها من الغايات ولا استرسل فيما ذهبت اليه من ذلك إذ لذلك موضع خاص وحديث آخر.

على أن النزعات الفلسفية التى نجدها بلا تكلف وبلا تجشم فى جزء من محاضرة لمى قد نجد أشباهاً لها فى أكثر من محاضرة وأكثر من مقالة، وأكثر من كتاب لهذه الكاتبة المفكرة. وحسبك أن تقلب حيثما اتفق كتاباً من كتبها ككتاب (سوانح فتاة) لتجد فيه مثل هذه الجملة؟ «كل مايحيط بنا فى الحياة سر ولغز لكن حواسنا المثقلة بأحمال المادة تحجب عنا الأنوار فلا نرى للأشياء وجوداً ولا ندرك لها حقيقة إلا بقدر ما تتفق مع أطماعنا وشواغلنا» (١) أو لعلك تجد فى نفس الكتاب ما يدلك على أن للكاتبة أوقاتاً تود فيها لو أنها اختلت بنفسها فى حضن من أحضان الطبيعة الهادئة المنبسطة على شفة البحر «معرضة عن كل شىء. ناسية كل شىء، مكتفية بمناجاة الأصداف والحصى والذرات حولى وبإلقاء هذا السؤال على الكون الصامت لماذا أوجدتنى أيها الكون وماذا تريد منى» (٢) وفى حين تجد ميا بتأثير من عواطفها وميولها الفلسفية تتوق للاسترسال فى هذه النزعات والتحويمات الروحية والفكرية السامية نجد أن عقلها الجبار المرتوى من مختلف ينابيع العلم يأخذ بزمام قلبها أحياناً ليرده عن الاندفاع فى هذه البيداء الفلسفية المحيرة فتردف ما تقدم من القول بهذه العبارة «أويقات سجلت فى كتاب الحياة أتمنى رجوعها لحظة ويأسف لانقضائها قلبى ولكن فكرى ليس ليشتهيها لأننا فى عالم نشوء وارتقاء. ولئن اكتفى جزء من النفس مرة فهناك جزء آخر يبقى متعلقاً فى أطلال الماضى. تائقاً إلى المستقبل المجهول لا يعرف لذة الارتواء وسعادة الاكتفاء» وقد نجد (ميا) تتعدى مسائل الفلسفة العامة وما وراء المحسوس إلى النظر فى شئون النفس البشرية ومستغلقاتها ففى سياق حديث لها عن عودة الملك قسطنطين ملك اليونان والأسرة المالكة إلى وطنها على أثر وفاة ولده الملك اسكندر ونتيجة لهذه الوفاة نجد أديبتنا تثبت فى مقالها ما يلى: ألم يمر فى مخيلة (قسطنطين) خيال

---

(١) سوانح فتاة صحيفة ٧٥ مطبعة الهلال القاهرة ١٩٢٢

(٢) سوانح فتاة صحيفة ٦٩ مطبعه الهلال القاهرة ١٩٢٢

الموت وولده على فراش المرض ؟ ومن يدرى ؟ ألم يتحرك فى قرارة نفسه شيء يشبه الخوف أو التمنى ؟ لا لا أريد استطراد التحليل وسواء أ كان هذا الوهم ممكناً أو مستحيلا فى قلب والد أو والدة فإن النفس البشرية تبقى دواماً هى هى فى ارتباك انفعالاتها واشتباك نزعاتها . ولئن كانت العواطف الأبوية قوية فى الغالب فلكم ضحى من ولد لغاية شخصية ، أولأجل قريب بل لأجل غريب إذا أحسن ذلك الغريب لمس الموضع الحساس من حب الذات أو علل طمعاً من أطماع النفس أو مناها بإحدى رغائبها .

لمحة مرغبة فى قلب الإنسان . فلنحولن النظر إلى ما هو أقل ادلهما ما ، وقد نجد كاتبتنا فى ساعة من ساعات تشاؤمها وأحزانها تحوم حول فلسفة الموت والحياة فتقول (١) ألا إنما قيمة الحياة فى رهبة الموت الذى هو جزء منها ـ وإذا أدرنا البصر فى أحوال الناس ورأينا تلك الوجوه السقيمة والأجسام المشوهة والأعضاء البتراء ، ورأينا ذوى العاهات الأخلاقية الذين ينزلون فى المجتمع المصائب والأوصاب ويظلون عالة عليه طول حياتهم إذا رأينا ذلك أدركنا صورة الموت وعرفنا فيه محسناً كريماً .

ثم أى اسم غير اسمه يخفف من حزن الحزين ، وأى خيال غير خياله يلطف من يأس اليائس ؟

وقس على ما تقدم فقد تجد فى كل ما كتبت «مى» ما يشير إلى منازعها فى الفلسفة العامة وأمور النفس والآن فلا ُنتقل إلى فلسفتها الاجتماعية .

فلسفة «مى» ونظراتها الاجتماعية العامة :

يستطيع الباحث أن يتلقط النظرات الاجتماعية «لمى» من شتى مقالاتها ومحاضراتها ومختلف مادونت من الفصول لكن كتابها «المساواة» الذى بسطت فيه رأيها فى هذا المعنى ، وعالجت فيه أسباب التمايز ، هو المرجع الأول المعين

---

(١) سوانح فتاه صفحة ١٠٤ مطبعة الهلال القاهرة ١٩٤٦

لمن أراد أن يبحث فى فلسفة «مى» الاجتماعية وفى المسائل البارزة فى حياة المجتمع . ففى التمهيد لهذا الكتاب ترسم لنا الكاتبة صوراً لضروب شتى من التمايز بين الناس ، وتشير عندئذ إلى شكاية الشاكين وليس جميع هؤلاء ليسلمون بأن شكايتهم تعارض نظم الطبيعة بل هم يتسلحون بالحجة والبرهان مشيرين إلى الشمس تسكب النور والحرارة على الأشرار والصالحين . ويستشهدون بالهواء يسدى الحياة إلى الحيوان والإنسان ولا يكون على الجماد ضنيناً . ويدلون إلى الأرض تعشش فى حضنها المعادن وتكلأ المرعى لكل ذى نسمة يرتعى . ويومئون إلى منبسطات البحار تضم مختلف السمك والوحش المائى من كل فصيلة ، وحجم ولون . ويذكرون اللحد يحوى الموتى قاطبة على نمط واحد ليدفع بهم إلى الانحلال فريسة وإلى التحول مادة . فإذا أجزلت الطبيعة الهبات ودعت جميع بنيها إلى امتصاص ثديها المدرار فأنى للكبرياء أن تخلق التمايز والتفاضل ؛ وتجعل بين البشر فروقا وسدوداً فتشل عضواً لتقوى عضواً ، وتحرم قوماً لتمتع قوماً ؟

هم يتساءلون عما حلل هذا الجور المرهق ، ويصيحون بقوة انفعالاتهم واحتياجاتهم : المساواة ! إنما نطلب المساواة ! » (١)

إلى أن تقول : ومشكلة « المساواة » هى الآن أم المشاكل واسمها يطن من كل صوب . وإنها مع الحرية والإخاء لتهز نفسى ؛ وقد لمستها منذ أن كان لى نفس تتحرك . غير أنى وصلت إلى نقطة أود عندها تحليل كل شعور وكل تأثير : ما هى المساواة ، وأين هى ، وهل هى ممكنة ؟ هذا ما أرغب فى استجلائه فى الفصول الآتية دون اندفاع ولا تحيز ، بل بإخلاص من شكلت من جميع قواها النفسية والإدراكية محكمة «محلفين» يستعرضون خلاصة ماتقوله الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبتوا حكماً يرونه صادقاً عادلا (٢)

---

(١) أنظر كتاب المساواة بقلم مى : مكتبة الهلال . القاهرة صحيفة ٢ ، ٣

(٢) أنظر كتاب المساواة لمى صحيفة ٦

وقد يبين بحث «مى» فى المساواة أن الناس « لا يفقهون معناها تماماً ويزعمون أنها مشاركة الغنى بغناه ، والوجيه بوجاهته . والمنعم بنعمته . وحسبهم أنها تخفى عنهم شبح غد غدار لا يضمن لهم ولذويهم الغذاء. أو يرون فيها انفراجاً معتدلا لضيقهم » (١)

ولكى تصل الكاتبة إلى ما تقصد اليه من إدراك المساواة وتحليلها تحليلا علمياً وعادلا أخذت فى معالجة هذه الفصول الآتية : الطبقات الاجتماعية ، والارستقراطية ، والعبودية والرق ، والديمقراطية ، والاشتراكية السليمة ، والاشتراكية الثورية ، والفوضوية ، والعدمية وختمت الكتاب بحوار كان يضطرم بين أشخاص يتناقشون بمنزل والدى مى ، وهم السيدة جليلة معلمة «مى» فى الماضى ، وهى سيدة فطنة معتدلة الرأى ومى — تلميذة السيدة جليلة وكاتبة مقالات المساواة ، وبلانش وأنتوانت — فتاتان على أحدث طرز رفيقتا «مى» فى المدرسة تتكلمان الفرنسوية دواماً ، وعونى - نجل السيدة جليلة اشتراكى متحمس وذو قلب مخلص نبيل .

وعارف - أديب عرف الناس وتألم فأدت به المعرفة إلى شىء من الجمود ولكنه يخفى وراء مظاهر القسوة والتهكم طبيعة حارة صادقة خيرة والأستاذ سامى - عالم فيلسوف .

وسعيد بك — من الوجهاء ورئيس جمعية خيرية ، وزكى أفندى - من المتأدبين لا فكر له أوله فكر يحجبه اعتناق كل رأى عابر وامتداح جميع الناس على السواء .

وكتاب المساواة الذى نشير هنا اليه ظهر فى أسلوب «كان فى غاية السلاسة والسهولة والوضوح . فالفكرة عندها واضحة ظاهرة لا تتصيدها من وراء الغيوم أو من خلف الضباب ، والعبارة عندها سهلة لا تعقيد فيها ولا إبهام ، واللفظ عندها سائغ خلو الوقع على الآذان (٢)

(١) أنظر كتاب المساواة لمى ص ٥

(٢) أنظر حياة مى لمحمد عبد الغنى حسن . مطبعة المقتطف والمقطم القاهرة ١٩٤٢ ص٢٢

وفوق ذلك فإن العلم الغزير بالتاريخ وبمسائل الحياة الاجتماعية يلابس هذا الأسلوب الذى حق عليه وصف الأستاذ عبد الغنى ، وينطبق هذا الوصف على أكثر ما كتبت «مى» فى النواحى الاجتماعية والعلمية .

وفى الفصل الأول الذى خصصته أديبتنا لبحث الطبقات الاجتماعية نراها تستدرج قارئها إلى الغابر من السنين فتحدثه عن فلسفة الهند القديمة وكتبها المقدسة التى هى مستودع الحقيقة الخالدة عند أهل هذه الكتب والتى تقرر أن البشر ، وإن كانوا أبناء إله واحد ، ومن أصل واحد ، وعجنت أجسامهم من طينة واحدة ، هم فى الوقت نفسه أسرى للتنوع وبذلك فرض عليهم أن يكونوا طوائف . وتبدو فيهم صنوف الكفاآت ، مماشاة لحاجة قسمة العمل بين الأفراد والمجاميع ؛ ومسايرة لقضاء الاقدار بالتعدد والكثرة والتفرق .

وفى هذا الفصل تشير «مى» إلى دور تكوين الشعوب « بانتشارها قبائل يتقارب منها الجوار بتقارب الاصل ، ولكل قبيلة وسائلها الحيوية فى موارد موطنها الطبيعية التى هى بدورها ربت فى أعضاء القبيلة ذكاء ومهارة موافقين لاستخدامها فاصطنعوا لأنفسهم تلك الأدوات الفخارية . واخترعوا القوس والنشاب وآلات حرث الأرض وطريقة فلاحتها ، واكتشفوا النار ووسيلة أضرامها . وكانوا يشتركون فى استعمال هذه الأدوات والآلات لانها ملك الجميع الذى كان يعمل له كل فرد تحت مراقبة زعماء أكفاء ويضمن له مقابل تعبه السكن والقوت والكساء فى حالتها الأولى . فينجلى من هذا أن الاشتراكية سبقت كل نظام آخر فى حياة البشر . ومع أن هذه الاشتراكية مشوبة بخلل كثير إلا أنها حسنة بالنظر إلى زمنها ، ولانها أول خطوة فى عالم النظام والتدريب (١)

ومن عالم النظام والتدريب تدرج الناس إلى تقسيم الاعمال وتوزيعها ، وإلى ترويض مختلف المواهب والتفوق فى مختلف الميادين الحيوية من زراعية

---

(١) المساواة لمى ص ١٢

أو صناعية . ومن ثم يأتى التوسع فى الاستيلاء والغارات على الحدود ومن ثم ينتهى الأمر إلى انتخاب زعماء حربيين يهيئون أسباب الدفاع لرد غارات المغير . ومن ثم يرتفع هؤلاء الزعماء إلى درجات السيادة . ومن ثم ينشأ الرق من نتائج الحروب ومع ذلك كله تنساق الناس إلى الطمع فى التفوق والتعالى وسرعان ما يعتزون على عماد ذلك التفوق والتعالى فى تكوين الملكية وتقوية رؤوس الأموال وتنميتها بالاعتماد على المهارة والذكاء والامتياز . وكان ذلك الفصل الأول من تاريخ الاقتصاد البشرى الدائر كله حول ذلك المحور الرهيب الذى يدعى الملك(١) وهذا الملك سبب بدوره إلى العراك المالى الاجتماعى الطويل الذى ترتبت عليه حروب ومذاهب اجتماعية عديدة وفوارق فى الطبقات . وتقرر «مى» أن النوع البشرى وإن امتاز عن الطبيعة المحسوسة بطبيعته الإدراكية والإحساسية فهو يظل مربوطاً بها بجسمه واحتياجاته المادية ، خاضعاً لجميع نظمها وفى ميوله ميول وحشها : فهذا قرد ، وذاك ثعلب ، وذلك عقرب ، والآخر ثعبان . وأما التنوع بين الطبقات ، وبين الأفراد ، وبين مظـــاهر الطبيعة فأصلى ولولاه لما كانت الخليقة» (٢) .

ومما لا مفر منه أن الوجود يسير مرغماً فى تحرك موصول وإذن « لا بد من تنوع الصور ، وتعدد الطبقات ، فلولا التنوع والتعدد ، ما كانت المدنية ، ولا كان الوجود الحسى . ولو لم يكن للفروق من فضل سوى شحذ العزائم وإرهاف القوى ، والتسابق إلى الأولوية لكفى لنقبلها محاولين عبورها بما أوتينا من عزم وكفاءة ، والفوز للأصلح دواماً » (٣)

وفى الفصل الثانى من كتاب المساواة يأتى موضوع الأرستقراطية فتشير فيه الكاتبة إلى نشأة الأسر الملوكية ، وإلى ما بين أهل الملوكية وبين أهل

---

(١) أنظر ص ١٤ من كتاب المساواة لمى

(٢) أنظر ص ١٨ من كتاب المساواة لمى

(٣) أنظر ص ٢٠ من كتاب المساواة لمى

الدين من تضامن لتبادل المنفعة ، وتشير كذلك إلى ما كان للنظم الدستورية من فضل فى الحد من سلطة الملوك ولكن على رغم ذلك فإن فى الجماعات والأفراد من لا يزال يتهيب مظاهر الأبهة التى قد تمت إلى مظاهر الملوكية بسبب أو بأسباب . وتتدرج الكاتبة من ثم إلى التحدث والنظر فى الألقاب سواء أكان ذلك فى الشرق أو الغرب ، وتضرب الأمثال للتدليل وللإيضاح معتمدة على ما يثبته الواقع إلى أن تبين حاجة النظام الملكى إلى النظام الارستقراطى وإن أشارت إلى أن الارستقراطية قد تستطيع أن توجد وتنمو وحدها بدون أن تكون فى حاجة إلى الملوكية . وفى هذا البحث الطريف الذى يدل على استقلال فكرى ، واطلاع تاريخى واسع ، وانتفاع بدقة موفورة فى المشاهدة والواقعية ، تقرر «مى» أن « الارستقراطية ضرورية لمنفعة الأمة ، إنها ضرورية للاحتفاظ بصفات هى جزء من ثروة الأمة ، لأن لكل طبقة قوة حيوية أئتمنت عليها» (١)

وتتدرج الكاتبة فى تعزيز قيمة الارستقراطية مع اعترافها أيضاً بما يصح أن يكون للهبات الإلهية والافضال الربانية من أثر ظاهر فى من لاصلة لهم بالارستقراطية . وفى غضون تأييد الكاتبة لنظم الارستقراطية نقرأ لها ما يلى « أظن أن ذكر نظام الطبيعة ، بعد هذه المرافعة الطويلة فى تأييد الارستقراطية يشفع بى لدى السادة الديمقراطيين ويفرج من عبوسهم فى النظر إلى . لا أقول أن الإشراف أو التفاضل ضرورى فى الطبيعة فحسب ، بل أقول أنه من الطبيعة ولا يمكن حذفه لأنه ، كالانخفاض ، جزء من أجزاء الوجود . لاشه نلاش ضده ، وبملاشاة الضدين يمحى كل شىء . . . والذين يطلبون المساواة مستشهدين بالشمس تسكب نورها على الصالحين والطالحين ، وبالماء تسبح فيه جميع الأسماك على الإطلاق ينسون أن الأسماك من طبيعتها التنوع حجما وصفة .

---

(١) أنظر ص ٣٢ من كتاب المساواة لمى

. . . . وينسون أن العبرة ليست بالنور الذى ترسله الشمس بل بالغاية المتنافرة التى يرمى إليها هذا وذاك ، وبكيفية الاستفادة من النور والظلام لبلوغها . فكما أن سطح الأرض ينبسط هنا مروجاً وسهولا ، ويهبط هنا منحدرات ويتشامخ هنالك جبالا وقمماً ، كذلك للطبيعة البشرية سهول وأودية وقمم (١) ،

وحين تتجه «مى» إلى تأييد الارستقراطية أو بعبارة أخرى إلى تعزيز النزعة الكابرية ومعناها فى نفس الإنسان فإنها لا تنظر إلى ذلك المعنى من زاوية جزئية ضيقة بل تتجه إليه من وجه كلى فسيح ، وهو أن الارستقراطية التى احتكرها ذوو الألقاب لبيئتهم ليست إلا جزءاً من الارستقراطية التامة المتشكلة من ارستقراطية الفضل (وهى التى يعنيها أرسطو وشيشرون) وارسقراطية الحسب ، وارستقراطية العقار ، وارستقراطية المال وارستقراطية النبوغ» (٢)

وخلاصة القول عند الكاتبة فى الفصل الغنى الدقيق الذى كتبته فى الارستقراطية أن ظاهرة الارستقراطية ستظل فى أية صورة من صورها ما ظلت الطبيعة ، وأن التفوق سيبقى مابقى البشر .

ثم تحدثنا «مى» فى الفصل الثالث من كتاب المساواة عن العبودية والرق وهى وفقاً لعادتها كأديبة مفكرة تتقدم لبحث موضوعها المحدد بنظرة إلى منهج الطبيعة فى تنظيمها للأمور ، حين تضع النقيض بجوار ما يناقضه ، فتجعل الأكمة قريبة من البحر الزاخر ، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار ، وعلى ذلك تكون الحياة غنية بالمال والذكاء والكرم والصلاح والحب والجمال والفخار . وعلى أن فى كفتها الأخرى ما يعادل الأولى من شقاء وفقر وخمول وقبح وكره وانحطاط كأنها مرغمة على حفظ النظام فى توازنها ، إذا هى أسرفت فى نقطة تعقبت الإسراف

(١) أنظر ص ٣٧ من كتاب المساواة السابق الذكر
(٢) أنظر ص ٣٨ من كتاب المساواة لمى

بالاقتصاد فى ما يحاذيها . فحيث يمتد الرخا تنتشر التعاسة » (١)

وبعد ذلك التمهيد تنتقل إلى كتاب مانو الذى يحتوى على شرح مذهب البراهمة وتاريخ مدنية الآريين منذ نشأتها فتذكر ما قيل فيه عن أصل العبودية ثم تشير إلى ما ذهب اليه سبنسر فى ذلك الموضوع ثم تربط بين ذلك وبين موضوع تقسيم الأعمال وتوزيعها بين الناس وما كان يناط بالعبيد من أعمال فى مختلف البلاد الشرقية قديماً ؛ وما كان لليهود من حقوق وواجبات فى العبودية حين كان يمتلك بعضهم البعض الآخر ، وحين اتصلت بتاريخهم قيود للعبودية والرق . ثم تتحدث عن تواريخ العبودية عند الفينيقيين واليونان ، وأهل أسبرطة وعند الرومانيين ، إلى أن حل دور التحرير بتأثير الفلاسفة فأخذ العبيد فى تعاطى أنواع التجارة ويسرت لهم المناصب السياسية ثم تنتقل إلى مطلع القرون الوسطى وكيف تكيفت العبودية حينئذ تكيفاً خاصاً فشاع الرق الذى لا زم الإقطاع فى أنحاء أوروبا . ثم كان لثورة الارقاء والشعوب أثر واضح فى إلغاء ضروب العبودية وفى تدعيم قواعد التحرير إلى أن قضت الثورة الفرنسية على الإسترقاق الذى ظل يتلاشى فى مختلف البلاد والدول على أنه قبل أن يتلاشى بتأثير التقدم وبجهاد من الدول والحكومات التى جاهدت فى سبيل إلغائه كانجلترا وأمريكا فإن الأديان السماوية لم تقف مغلولة الأيدى دون تخفيف قسوة العبودية فالمسيحية رأفت بالخاملين والمساكين وأدخلت الجميع فى بنوة الله وقربتهم من غفرانه . والإســـلام أوصى باليتيم والضعيف والرقيق وهيأ له ضرباً من العزة والكرامة الآدمية وحض على الأعتاق حضاً كريماً .

على أن الكاتبة ، التى رسمت فى هذا الفصل من كتابها خريطة تخطيطية متقنة لتاريخ العبودية ، ترى أن هذه العبودية ما زالت تلاحق الإنسانية والمدنية وتتغلغل فيها ولكن على صور أخرى فترى استعباداً من طرق الفقر والعوز ومن طرق الضعف العلمى والخلقى والاقتصادى ومن طرق الاطماع

---

(١) انظر ص ٤٣ من كتاب المساواة السابق الذكر

الاستعمارية ، ومن طرق التقاليد السخيفة وما إلى ذلك مما يدعوها إلى أن تقرر بأن العبودية ما زالت دائمة وإن تغيرت صورها وللناس أن يقولوا « السلاسل والقيود أقل رموز العبودية هولا . القيود فى دمائنا وأهلنا وأوطاننا . القيود فى رغباتنا وحاجاتنا . القيود فى بشريتنا ... وإذا محيت من العبودية صورة رسمت أخرى لأن أصل العبودية باق على كر الدهور نحن العبودية الدائمة . نحن أودية الحياة المجوفة عند أقدام الرواسى .. ومن عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض . . . ما أقامت ارتفـــاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً . » (١)

ثم تنتقل الـكاتبة إلى الفصل الرابع من كتابها وتحلل فيه معنى الديمقراطية وتقرر فى مستهل هذا الفصل مظهر المصارعة المطردة بين كل العناصر الـكونية وأن الإنسان نظراً لتميزه بالغريزة الاجتماعية والعقل فإنه يطبع مصارعيه بما تميز به من نزعة تفـكيرية واجتماعية . ولم يهتد زعماء الاصلاح الاجتماعى فى النوع البشرى إلى أنظمة سياسية غير التى ذكرها أرسطو وهى الملـكية أوحكومة الفرد ، والأرستقراطية أوحكومة الأماثل ، والديمقراطية أو حـكومة الشعب . وتقرر الـكاتبة أن أكثر المدنيات ترعرع ونما وتوارى كذلك فى ظل الملـكيات ، وتفرض مختلف الفروض فى تعليل ذلك ، وتستشهد بما يسجل التاريخ من مدنية مصر والحضارة الـكلدانية والأشورية وتاريخ اليهود فى عهد داود وسليمان ، وما أحدثه الفينيقيون من صناعة وتجارة ، وما كان للفرس من توفيق عند اقتباس مختلف الحضارات وصبها ومزجها فى قالبهم وطابعهم ، وما كان فى الشرق الأقصى من اختراعات وابتـكارات ، إلى أن تلألأ نور الـكرامة الإنسانية فى اليونان وأشرق فيها فجر الديمقراطية التى هيأت للأفراد أن يعرفوا حقوقهم وواجباتهم إلى أن أضاء هذا النور ظلمات القرون الوسطى ، وظهر فى العصور الحديثة ليبدى للفرد كرامته وأهليته . وقويت الآراء القائلة بالمساواة بفضل رجال الثورة

(١) أنظر ص ٦٤ من كتاب المساواة بقلم «ى»

الفرنسية وفلاسفتها ، إلى أن امتدت جذوة هذه الثورة وتناولت نيرانها نواحى الأرض حتى لم يبق فى أنحاء العالم ملكية مطلقة ، إلا القليل المستضعف. وساد مطلب الديمقراطية التى هى حكم الشعب بالشعب ، وأصبح أشد المحركات لهذا المطلب ، وأقوى البواعث له فى العصر الحديث يبدو فى وفرة الاختراعات الآلية والاكتشافات العلمية ، وتعميم المعرفة وسهولة التعليم المقرب بين مختلف الطبقات . وأخذت الديمقراطية المنتصرة تقيم دعوتها على دعامتين أساسيتين أولاهما أكثرية العدد التى يستمد منها القانون قوته ، وثانيتهما تقريب الفروق الاجتماعية . على أن الكاتبة بعد أن تبصر القارىء بتغلغل خطوات المعنى الديمقراطى ، وبمميزاته فى مختلف العصور ، تعود لتسائل نفسها عما إذا كان الفرد الذى هو محور الديمقراطية قد حصل على السعادة المنشودة ، وهل تأتى لمجموعة الناس ما يطلبونه من الهناء حقاً فى ظل نزعاتهم الديمقراطية التى تقرر أن الفرد للمجموع وأن المجموع للفرد ؟ وعند هذا السؤال تقول «مى» يخيل الينا أن أقرب الأمم إلى الديمقراطية هى الأمة الأمريكية لقلة ما وراءها من التقاليد فهل حالت المساواة دون ما يقابل بين البيض السود من ازدراء واحتقار؟ هل حالت الحرية والمساواة دون هدر الدماء والتشنيع والتفاضل . إن تلك القدر الهائلة التى تغلى فيها جميع عناصر الدنيا ما زال يؤبه فيه لفروق الجنسية والثروة والذكاء والعلم والتربية . ما زال يؤبه لتلك الفروق بالفعل ، وإن لغيت بالقول بل ما زالت الانتقادات تملأ صحفهم ، وتعدد الأحزاب يقسم مجالسهم ، وقرب ثروتهم القارونية ، نرى العوز الأقصى والحرمان الوجيع » (١) واستشهاداً يمثل ذلك فى الواقع تقول الكاتبة « أين المساواة التى تدعون »

وبعد ما تقدم من الفصول الملخصة تلخيصاً دقيقاً والممحصة تمحيصاً يقوم على سعة فى العلم ودقة فى الفهم تطالعنا « مى » بفصول تحلل فيها وتستعرض مذاهب الاشتراكية السلمية ، والاشتراكية الثورية ،

(١) أنظر ص ٩٠ من كتاب المساواة لمى

والفوضية ، والعدمية ، ثم تضيف فى النهاية فصلا يقوم على المناقشة والحوار بين عدة أشخاص فى منزل « مى » التى كان لها فى هذا النقاش نصيب وتتمثل فى هؤلاء الأشخاص صفات من العلم ، والفلسفة ، والعظة ، والاعتدال فى الرأى ، ونزعات من الاشتراكية ، والأدب والخير ، والافتتان بمظاهر الحياة المدنية الحديثة ، وما إلى ذلك مما يظهر صورة من الحياة فى نفوس الناس على اختلاف مشاربهم . وتختم الكتاب برسالة إلى الكاتبة من أحد أفراد هذه المجموعة التى تنتشر فى نقاشها مختلف النزعات والآراء ، وتلوح فى دائرة حوارها مختلف الأفكار .

أما ما ذكرته عن مختلف المذاهب الاجتماعية المتقدمة الذكر فقد كانت « مى » على عادتها تبسط الآراء فيها بسطاً تاريخياً مركزاً واضحاً بريئاً من التحيز فتربط بين فلسفة « هجل » الألمانى وبين مذاهب الاشتراكيين ، وتأخذ فى شرح المادية الاشتراكية التى أقام عليها « ماركس » مؤسسها مذهبه ، وتبين ما ذهب اليه واضع المذهب فى صلة الحياة المادية والاقتصادية بمسلك الإنسان ومعنوياته وكيف يرجع الرقى المعنوى إلى الأصول المادية ، وكيف كان « ماركس » يأمل فى غلبة الاشتراكية فى المستقبل على الأنظمة الأخرى . وتتحدث الكاتبة عن الوسائل التى يمكن أن تسود بها الاشتراكية ، وتشير إلى تاريخها العام فى الغرب ، كما تشير إلى مختلف المحاولات لإدخالها فى مصر ، وإلى ما يذكر من علاقة النزعات اليهودية بتمويل الاشتراكية والعمل على تسويدها سواء كانت هذه الاشتراكية سلمية أو ثورية وتنتهى « مى » من بحثها الخصب فى موضوع الاشتراكية إلى إنكار كل محاولة للقول بالمساواة وتقول فى ذلك « أنرى المساواة فى سبك العسجد والطين فى قالب واحد ؟ وهل الإنصاف فى تجريد الغنى ليعطى المعدم ؟ وهل الحرية فى توحيد العقل الكبير والقلب النبيل مع الفكر السخيف والنفس الزحافة » (١) وإذا كانت « مى » لا تتبرم بالاشتراكية حينما تتخذ باعتدال لتحسين أمور الناس بتعاونهم وتشاركهم

(١) أنظر ص ١١٩ من كتاب المساواة لمى

فى حسن الإنتاج والتوزيع فإنها تقاوم كل نزعة يزعم فيها الزاعمون بإمكان التحقق لمذهب المساواة وعندها « أن الغد للاشتراكية بلا ريب . ولكنها ستغلب على أمرها بعد أن تنيل الاجتماع ماتستطيع أن تأتى به من التعديل . الغد للاشتراكية ولكنها لن تكون أوفى من الديمقراطية فى تتميم وعودها . الغد للاشتراكية ولكن من بين الطبقات المتساوية بالمساواة الجديدة ستنهض فئة فتعلو وتطفو على الطبقات الأخرى ، طبقة أرستقراطية المستقبل التى ستخلقها الكفاءة الشخصية وتقسيم العمل المحتم اليوم ، والأمس ، وفى الغد . الغد للاشتراكية ولكن الفردية ستظل منتصبة قربها على الدوام . الغد للاشتراكية ولكن ما بعد الغد لنظام آخر سوف ينبثق من قلب الاشتراكية التى هى مذهب إنسانى فهى بذلك خاضعة لطبيعة الانسان تملأها الحسنات والسيئات ويستحيل فيها الكمال - إلا إذا بقى لها ذلك الكمال مثلا أعلا تتبعه ويظل هارباً أمامها إلى منتهى الدهور » (٢)

ثم كتبت «مى» فصلا عن الفوضية وعما يلازمها من الاتجاه لتقويض الملكية الفردية وباتخاذ كل الأسباب الوحشية لذلك التقويض ، وباستخدام كل الوسائل لاستقلال الفرد استقلالا يتلاشى المجموع حياله ، وبإلغاء كل قانون على الاطلاق ، أخلاقياً كان ، أم اجتماعياً ، أم سياسياً وتنتهى من بحثها فى تاريخ النزعة الفوضية فى مختلف الجماعات فى الشرق وفى الغرب قديماً وحديثاً ومقارنتها بغيرها من المذاهب وأقوال العلماء النفسيين فيها وما يتصل بها من أمراض نفسية إلى أن تقول « إن الفوضية مذهب محزن مروع ، وهو على حداثة نشأته ذو تاريخ مضرج بالدماء » (١)

ثم تتكلم «مى» عن العدمية فى الفصل الثامن والعدمية كما تقول إسم قديم كان وما زال يطلق على المذاهب الفلسفية القائلة بأن لا شىء موجود ولاشىء يمكن أن يعلم وتتحدث عن تاريخ هذا المذهب ونشأته وأطواره وما فيه من

(١) أنظر كتاب المساواة إلى ص ١٣٩
(٢) أنظر ص ١٢٣ من كتاب المساواة لمى

المغالاة الشديدة فى إثبات الفردية وإنكار الشرائع والقيود ، وما فيه كذلك من مقاومة للماضى ولما يتخلف عنه من اصطلاحات وتقاليد قد تعطل نمو التقدم ، وما قد يجود به التطور من الرقى ، فيصاب المجتمع بأمراض من وراء هذا الجمود والتعطل وينتصر القديم على الحديث ، وتفوز النزعات الجماعية على النزعات الفردية ، وعلى حريات الممتازين القادرين على الإصلاح ولهذا يستوجب القائلون بمذهب العدمية إطلاق العنان للحريات إطلاقا لا حد له . لأن الحرية ضرورية لكل رقى وعلى كل فرد أن ينشد حريته وينهض بما توحيه إليه بمزيد النشاط ، وليكن بعد ذلك ما يكون وما يقدر القدر لنتائج حريته وأعماله حين تختلط كلها بمجاميع الحريات والأعمال فى المجتمع . وتسترسل «مى» فى شرح نظرية «لفروف» الروسى فى العدمية وما فيها من نواحى الحض لصالح مجتمع المال وما فيها من خطل ، وما فيها من اتصال وانسجام مع ما قاسى شعب روسيا من عنت ، وما يطمح إليه من صلاح ، وما فيها من ثورات ومقاومات للضغط الحكومى مسايرة لتأثيرات « باكونين » وأمثاله ممن أعدوا روسيا لثورتها وانقلابها « الذى لم تستجل منه بعد العوامل الكثيرة المشتبكة » كما تقول الكاتبة . وتتحدث « مى » فى مقالها فى العدمية عما فى الطبيعة ، بوجه عام ، من التناقض وعما فى جبلة الانسان من نزعات تختلف يمضى فيها كل حسبما يقدر له ويسير فى سبيله ويسر له تيسيرا . وعند «مى» أن الأساس فى نزعات الإنسان هى الأنانية التى لم تلطفها التعاليم الدينية والتهذيبية إلا فى قشورها دون اللباب . وتنهى مقالها بتقرير السيطرة لوهمين كبيرين على الوجود ، أولهما أن الإنسان يحسب نفسه حراً فى حين أنه عبد ، وثانيهما اعتقاد الإنسان بأن الخير فى فطرة البشر فى حين أن الفطرة بنيت على النقيض . وتنهى «مى» كتاب المساواة بذلك الحوار الذى أشرت اليه سابقاً والذى تحتدم فيه المناقشات والآراء والنزعات المتناقضة ، وتدخل الكاتبة نفسها فى الحوار لتقرر أنها فشلت فى معالجة بحثها فى المساواة برغم إخلاصها فى تمحيص هذا الموضوع (١)

(١) أنظر ص ١٦٥ من كتاب المساواة

« إنى بتوغلى فى البحث ، تحدونى أبداً تلك الرغبة الحارة ، كنت أزداد شعوراً بأن ما أتلمسه من الخطوط الرئيسية والعلمية والاجتماعية لن يوصلنى إلى شىء سوى تلقى رسائل التعنيف والتقريع من حضرات القراء الذين يريد كل منهم أن أذهب مذهبه وآخذ برأيه . حسبتنى مقبلة على موضوع لى أن أعالجه على ما أريد فإذا بالموضوع يعالجنى قاذفا بى من تيار إلى تيار ، ومن حيرة إلى حيرة ، ومن لجة إلى لجة . وهاأنذا أردد سؤالا ألقيته على نفسى مراراً خلال هذا البحث : أين أنا الآن ؟ أين أنا ؟ »(١)

والكاتبة المكينة البليغة حين تسمع المناقشات المختلفة ممن يريد الاشتراكية ويزعم تحقيق المساواة ، وحين تسمعها ممن يقول باستحالتها ولا يرى فى الوجود إلا التفاوت ، وطرق المباراة ، والتفوق التى كانت وستظل دواماً الحاث الأعظم ، وحين تسمعها من محاور يذهب إلى أن ضلال الناس فى هذه الدنيا إنما هو فى توهمهم إدراك السعادة فى حين أن طبيعة الدنيا والحياة تدعوها لتغيير النظم وتبديلها ، وأنه كما تدور الأحقاب تدور الأنظمة والبقاء للذى لا يموت ولا يتغير ، أقول أن « ميا » حين تسمع مثل هذا الحوار والنقاش فى مجموعة من ذوى الآراء والنزعات المختلفة وتشرك نفسها فى غماره ، تخلو بنفسها لتقول « هاأنذا وحدى أيها الليل فعلمنى ما يجب أن اعلم . هاأنذا مستعدة أيتها الحياة ، فسيرينى حيث يجب أن أسير(٢) » .

وبهذا الصوت الوديع الهادىء المشرق تبدو « مى » وفى علمها الواسع وتفكيرها الفلسفى ، شاكة حائرة أمام أسرار الوجود وعند صوت الحياة التى كلما توغل الباحث فى شئونها مستقصياً ومتعمقاً يرى أمامه الفسيح من المجهولات . ويزداد تيهاً فى بيداء المستورات ، ولا يستطيع أن يقول خيراً مما يقوله باحث مخلص مكين : سبحانك ربى زدنى علماً .

وتلك الكاتبة المفكرة التى تبحث فى معنى المساواة وتضع لنا فيها رسالة

(١) أنظر ص ١٦٤ و ١٦٥ من كتاب المساواة .
(٢) « « ٢٠٦ « « «

قيمة يتجلى فيها الأدب والعلم ، وسعة العرفان ، والتبحر فى التاريخ والاجتماع تعود من جولتها النشيطة اليقظة ، ومن ميدان بحثها الممتع المشبع لتشعرنا أنها مؤمنة بأن الغلبة النهائية إنما تكون للخير والجمال والأصلح برغم ماتراه فى الحياة من الجوانب المتناقضة إذ يكون بجانب الصلاح طلاح ، وبجانب الحسن قبح ، وبجانب الصحة سقم . وأنها برغم ما تراه من ذلك تستوجب العمل والجد والدعوة لتغيير كثير من الأنظمة والعادات لأن التطور نزعة والتغيير والتبديل سنة من سنن الوجود .

وكأن « ميا » تود أن تترجم عما تجيش به نفسها فى مثل تلك الكلمات التى جاءت على لسان أحد المتناقشين فى منتداها حين يقول(١) « أن الأرض لترتج تحت أقدامنا والهواء يحمل إلينا ما قد يكون لهيباً ودخاناً لحريق سحيق فالنظم الاجتماعية تتطور ككل شىء حيوى — كما قلت فى مقالاتك — وكما هو الواقع فلتنظر إذن ما هو كائن لأنى أرى الإنسانية الآن كالأفعى تغير ثوبها ، أراها كالجو يتعاقب فيه السكون والزوابع ، الصفاء والغيوم ، النجوم والأمطار . كفانا أن نرقب سير الحوادث متكلين على نفوسنا ، محدقين فى وجه الحياة بلا وجل ، مستعدين لتبين الصلاح والحقيقة . ونحن أبداً كالأرض أمنا التى تقبل البذور الصالحة ثم ترسلها غلة وخيرا ، وإذا هوت عليها الأشجار اليابسة تجمدت فى حضنها مادة للنار واللهيب . ولنكن أبدا مطلقين هذا الهتاف الجامع بين الإخلاص والحيرة ، بين الزفير والابتهال « هاأنذا وحدى أيها الليل ، فعلمنى مايجب أن أعلم . هاأنذا مستعد ، أيتها الحياة ، فسيرينى حيث يجب أن أسير » .

ومهما يكن فيما قدمت من تلخيص لكتاب المساواة فإنه يبين للباحث بعض المعالم الرئيسية لفلسفة مى الاجتماعية وبعض نظراتها فى أمور الحياة وعلى من يريد المزيد أن يتلمس ذلك من مجموعة مقالاتها وكتبها التى تناولت

---

(١) أنظر ص ٢٠٥ و ٢٠٦ من كتاب المساواة .

ضروباً من التأملات والفكر وأشتاتا من الشئون التى تشغل الناس فى أمور العيش .

وحسبى من هذه النظرة العاجلة أن تبدو « مى » للقارىء فى صورة الفيلسوفة التى تخشع لأسرار الوجود لكى تقول (١) « أين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما فى الحياة من الغوامض ؟ وأنتم أيها الموتى أطياراً كنتم أم بشرا ألا تنطقون مرة واحدة لكى تفضوا إلينا بما طوى من الأسرار وراء حجب الردى ؟ ألا تهمسون فى نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلى السرمدى الكامن فى ضمير الوجود ؟ »

على أن « ميا » الفيلسوفة الحساسة الخاشعة لأسرار الوجود تقدر قوة العلم ونور العرفان تقديراً كبيراً كما تقدر توزيع الأعمال والميول والاختصاصات وتنويعها فى سبيل الرقى العام .

ولها أشتات بليغة من القول فى هذا الصدد يجدها القارىء منثورة فى مختلف فصولها ومقالاتها ويحدو بها ذلك إلى الاستبشار والتفاؤل فى تقدم البشرية ورقى الشرق ومع ذلك فان لمى نزعات تصوفية تعترف بحكم الأقدار وتصاريفها ، وبمنح المواهب ، وبحكمة التوجيهات الإلهية ولولا خشية التطويل لأثبتنا لها الكثير من النصوص الدالة .

فلسفة مى الفنية ، والانسانية والسياسية ؛ فى مسألة المرأة :

من المناسب بعد ذكر حديثى عن نظرات «مى» وفلسفتها الاجتماعية أن أشير إلى شىء من فلسفتها الفنية والسياسية ونظرتها للمرأة . أما فلسفتها الفنية فتبدو عندما تعالج موضوعات الموسيقى والأدب والشعر والتصوير وحسبى أن أقتبس من أحاديثها فى ذلك قولها (٢) « قالت صحف الأمس أن إدارة هذا المعهد (معهد الموسيقى) ضمت إلى أعضائها حضرة الأب كولا نجت وغيره من الملمين بهذا الفن إلماماً نظرياً أو عملياً . وذلك عين الصواب إذ لا شىء

(١) أنظر ظلمات واسعة . دار بيروت للنشر سنة ١٩٥٢ ص ٣٣

(٢) أنظر بين الجزر والمد بقلم مى مطبعة الهلال. مصر سنة ١٩٢٤ ص ١٢١ و١٢٢

يفيد موسـيقانا والولوعين بدرسها مثل احتكاكهم بالموسيقى الغربية والاطلاع على أفكار فنانى الأفرنج وأسلوب تمرينهم العقلى واليدوى والاقتباس عنهم .

يعيرنا الغربيون أن ليس فى الموسيقى الشرقية أفكار ولا وصف ولا تصوير ولا تصور ، ولا أوبرا . سبحان الله ! وما حاجتنا . أترى ، نحن ذوى الأعصاب الطروبة الذين يشجينا شدو القصب ، وتنهد النهر ، ونوح الحمام ، ما حاجتنا إلى اشتباك الألحان وضوضائها ؟ نحن نتمنى لموسيقانا أن تظل شرقية محضة ، تعبر بأنغامها العميقة الحزينة عن خفايا القلب الشرقى وحنينه ولوعته ، وتلمس نفوسنا بترجيعها البسيط فتهتدى فيها إلى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخينة .

أن الموسيقى الغربية رغم كونها «علمية» فى طورها الحاضر تحدث مختلف التأثيرات على شرط أن يكون السامع عليما بها أو فاهماً ببداهته أنغامها . وإلا كانت جلبة وضجيجاً لا يناله منهما غير الصداع الأليم .

على أن أكثر الشرقيين يفهمون موسيقى بلادهم بلا درس ولا استعداد لأن مقاطع ألحانها ساذجة متشابهة . باستثناء المتفرنجين الذين يدعون أن الموسيقى العربية لا معنى لها .

وسبب هذا الحكم فى الغالب هو تمكنهم من التوقيع — سواء كان ما يوقعون من جيد الموسيقى الأفرنجية أم من رديئها — على البيانو . مع أن تقدير الموسيقى الغربية لا يؤدى إلى إنكار الشرقية . وأصدق برهان على ذلك أن جماعة من كبار الموسيقيين الافرنج حاولوا اقتباس الألحان الشرقية وإدخال شىء منها فى ما يؤلفون . منهم «كميل سان سانس» الذى ألف لحناً ممزوجاً من جملة ألحان مصرية باسم « تذكارات الاسماعيلية » فضلا عن قطعه الفارسية الكثيرة » .

وحين تسترسل «مى» فى حديثها عن الفن الموسيقى يتبين لقارىء هذا

الحديث أو سامعه أن الكاتبة المفكرة تحرص الحرص كله على أن تستبقى ما فى الموسيقى الشرقيه من خير وجمال ، وأن تصل بين ذلك وبين محاسن الفن الغربى الموسيقى. والكاتبة الكبيرة نراها دائماً ذات نزعات موفقة بين الحسن من خصائص الشعوب ومميزات الأجناس والأجيال لتستفيد الإنسانية بما فى مختلف الشعوب من مزايا وهبات وخصائص .

وموقف «مى» من اللغة والأدب والشعر العربى والتصوير ومختلف الفنون الجميلة هو نفس موقفها من الفن الموسيقى ، موقف من يقتبس الطيب حيث يجد . إنها ترى «أن اللغة العربية الآن فى بدء نهضة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الناطقين بها . ومن أهم دلائل هذه النهضة سيرها الحثيث . وهى تتناول شتيت المسائل بلغة جلية تطرح التطويل والتعقيد يوماً فيوماً دون أن تفقد شيئاً من متانتها وروحها» (١) . تريد «مى» أن توفق بين متانة اللغة العربية وروحها وبين تخلصها من التطويل والتعقيد يوماً فيوماً تمشياً مع حاجة العصر ونزعاته فى السرعة والايجاز وما جادبه من مخترعات وأحاسيس ومبتكرات وصور. والكاتبة قد تعزز نزعاتها فى نهضة اللغة العربية وقابليتها لما يجود به الزمن الحديث من أساليب التحسين بأقوال للعقاد جاءت فيما دونه فى صحيفة البلاغ فى موضوع «القديم والجديد» حين يقول « أننا فى عصر لم تسعد اللغة العربية بعصر أسعد منه فى دولة من دولها الغابرة» «عصر ناهذا هو أقوم العصور وأحقها بالتوقير والتبجيل لأنه وعى من الأزمنة التى درجت قباله مالم تعه الأزمنة الماضية، وبلغت أممه من تجارب الحياة مالم تبلغه الأمم الخالية».. وكاتبتنا الكبيرة التى تذهب إلى التوفيق بين الاحتفاظ فى اللغة وبين الاقتباس تذهب كذلك إلى نفس هذا المذهب فى الأدب. وقد تعزز هذا النزوع بما يقول العقاد أيضاً فى مقدمته لديوان المازنى « لقد تبوأ منابر الأدب فتية لاعهد لهم بالجيل الماضى ونقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم . فهم يشعرون شعور الشرقى ويتمثلون العالم كما يتمثله الغربى »

(١) أنظر بين الجزر والمد ص ١٥٥ ١٥٦

والقارىء الممعن فيما كتبت «مى» يجد الرغبة عندها ملحة فى التوفيق بين الجيد من كل أمر من أمور البشرية فى ماضيها أو حاضرها ، وأنها تجد فى تموج الحضارة وتنقلاتها أساساً لنزعاتها وفلسفتها الانسانية . فتقول (١) « إن الحضارة العالمية الكبرى تنقل من شعب إلى شعب خلال الدهور بحركة متموجة تعلو موجاتها فى أمة فتتجلى مواهب تلك الأمة وتأتى بأقصى ما فى إمكانها . ثم تهبط الموجة لتكون من جديد عند شعب آخر بيننا ، يتأثر بارتفاعها سائر الشعوب بدرجات متفاوتة » وقد تنساق الكاتبة فى الحديث أيضاً لإثبات نزعاتها فى وحدة الحضارة والنزعة الانسانية فتقول(٢) : « لم تقم إلى الآن فى الشرق والغرب والشمال والجنوب سوى مدنية واحدة تعاونت الشعوب ، على غير اتفاق ، أن تتناوب العمل كل فى جانب من جوانبها الموافق طبعها فجاء الساميون بالعنصر اللدنى والنبوى . وجاء الأريون (الهنود والفرس) بالفلسفة الباطنية والإلهيات . وجاء اليونان بالفن والفلسفة النظرية . والرومان بالنظام والتشريع والتجنيد والاستعمار . ولما تحضر العرب فعلوا ما فعلته كل من هذه الدول قبلهم ، أى أنهم جمعوا شتيت ما وجدوا من عناصر المدنية ، وسبكوها فى قالبهم وطبعوها بطابعهم فكانوا وصلة أمينة قيمة بين الماضى والحاضر .

ولما حان الوقت نقلوا قبس الرقى إلى الغرب فأحسن الغرب تلقى هذه المدنية العظيمة التى تجمعت فيها جهود الدهور . فأنماها من وجهها العلمى والآلى المتفق تمام الاتفاق مع السليقة الغربية وسار بها شوطا بعيداً . ولا يعنى هذا أن الشرق ليس له مثل ذلك الاستعداد . إن أساس الهندسة ، وحفر الخنادق ووضع مبادىء العلوم الفلكية والرياضيه ، جاء من أشور وبابل . كما كان الفينيقيون أول المستعمرين وأول من سلك البحار . وكما كان المصريون أول شعب وضع الأنظمة ونسق الإدارة » .

---

(١) أنظر بين الجزر والمد ص ١٦٨ و ١٦٩

(٢) « « « « ص ١٧٢ و ١٧٣

وإن النزعة الإنسانية ، التى تهيء أديبتنا لتقدير مختلف الأجناس والشعوب ، وتوزيع بعض عواطفها من المحبة بين مختلف الأجيال والبقاع لما تجده عندها من مستطاب ومرغوب فيه ، لم تضعف منها شرقيتها القوية المستعرة ، ولم تميع قوميتها ، ولم تؤثر فى وطنيتها بشيء من الرخاوة أو الهزال . فلقد ظلت «مى» طول حياتها شرقية وعربية وتهتم بمواطنها فى مصر وفى ديار الشام وإن شرقيتها المتيقظة قد تترجم بما يلى (١) .

«أيها الشرق . . الكبير ، ياشرقى الرهيب الرؤوف . . يا شرق الطرب والحميا والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم ... ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة ... ورغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية . . أى قوة هذه التى تشد وثاقى إليك ، لماذا أهوى من لغتك الشدو الشجى النواح والنبرة السريعة الحادة ، والهتاف الأبى الحار ؟ ماذا تلمس فى هـــذه اللغة العربية التى تنثرها شعوبك فى مجاهل القفار ، وعلى الجبال والهضاب ، وعلى سواحلك وأنهارك وجداولك ووراء القطعان فى مروجك ، وقرب أنين نواعيرك . . أية وديعة لها عندى حتى تثير لهجاتها فى البكاء الحنون كبكاء اللقاء بعد فراق طويل . طويتك الواسعة الخفية تستهوينى أيها الشرق وتأسرنى أنا الذرة الصـــغيرة بين ملايين الملايين من ذراتك ... ألا نظرة إلى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء العسجد واللجين والارجوان ! إنها الجو الوحيد الذى أظل الرسل وما رضيت النبوات أن تنزل فى غير هوائه ، إنك أيها الشرق اصطفيت لتكون أرض الأبطال ومنشأ الجبابرة » .

والكاتبة تقول على نحو تقدم فى تمجيد العروبة وفى تمجيد وطنها مصر والشام وتحيته (٢).

---

(١) انظر كتاب بين الجزر والمد بقلم «مى» مطبعة الهلال سنة ١٩٢٤ ص ٦ و ٧ و ٨ من مقالة اليقظة

(٢) انظر بين الجزر والمد نفس المصدر فى مقالة حياة اللغة وموتها من ص ٩ الخ
وانظر كتاب ظلمات وأشعة طبعة بيروت ١٩٥٢ ص ١٠٤، ١٠٥
وانظر كتاب كلمات وإشارات بقلم «مى» مطبعة الهلال القاهرة سنة ١٩٢٢ مقالة الشاعر البعلبكى ص ٢٢ وغيرذلك من خطب ومقالات.

النزعات السياسية

لم تكن مى وهى الأديبة المفكرة لتحول بين نفسها وبين ما يدور فى محيطها الاجتماعى من التفكر فى المشكلات السياسية العامة التى تشغل العقول وتدور بالخواطر فى زمن معين أو فى محيط من محيطات الناس. ويمكن القول بأنها اشتركت بآرائها مع الناس فى هذه الناحية الفسيحة من نواحى السياسة القومية العامة دون أن تتصل بالسياسات الحزبية أو بتوجيهاتها الخاصة الضيقة ، وللتدليل على ذلك: أثبت لها نصوصا فى آرائها السياسية العالية عندما استفتتها مجلة الهلال وألقت عليها سؤالين أولهما عما إذا كانت نهضة الأقطار العربية تقوم على أساس يضمن لها البقاء .. والثانى عن إمكان التضامن بين هذه الأقطار والعوامل الفعالة فى ذلك . وللقارىء بعض من نصوص أجوبتها فى ذلك حين تقول:(١) «يتعذر إطلاق حكم شامل على جميع الأقطار العربية ونحن بعيدون عنها لا نعرف من أحوالها سوى ما تشرحه لنا صحفها وكتبها فضلا عن الأنباء التلغرافية والأخبار السياسية ، بيد أنه يمكننى أن أتكلم عن مصر وسوريا ويظهر أن أحوال البلدان الأخرى تتفق مع أحوالها مع الاختلاف المحتوم الملاصق بكل قطر .

لكلمة نهضة التى نستعملها معنيان اثنان : أحدهما تجدد الأمة فى مجموع أحوالها بعامل أو عوامل استفزتها وتغلبت على العوامل الأخرى : كالنهضة الأدبية الفنية فى أوربا فى القرن الخامس عشر والنهضة العلمية والآلية فى أوربا وأمريكا فى القرن المنصرم وفى هذا القرن العشرين .

أما المعنى الآخر فهو الانتباه لوجوب أحداث التغير والشعور بابتداء وقوع ذاك التغير ، فالتجدد هنا هو التيقظ والرغبة فى الأخذ بما أخذ به آخرون فوسع عندهم مجال الحياة فاستفادوا به وخسروا ، وتنعموا وتوجعوا .

---

(١) انظر بين الجزر والمد مطبعة الهلال مصر سنة ١٩٢٤ . ص١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٠

هو تحفز ومباشرة جميعا ، وهذا المعنى من النهضة يتطابق والحالة فى مصر وسوريا ، بما يتضمنه من قلق واضطراب ، واندفاع ورعونة صبيانية ، وإخلاص وارتباك ، ونشاط وخطأ وإصابة . بمثل هذا تبدأ دواما النهضات الحقيقية بهذا الاسم : إذ لا طفرة فى الحياة ولا بد لكل نضوج أن يستكمل وقته ونظامه .....

والنهوض يحتاج إلى «دافع» يسوق ويستحث ويحدو . والدافع موجود. إن الحضارة العالمية الكبرى تنتقل من شعب إلى شعب خلال الدهر بحركة متموجة : تعلو موجتها فى أمة فتتجلى مواهب تلك الأمة وتأتى بأقصى مافى إمكانها ثم تهبط الموجة لتتكون من جديد عند شعب آخر بينما تتأثر بارتفاعها سائر الشعوب بدرجات متفاوتة .

وكذلك الشرق العربى بعد جهاد تسعة قرون أدى فيها خدما جليلة إلى العالم ، وكان بازدهار مدنيته وانتشارها وصلة بين الماضى والحاضر — عاد فهجع ثلاثة قرون شأن من ينام بعد مجهود كبير ليسترد قواه .

وعندما استيقظ وجد نفسه وقد أحاطت به أحوال جديدة تقتضى أساليب جديدة ممن يود مجاراة الآخرين حراً لا عبداً . فنهض الشرق يطالب بكل ما تسوغه الحياة لبنيها . ولئن بدت هذه الحركة مشلولة من جهة ، كفيفة من الجهة الأخرى ، تفتقر إلى الدراية العامة والنظام والتنسيق فما هذا الاضطراب إلا طبيعى يلازم الخطوات الأولى فى جميع دوائر النشاط الإنسانى وسيأتى الزمن والمران والاختبار بالحنكة المطلوبة والانتظام فى مختلف الجوانب .

وأكرر أن «الدافع» موجود فى جميع أقطار الشرق بشكل الاحتلال الأجنبى . وهو طبعاً سائر من عنف إلى عنف يثير فى الأذهان التيقظ لمعنى الحرية بل لدوى إسمها وحده دون إدراك معناها . ولا قبل لأحد فى هذه الأيام إلى مقاومة هذا الصدى الرنان المتفشى فى النفوس » .

ثم تتكلم الكاتبة فى تضامن الأقطار العربية وتآلفها فتقول : (١) «بين هذه الأقطار منذ الآن تآلف ضمنى منشأه ذلك الدافع المكون من طلب الحياة الجديدة ومن كره الاستعمار والرغبة فى دفع سيطرة المستعمرين عن مرافق البلاد وشؤونها . فالهزة التى تضرب اليوم فى الشرق هزة سياسية . وغريمته هى أوروبا القوية ولية الأمر فى الاختراع والصناعة والاقتصاد والمواصلات والحرب ونحوها . وبديهى أن أوروبا لا تريد هذا التضامن ، لأنه يناهضها ليسلبها ما هى فى جد الاحتياج اليه .

إن ما دفع بأوروبا إلى الهجرة والاستعمار فى بادىء الأمر ليس الطمع بل هو الباعث الاقتصادى المتلخص فى « فقر البيئة بتزايد عدد سكانها » . فمضت تستغل موارد الثروة الغافل عنها أهلها فإذا بالسفن تعود إلى البلاد الأوروبية طافحة بالمواد الغذائية والمواد الغفل التى أنشأت تدير بها رحى الصناعة ثم توزع الانتاج على الآفاق فتجنى أرباحه . وما زال الغرب وهو أكبر دار للمعامل والمصانع يحتاج إلى أن تمده الأقطار بنقصه من الثمرات والأقوات والمواد الغفل ليصنع ويربح ويحيا على ما اعتاد أن يحيا بعد انتشار الاستعمار . فالغرب بالتفريق عن الأقطار الشرقية إنما يدافع عن ثروته وحياته . فالشرق المتيقظ يطلب كذلك ثروته وحياته . وسيتتابع الصراع بين الفريقين .

وعلى أى فقد انقضت للمستعمرين أيام الهدوء والهناء وإذا كان لا بد من التموين وتبادل الانتاج بين الشعوب فيتحتم أن يختلف نوعه وطريقته بعد الآن . إن العالم كله فى عذاب واضطراب والشرق والغرب سواء بسواء والمؤتمرات الواحد والعشرون منذ الصلح مهزلة جعل العالم أشد شعوراً بضرورة «تصفية كبرى محسوسة» تعدل فيها المصالح وتراعى الحقوق وتنظم المطالب بلا تحفظات ومداورات . والمستقبل وحده يعلم متى تتم تلك التصفية وهل هى تجىء عن طريق الحرب أم السلم .

(١) نفس المصدر . نهضة الشرق العربى . رد «مى» على استفتاء الهلال .

أما الترابط بين أقطار الشرق العربى فيظل تعاطفاً أدبياً حتى ولو جلا عنه الغرب ، إذ صار الناس اليوم يطمحون إلى القوميات ويرغبون شديداً فى الاستقلال ضمن حدود وطنية طبيعية . هذا إلا إذا جاءتنا الأيام ببعض مباغتاتها . فكثيراً ما تأتى الأيام بما ليس فى الحسبان . وأيا كان المستقبل فاللغة العربية خير وسيلة لهذا التعاطف الأدبى والتفـــاهم المعنوى بين أبناء الشرق » .

وتستطرد الكاتبة فى الخطوط الرئيسية لسياستها العامة فى مدى اقتباس عناصر المدنية الغربية وهى ممن يرى ذلك لاعتقادها أن المدنية ليست شرقية ولا غربية ولكنها إنسانية . على أن «ميا» مع قولها بالاقتباس ترى أن « فى الأقطار العربية شخصية الماضى الذى لا بد أن نتكىء على بعضه دون أن يعارضنا فى اكتساب ما يعود علينا بالحياة والحرية . عندنا عادات جميلة ووراثة أثيرة تحسن المحافظة عليها غير أنها لا تكفينا . ليتغن بها الشعراء ، ولينشدها المنشدون ، ولينح عليها محبو الندب والنواح . ولكن مهماز الحياة وراءنا . واقتباس المحتوم لا يغض من كرامة الأمم لأنها مركبة من روح وجسد فشعرها وفلسفتها وفنونها وآلهياتها وأديانها وتذكاراتها الثمينة كل هذا بمثابة غذاء الروح . أما الحياة المدنية منها ، الحياة المحسوسة ، فلها أساليبها الآلية والمالية والاقتصادية والاجتماعية . وإلا فالغلبة والاستعباد . ولئن تحتم حمل القيود ، فقيود يضعها المرء لنفسه خير من قيود تربطه بها الأيدى الغريبة »(١) وهكذا ترى «مى» أن فى الغرب ما يقتبس من مظاهر الحضارة وأن أموراً من أنظمتنا لا ينبغى أن نقتبسها بل إن الحاجة هى التى تقودنا اليها كأنظمة السياسة مثلا وكبعض أساليب التربية والتعليم . بمثل هذه الآراء المعتدلة والنظرات الحكيمة تدعم «مى» مبادئها فى السياسة العامة التى تراها تتناسب مع شعوب الشرق والغرب ، وأن الاعتدال يلازم الكاتبة فى أكثر ما تكتب برغم ما يصاحب آراءها من حرارة تسرى فى أسلوبها الرصين قلما يوفق اليها الكثيرون ممن يتناولون الموضوعات العلميه التى طالما يداخلها برود المنطق الجاف .

(١) انظر بين الجزر والمد ص ١٧٥ و١٧٦ .

نظرة «مى» فى موضوع المرأة :

أما بعد فتناسقاً مع جملة النظرات الاجتماعية لمى واستطراداً أود أن أشير إشارة موجزة إلى آرائها فى موضوع المرأة والاتجاهات التى تطالب بها النساء فى الحركة الاجتماعية العامة وكيف أن الكاتبة حاولت أن تكون فى موقف الموفق فيما تطالب به المرأة من الحقوق .

وأول ما يصح تقريره فى هذه المناسبة أن الكاتبة كانت مظهراً واضحاً لمعنى الأنثوية بما تشمله من لطف ، ودل ، وجاذبية ، ورقة ، وحساسية ، وعطف ، وغموض ، وإبهام أخاذ . بل ولعوبية تستهوى الظامئين إلى ما عند المرأة الظريفة الراقية من فتون .

وإن من عرف ميا يحلو له أن يتمثل ظرفها وما كان لها من مظاهر رفيعة وساحرة وإن ميا لتصدق حقا مع طبيعتها الأنثوية فى تعقيب لها على رأى للتيمورية حين تنتقد من تشغفن من النساء بالتزين والتحلى فتقول «مى» معقبة (١) « أعتقد أن من طبيعة وجود المرأة أن تكون جميلة ، كما أن من طبيعة وجود النوع الانسانى أن يكون ذكيا نشيطاً . وكما يصقل المرء ذكاءه بالمعرفة وبالتجربة والاطلاع ، كذلك تصقل المرأة جمالها بالزينة والاناقة والكياسة . الفتاة معدة لتكون ربة منزل وأم عائلة ، وسيدة مجلس زائرة ومزورة ، لا لتنزوى فى حياة الزهد والرهبانية فيجب أن تنشأ على ما هيئت له من ابهاج المنازل وتزيين المجتمعات ، وبث اللطف والأنس فى كل ناد تحل فيه . ولما كان عليها أن ترضى برخامة صوتها ، وحلاوة ابتسامتها ، وظرف حديثها ، كذلك عليها أن تروق النظر بحسن هندامها » . . . . . ومما تقول الكاتبة أيضا فى مسألة المرأة « وأنا أرى فى إنكار المساواة على المرأة ماهو تكريم لها ، أيا كانت الصيغة واللهجة المعبر بها عن ذلك الانكار . إنه لدليل على أن الرجل يجهده كفاح الحياة

---

(١) أنظر حلية الطراز لعائشة التيمورية ص ١٤٤ و ١٤٧

فلا يريده للمرأة ، ويطمع فى ادخارها للراحه والهناء والرخاء والمواساة ، بل هو دليل على محبته التى تتلون بشتى الألوان ، وعلى احترامه ولو مسخ أحيانا بشكل الاستخفاف . أذلك الإنكار محض أنانية كما يزعمون ؟ وماذا لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خالية من الأنانية ؟ وما أحب أنانية أحبابنا إلينا ! أما الأنانية الممقوتة من القريب والغريب على السواء فهى الأنانية التى تنتفخ على حسابنا ، ولاتجعل لنا فى إحصائها مكانا وقدرا . ومن هنا منشأ كل ثورة وكل فتنة وكل ظلم . إن المرأة التى تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحباً . لا تثور ولا تشكو ، حتى ولو عسرتها المسئولية . وإنما هى المرأة المظلومة من ناحية العواطف التى تصيح وتلج ، يطلبون منها ألف ألف واجب ، ويقيدونها بألف ألف قيد ، ويرهقونها بألف وقر ، ومقابل ذلك ماذا ؟ مقابل ذلك لا رعاية أحياناً ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . إذن لماذا تحتمل ، وفى سبيل أى غاية تحيا ؟ »

وإن القارئ الممعن فيما تقدم ذكره من بعض ما دونته « مى » فى تعقيبها على التزين عند النساء ليرى أنها تتجه فى حديثها إلى إبراز خصائص المرأة من الجمال والأناقة والإيناس والتظرف والحرص على عواطف المحبة والمجاملة والهناء وما إلى ذلك ، مما يدل على أن الكاتبة تقدر فى النساء معنى خاصاً وطابعاً مميزاً ، ولوناً مشخصاً ، وكل ذلك فيما تسميه الأنثوية . وإن الكاتبة حين تقدر خصائص النساء من الأنثوية قد تصب سخطها وتدفع بمظاهر غضبها على من يتجردن من هذه الخصائص الجذابة ليتخذن بدلا عنها ماينفر ومايسىء وقد تقول فى ذلك(١) : «إن المرأة المهدمة فى المنزل وفى البيئة لأكبر نقمات الله ، والمرأة الشريرة شر من أخبث الشياطين ، ولكن من ذا يحمى الأبرياء منها ؟ من ذا يحمى المرأة النشيطة الصالحة النافعة فى ممكناتها من خمول الخامل وبطش المبطاش وغرور المغرور ؟ ! » .

---

(١) انظر حلية الطراز ص ١٤٨

وقد ترسل الكاتبة أقوالا ليست فى صالح النساء ولا تضاف إلى رصيدهن ، ولا يزداد بها ميزانهن كقولها « مما لاريب فيه أن بعض النساء ، غربيات كن أم شرقيات ، لا تنتظم منهن الحياة إلا إذا عرفت تقودهن يد حاذقة قادرة(١) » . وقد تقول فى حق الفتيات(٢) « إنهن لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال المخيم بطلائه على منابت العواطف المخصبة . . . والفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات . . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم ير فيها من الاستفهام شيئاً » . وقد تقارن الكاتبة بين المرأة والرجل فتقول(٣) : « لقد تصلب قلب الرجل قليلا — أو كثيرا — فى حرب الاقتصاد التى ما فتىء يشهرها فى ميادين الحياة فلحق ببعض عواطفه جفاف وتوتر هما من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أن القلب ما زال مملكة المرأة . وفى هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمع القوة والدقة والكآبة والصفا . عندما لا يتكلم من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعن فى صوت المرأة أنيناً كأنما هو بقية زفرة أو تتمة بكاء . وحينما يعتز الرجل بإدراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترين المرأة منحنية على نفسها كمن ينحنى على جرح بليغ . ترينها منحنية على قلبها لان شيئاً يظل نائحاً فيه . وسواء فى ذلك تلك العائشة فى وسط الابهة والتبجيل والإعظام ، وتلك الحقيرة التى تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان » وقد تقول على هذا النحو « نحن فى حاجة شديدة إلى نساء تتجلى فيهن عبقرية الرجال دون أن يفقدن صفاتهن النسائية الجميلة من لطف العاطفة وعذوبة الخلق والرقة ، والدعة ، والاستقامة والإخلاص (٤) .

وإذا قسنا على ماتقدم نجد أن « ميا » تدرك تمام الادراك مايقدر للمرأة من حق فى نظام طبيعى واجتماعى ينسجم مع طبيعتها ونفسيتها وما للرجل

---

(١) انظر بين المد والجزر ص ١٦٥
(٢) انظر باحثة البادية ص ١٤٩
(٣) انظر باحثة البادية ص ١٨٥
(٤) انظر باحثة البادية ص ١٧٧ و ١٧٨

من نظام آخر يغاير فى ذلك . فكلاهما يختلفان فى أمور ويتشابهان فى أخرى ، وإن خير ما يتخذ من الموقف الإصلاحى الرشيد بين المرأة والرجل عند «مى» يصح فى الخطة التى تتمثل ، حيث لا يكون الرجل جائرا مستبدا ولا المرأة ساخطة متمردة بل يتصافى الاثنان فتصير هى له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين ، ويصبح هو لها أخلص الأصدقاء والين المرشدين » (١)

ومن هذه الجملة القصيرة ، ومما ذكرته من قبل ، يتهيأ لنا أن ندرك الصميم من فهم « مى » ونزعتها فى موقف المرأة من الرجل حين يكون كل منهما صديقاً مخلصا للآخر دون أن يفرط فى خصائصه فأحدهما يرشد والآخر يعين وأحدهما يصقل عقله الجهاد والآخر يصقل عاطفته الحساسية والحب ، ولكل من الرجل والمرأة فى ميدان الحياة والعمل خصائص تغلب على مجموع أفراده وإن تفلت الشواذ من الخضوع لهذه المقومات والخصائص العامة . « ومى » بسكونها الطبيعى الغالب إلى هذه النزعة قد تشارك باحثة البادية فيما تذهب الباحثة إليه من ترك ميدان الانتخاب والسياسة للرجل وقبول مبدأ نشر حمايته على المرأة وتوكيد قوامته عليها مما تقدر الباحثة أن ذلك يدخل فى خصائص الرجل أكثر مما يدخل فى خصائص المرأة (٢) .

على أن « ميا » وإن استطاع الناقد أن يخرجها من حزب المتطرفات والمشتطات ممن يطالبن بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق والمألوفات الاجتماعية وفى مختلف ميادين الحياة العامة ترى وقد أدركها النسيان أحيانا لتغفل عما هو من نفسها فى الصميم ، وعما هو قريب إلى عقلها المفكر الجبار ، وعما يناسب أنثويتها فتشتط مع المشتطات وتتمرد مع المتمردات فتقول مثلا (٣) « أشد الملوك فرحا بهز الصولجان ، وأرفعهم للرأس كبرا وتيها تحت ثقل التيجان هم ذوو العرش المتداعية للهبوط .

(١) انظر خطاب باحثة البادية لمى صحيفة ١٨٧

(٢) انظر خطاب مى لباحثة البادية صحيفة ١٧٤ من كتاب باحثة البادية لمى

(٣) انظر خطاب مى لباحثة البادية ص ١٥٩، ١٦٠ من كتاب باحثة البادية لمى

والرجل ملك متداع عرشه لأن ريح الفوضى تهب عليه من كل جانب ، وخطوات الارتقاء النسائى تتوالى متكاثرة متمكنة مع مرور الزمن . لكنه ملك عزيز . هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج فإذا سقط سقطنا معه ، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات . لذلك نريد له خيرا ونجتهد فى تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل . نريد أن نكون متساويين فى الحقوق الأدبية والعمرانية مادمنا متساويين فى الواجبات والمسئولية . بل إن واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ماعليه من مسئولية وواجب !! فياترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة » . وتقول فى خطبة لها الكثير مما تقوى به نزعة الغالين من دعاة حقوق المرأة لتختتم الخطبة بتلك الكلمات « أيها الرجل لقد أذللتنى فكنت ذليلا حررنى لتكن حرا ، حررنى لنحرر الانسان » (١)

ويبدو لى أن الأديبة المفكرة التى يدق فكرها فيما تكتب ويتناسق تناسقا علميا ومنطقيا فيما دونته من ثمرات فهمها وقلمها قد اضطربت حين تناولت بالبحث موضوع المرأة فى حقوقها وواجباتها وربما كان من أسباب هذه الاضطرابات ما يفيض به جو الحياة العالمية والاجتماعية الحاضرة من وفرة غامرة فى الدعاية الموصولة لحقوق يتوهمها الواهمون للمرأة ، ويروج لها جماعات من النفعيين والانتهازيين ممن يتخذون من شئون السياسة وسائل لمآربهم ، أو ممن تهون عندهم المداهنات الاجتماعية ، والمجاملات الرخيصة ، والتظرف المقيت . وللمحيط الاجتماعى المشبع بدعايات متلاحقة أو اتجاهات معينة تأثيره فى تفكير الأفراد وآرائهم وبخاصة إذا كان هؤلاء الأفراد من ذوى النفوس اللينة والعقول المرنة وعلى هذا نزعت « مى » لمسايرة الركب وجارت ، فى تردد وحيرة وأناة من يذهبون إلى دفع النساء فى معمعة السياسة ، وفى ميادين الانتخابات العامة وما تنطوى عليه من نزعات الأهواء والتحزب والأغراض الشخصية . ولربما

---

(١) كلمات وإرشادات بقلم مى مطبعة الهلال . القاهرة سنة ١٩٢٢

كان من المصادر لاضطراب تفكير الكاتبة ونشاز قلمها فى موضوع المرأة تلك السحب من الشكوك التى تمر أحياناً على الأذهان المكتظة بمحصول علمى وفلسفى وافر وغزير ، والتى تظل ظمأى إلى المزيد من العرفان وإدراك الحقائق . ولقد فطن الدكتور محمد حسين هيكل ، حين دعى لتأبين مى وهو يتحدث عن رأيها من ناحية المركز السياسى للمرأة فى المجتمع ، فأشار إلى مخالفة الكاتبة لمن يدعون إلى مساواة الرجل والمرأة فى الحقوق وقال ما نصه (١) :

« دهشت لأول ما سمعت « ميا » تقول ، أنها تخالف الذين يدعون إلى مساواة الرجل والمرأة فى الحقوق ، وأنها ترى هذه المساواة عدواناً على المرأة وعلى الرجل جميعاً . ودهشت حين رأيتها تنفر من الحديث فى حق الانتخاب للمرأة ، وتذهب فى نفورها إلى حد بعيد ...

أما حجة «مى» فى تأييد رأيها فهى التى أوردها كما سمعتها منها ، وكما كتبتها فى بعض رسائلها وكتبها . فهى تقول ، إن أكبر فخر للرجل ، وأعظم عنوان لمجده إنما هو كمال رجوليته ، الرجل الناقص الرجولة لا يغنى عنه علمه ولا ماله ، بل يظل ناقصاً أبداً . فأما من كملت رجوليته فقدير على أن يستكمل بفضلها ما ينقصه فى الناحية التى ينبغى الكمال فيها . ذلك حق نقره جميعاً . فما بالنا لا نقر الحق الذى يقابله ، فنقول أن أكبر فخر للمرأة ، وأعظم عنوان لمجدها إنما هو كمال أنوثتها ، وأنها بكمال أنوثتها تستطيع أن تكمل ما ينقصها فى الناحية التى ينبغى الكمال فيها . وكما أن الرجولية قوة ونضال وحرص على الظفر ، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة ، محبة للكون ولكل جميل ولكل كامل فيه ، وحنان على المخلوق الصغير الناشىء ، زهرة كان هذا المخلوق أو نباتاً أو حيواناً أو طفلا ، وعطف على بؤس البائس وضعف الضعيف ، وأنة المريض ، وشكاية العانى وكل ذى ضراء ، أما وهذه

---

(١) انظر مجموعة الخطب والقصائد التى القيت فى حفلة تأبين « مى » بدار الاتحاد النسائى المصرى مساء يوم الخميس ٥ من ديسمبر سنة ١٩٤١ . المطبعة العصرية . مصر

طبيعة الأنوثة ، وتلك طبيعة الرجولية ، فطبيعى أن يتصور الرجال معانى النضال فى سبيل الظفر بما يرونه حقاً ، وطبيعى أن يكون النضال بين الآراء وبين الأهواء ، بل بين القوى المادية ، بعض ما يصطنعونه لتحقيق مآربهم . لكن طبيعى كذلك أن يكون الصبر ، وأن يكون العطف ، وأن تكون المعاونة الصادقة وسائل المرأة لكمال أنوثتها ، ووسائلها بذلك للفخر والمجد . وكانت «مى» تؤيد رأيها بما أثبته التاريخ فى صحفه ، فهى كانت ترى النساء اللواتى اندفعن فى ميادين النضال ، من مثيلات جان دارك ، شذوذاً على الطبيعة وخروجا على سنن الكون ، ولذلك كن ندرة لا يبنى عليها حكم ، والإعجاب بهن ، وتقديس مجدهن ليس إلا إعجاباً بالشذوذ وتقديساً له . أما الرجال الذين جعلوا النضال صناعتهم فخلد لهم التاريخ ذكراً فهم أصحاب المجد ، سواء منهم المناضلون فى ميادين القتال والمناضلون فى ميادين الفكر ، والمناضلون فى ميادين الفن ، هؤلاء أثبت لهم التاريخ صحف فخار باقية على الدهر أما النساء اللواتى أثبت التاريخ لهن مجداً باقياً ، فهن القديسات المضحيات لله وللإنسانية ، وهن الأمهات اللواتى أنجبن الأطفال ، وهن الرحيمات اللاتى آسين وواسين ، وهن الملهمات اللواتى أوحين للشاعر شعره ولرب الفن فنه ، لم تكن واحدة من أولئك تتخذ النضال صناعة أو سبيلا إلى المجد ، بل كانت تؤدى واجبها فى هدوء وبلا ضجة أو جلبة ، شأنها فى ذلك شأن النحلة إذ تدأب فى جمع العسل ، أو شأن الزهرة إذ تتضوع فى الوجود جمالا وشذى . على ما كان من هدوئهن لم ينكر التاريخ فضلهن ، بل أثبت لهن فى صحفه مجداً باقياً على الدهر .

وتضيف «مى» إلى ما سبق أن طبيعة الرجل والمرأة تقتضى تضامنهما فى مودة ورحمة ، وتنكر تنافسهما فى نضال وقتال . وهذا أمر يسير فى نظرها تصوره ماخرج الفكر من ميادين المادة إلى المعنويات السامية . أما أن يقصر الإنسان نظره إلى ميادين المادة والسعى للعيش أو للثراء ، فذلك ما يدفعه لالتماس مزيد من المادة ، أو من أسباب النعمة المادية فى الحياة ، وما يدعوه

لبلوغ ذلك إلى التنافس والنضال . وهذا ميدان ، إن صح للرجل أن يدخله ، فجدير بالمرأة أن تبتعد عنه وأن تجعل دأبها التخفيف من حدته » .

وإن الدكتور هيكل حين ذكر ما تقدم يعزز رأينا فيما ذهبنا إليه من أصالة الأنثوية عند «مى» وأن ما جاء فى كتابتها مجارياً أو منسجما مع صدى المطالب النسائية الصاخبة المغالية لم يكن إلا طارئاً أو دخيلا اندس فى نفسها وهى فى فتور أو فى غفلة عن ذات طبيعتها الأنثوية القوية السليمة النامية ، تلك الطبيعة الحساسة الواثقة الرنانة الصوت ، الواضحة النبرة المنغومة الجرس فى كل قول أو عمل يتناسب مع مقومات المرأة حتى لكأن القارىء يحس آلامها حين تتذكر وتتحرك فيها أمومة فوتتها عليها الأقدار فتخاطب الأمهات بهذا القول : (١)

« سمعت الطفل يبكى فهلع قلبى فرقاً وشعرت بشىء كبير يذوب فيه . أواه من بكاء الأطفال . أنه أشد إيلاما من بكاء الرجال ! ظل يبكى بكاء متروك منفرد لا يحبه فى الدنيا أحد . الطفل الحبيب يبكى فكيف أعيد التألق إلى عينيه ؟ كيف أسمع فى ضحكته صدى أصوات الملائكة مرة أخرى ؟ فدنوت منه متوسلة وضممته إلى بذراعى التى لم تضم يوماً أخاً أو أختاً صغيرة ، وأجلسته على ركبتى حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء ، ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما هى تلمس شيئاً مقدساً .. ثم وضعت على تلك الجبهة شفتى ساكبة فى قبلة كل ما يحوم فى جنانى من شفقة وانعطاف .. ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكى ؟ صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحاً تناجى روحه ، صمت هنيهة ثم عاد فحدق فى بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً . أتعرفون كيف تحزن عيون الأطفال ؟ أتعلمون كيف تعنف أحداق الصغار ؟ حدق فى سائلا عن أعز عزيز لديه وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء . ماما ماما صغيرك

(١) انظر «ظلمات وأشعة» صفحات ابكاء الطفل صفحات ٢٥ و٢٦ و٢٧ بيروت سنة ١٩٥٢

يناديك فلماذا لا تجيبين يا أم الصغير ؟ عودى من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة وأحاديثك السخيفة . عودى واركعى أمام الصغير واستميحيه عذراً

لقد خلقت امرأة قبل أن تكونى حسناء . وكيفتك الطبيعة أماقبل أن يجعلك الاجتماع زائرة ، تعالى اسجدى أمام سرير الصغير . اسجدى أمام هذا المهد الذى لعبت بين ستائره طفله ، وحلمت به فتاة ، وانتظرته زوجة ، فما خجلت أن تهمليه أما . . اسجدى أمام المهد فإن المهد محجتك القصوى »

وعندما تخاطب «مى» الأمهات بصوت مؤثر ينم عن عواطف الأمومة الحبيبة قد نسمعها توجه قولا للطفولة الحبيسة إذ يقترب منها طفل صغير فى الرابعة من سنواته وهى ترتاض فى حديقة تقول :

« تعال إلى أيها الصغير . فدنا واجفاً باسماً فسألته ألا تجلس على ركبتى فجلس صامتاً . ولما شعرت بثقل جسمه الصغير ذكرت أخى الوحيد الميت ، ووثب قلبى إلى شفتى وحالت الدموع بين أجفانى فملت إلى الطفل امتص من حلاوة وجنته ، لاهية بتلك القبلة عن كآبتى المتصاعدة من فؤادى كما يتصاعد الغيم من أطراف البحار . ما أعذب قبلة الأطفال ! وما أطيب ابتسامهم ! »(١)

إن فيما تقدم ذكره من كلمات لمى ما يشعر القارىء بتلك الحرارة العاطفية الغامرة لقلب امرأة ، والمستعرة على لسانها ، والدالة على تأصل الأنثوية تأصلا لا يضعفه ولا يزعزعه ما يعرض النساء فى هذا العصر لهزات عنيفة بإقحامهن فى مختلف نشاط الميدان الحيوى الاجتماعى .

ومهما يكن لمى من رأى فى شئون مطالب النساء لتحقيق المساواة فى الأعمال بينهن وبين الرجال فإن هذه الأديبة لم تكن قط على حقيقتها بالمرأة الرجلانة ، ولا المشتطة ، ولا المغالية فى تقويم الحقوق النسوية . فهى لم تهمل قط العناية بصفات الأنثوية وما يلائمها ، وهى لم تكن تواقة ولا سواقة لإخراج النساء من ميادين الطبيعية ودفعهن فى مالا يساير الفطرة ، ولم

(١) انظر ظلمات وأشعة : منشورات دار بيروت سنة ١٩٥٢ صحيفة ١ و ٤

تستدرجها مآرب الحياة السياسية الضيقة ولا ملاعبها لدفع نفسها أو استدراج المرأة إلى حلقات هذه المآرب ، أو إلى ساحات هذه الملاعب ، برغم ما كان يدفعها حبها لبلادها واتقاد وطنيتها إلى الاشتراك بقلبها وقلمها ولسانها فى حماسة لتأييد كل مظهر من مظاهر التقدم النسوى حين لا تضار المرأة لا يضيع عليها كرامة الأنوثة إذا هى غلبت فى الكفاح الحيوى والنضال ، وإذا هى خرجت عن العرف السليم وتوغلت فى مزالق الابتذال ، وإذا هى ، حين تتشبه بالرجال ، تضيع خير خصائصها من البهاء والرواء والجمال ، فالمرأة عند مى (هى منشودة الرجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعذوبتها مستودع تعزيته وبسمتها مكافأة أتعابه) (١)

مقومات « مى » وتأثيرها ومحنها ونهايتها :

بين أجزاء هذا العنوان ، الذى وضعته للفصل الأخير من حديثى عن « مى » ترابط وثيق ، لأن أهم المقومات لشخصية هذه الأديبة قد أثر تأثيرا واضحا فى مجرى حياتها ، وفى تأثيرها فى الناس وكذلك فى محنها وفى نهايتها من هذه الحياة .

وإنى كلما أدقق النظر فى أجزاء هذا الفصل وفى أطرافه تبدو لى شدة الترابط والتواصل حتى لكأن حياة «مى» قياس منطق لا يعترضه ما يقطع التسلسل المقدور فى حياة الأديبة منذ البداية حتى النهاية حين تقبر فى التراب ، وحين تلوح ذكرياتها عند أولى النهى والألباب وبين المعجبين والمحبين .

ولكى أبين صورة من هذا الترابط الوثيق يحق أن أرجع إلى الوراء واستعرض بعض ما ذكرت لها من الصفات والنزعات التى كانت بينة الأثر فى سيرة عطرة مرت كسحابة محسنة انعشت أدبا كان له نفحه وعبيره وشذاه .

ويلوح لى أن المعالم المتألقه فى نزعات «مى» وصفاتها إنما كانت فى عاطفيتها وحساسيتها للشجن إلى حد بعيد ، وأنها كانت طلعة وتواقة إلى العرفان فى

---

(١) انظر ظلمات وأشعة صحيفة ٧

حدود مترامية المدى، وأنها كانت ضاربة فى الدينونة المسيحية وفى أعماق مافيها من روحانية وصفاء ، وأنها كانت تعتد بنفسها إلى أبعاد قد تنفتح عندها كوة إلى الغرور ، وأنها كانت شرقية وعربية النزعة بحكم إيحاءة متأصلة وبيئة لها سلطانها على الوجـــدان ، وأنها كانت ذات حظ كبير من الطبيعة الأنثوية وخصائصها ، وأنها كانت مثالية يستهويها الجميل ويفتنها الحسن فى كل شىء .

ولعل من يدقق فى هذه الصفات ، وما إليها من تنازع فى شئون الانسان، قد يدرك فى يسر أنها حين تتلاقى فى نفس ، وحين تتجمع وتزدحم فى سريرة لا تلبث أن ترهق هذه النفس وأن تعبث بهذه السريرة . ولقد أدركت ذلك المرحومة هدى شعراوى وأشارت إليه فى تأبينها لمى ومما قالت فى هذا الصدد ما يلى (١) : « وقفت «مى» بعد ذلك فى صفوفنا فكانت تدهشنا بحدة ذكائها وعمق تفكيرها وسمو روحهـا ودقة إحساسها ، حتى كنت أفزع أحيانا من تجمع كل هذه الصفات فيها. وأخشى عليها تأثير تلك القوى الجبارة التى كانت تتنازع جسمها وقلبهـا وروحها . . . كانت «مى» المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة فى جميع أطوارها وتطوراتها ، فى اعتزازها بقوميتها ، وتمكنها من لغتها ، ومحافظتها على شخصيتها ، واحترامها لتقاليد قومها وعقائدهم . . . كنت أتتبع مراحل نشاطها ، معتزة بها ، فخورة بأعمالها وجهودها ، ولـكن — ياللأسف — وقع ماكنت أخشاه ، من تأثير تلك القوى الثـائرة التى كانت تتنازع جسمها المضنى وحساسيتها الرقيقة ، فقد تأثرت بفقد والديهـا أيما تأثير واستسلمت لأحزانها، واستعذبت آلامها ، ولم تسمح لأحد باقتحام عزلتها أو إقصائهـا عن همومها . وكما كانت « مى » فذة فى عبقريتها ، كذلك كانت فذة فى أحزانها . ولمـا طغت عليهـا الأحزان وتناوبتها العلل ، ذبلت وتساقطت أوراق تلك الزهرة اليانعة » .

وحقا أن من يقدر فى أديبتنا أنثوية لهـا تعطش بالغ للأمومة وما إلى

---

(١) انظر مجموعة الخطب التى ألقيت فى حفلة تأبين «مى» المطبعة المصرية القاهرة سنة ١٩٤١

الأمومة من مطالب ويدخل فى حسابه تلك العظمة الفكرية والكبرياء المعنوية التى أقرتها الثقافة العالية والتحصيل العلمى الغزير، ويضيف إلى ذلك الدينونة المتأصلة الصارمة التى تتحاشى الخطايا والأوزار، ثم يضع إلى جانب ذلك كله الحساسية المرهفة يرى أنه كان من المعتذر على «مى» ان تشبع رغبات أنثويتها مع أى رجل أو أن تهدر كرامة ذهنها المليء وذوقها الرفيع بمعايشة أو مجاراة من ليسوا فى رفعة مستواها من العلم والذوق. فبينا تدفعها طبيعة الأشياء فى عنف إلى وجهة، تمنعها بعض صفاتها فى عنف آخر عن هذه الوجهة، وبينا تعرضها مطالب الحياة الاجتماعية إلى ما تعافه الكاتبة وتأباه تدفعها حاجة العيش إلى تحمل مالا ترضاه مستسلمة كارهة.

ومن ثم كبت يحز فى حساسية مرهفة واحتمال لآلام تقيم، ومن ثم تنازع وتشاد بين مطالب وصفات متناقضة للنفس؛ ومن ثم تمزيق وتجريح فى ضمير من يستهدف للمنازعات النفسية وهو مرهف الحساسية. ومن ثم تعذيب معنوى من نوع راقٍ قد يؤدى إلى علة فى الجسم وفى النفس جميعا. ومرد ذلك خصومة عالية بين طموح مجنح مستنسر يريد ماينبغى أن يكون وبين واقع كائن محتوم يقاومه فى جلد وصمود وليس ثمت طرف بينهما لكى يتدخل صوت الاعتدال الحكيم فى تلك الحرب الضروس التى جعلت من روح «مى» المدللة المتكبرة ميدانها الفسيح الواسع. وإذا زدنا على هـــذا كله تلاحق الأحزان بخلو محيط الكاتبه ممن كان لها عندهم صدق العاطفه وإخلاصها، ورجاحة العقل، وتقدير المنزلة وروابط الحب فلا عجب أن يزداد بذلك ضناها وتتراكم عليها الهموم والمحن وتمتص نورها وحيويتها فتذوى وتقع كما تقع الزهرة الذابلة حين يتجمع النحل النهم عليها فلا يبقى من عصارتها المونعه شيئا يحفظ لها التماسك والحياة وزكى النفحات.

أكان من اليسير على «مى»، وهى من وصل بها ذكاؤها وذوقها ونهمها فى العلم لتكون فى المنزلة العليا بين ذوى الأقلام ولتكون دائرة للمعارف فوارة مائجة، أن تجد لها القرين الملائم والرفيق الموائم الذى يتناسب ذوقه

وعلمه وأدبه مع ذوقها وعلمها وأدبها لكى يتحقق بينهما العدل فى تبادل الحب والتراحم والتقدير ؟

إن المرأة تنزع بوحى فطرتها السليمة للحياة الزوجية وتود لو استوفت نصيبها المقدر من تلك الحياة وروابطها على أنها تود لو يكون شريك حياتها أبلغ منها حظاً فى مقوماته ومميزاته التى تتفق مع مقوماتها ومميزاتها . أفكان من اليسير أن تجد « مى » الطموح ذلك الصاحب بين تلك الوفرة من أهل الفكر والأقلام ممن كانوا يتجمعون حولها فى منتداها الأدبى العامر ؟ لعل الطموح ، ولعل السعة فى مجال التخير كلاهما كان يعطل ميا من أن تتخذلها صاحباً شريكا فى الحياة فى الزمن المناسب حين كانت حاجتها الأنثوية تدعو إلى هذا الرفيق المشروع . . . ! !

تأثير (مى) وتأثرها :

ولمناسبة ذكرى لمنتدى « مى » الذى لايخلو أن يكون تأثيره كبيراً فى حياة الأديبة ، وفى مراميها العاطفية ، وفى تفويت الزواج عليها ، أود لو أشير إشارة خفيفة إلى تأثيرها من ناحية هذا المنتدى فى الناس . وفى منازع أهل الأدب وهنا أذكر ما ذكره الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن الدكتور طه حسين حين تحدث الأديب الكبير بما يلى : (١) « ظهرت مى فى حياتها الأدبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين نفسهما فى الحياة الأدبية العربية تأثيراً عميقاً جدا ظهرت بعض صوره أثناء حياة « مى » ، وستظهر بعض صوره الأخرى بعد وفاتها بزمن قصير ، أو طويل ، أما أول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة البرزة التى لا تحتجب ولا تستخفى وتلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى الظروف لقاءهم ، وإنما تنظم الاجتماعات الأدبية التى يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكا حراً سمحا فيه كثير جدا من الرقى والامتياز . تنظم هذه الاجتماعيات فى بيتها وتشترك فى كل اجتماع

---

(١) أنظر كتاب حياة مى لمحمد عبد الغنى حسن مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٢ القاهرة

يشبهها إذا كان خارج بيتها . وليس من شك فى أن الصالون الذى تستقبل المرأة فيه رجالا يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب أو بعيد لم يكن جديداً فى حياتنا العربية بل لم يكن جديداً فى حياتنا المعاصرة . فقد عرف هذا القرن الذى نحن فيه صالونا من هذه الصالونات على الأقل ، كان بعيد الأثر جدا فى حياتنا السياسية والاجتماعية ، وهو صالون الأميرة نازلى رحمها الله . فقد كانت تستقبل فى دارها بعابدين كبار المصريين والأوروبيين . وكانت الأحاديث فى هذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الإصلاح الاجتماعى والدينى التى كان الناس يشغلون بها فى هذا الوقت . وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الإجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الأحاديث . وكان آثار ذلك يظهر فى الحياة العامة لهؤلاء الناس . ولكن صالون الأميرة نازلى كان ارستقراطيا إن صح أن الارستقراطية توجد فى مصر ، وهو على كل حال كان ضيقا مغلقا لا يصل إليه إلا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية إلى مقام ممتاز ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون إلى هذا النادى .

فأما صالون « مى » فقد كان ديموقراطيا أو قل إنه كان مفتوحا لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز فى الحياة المصرية وربما كانوا يدعون إليه وربما كانوا يستدرجون إليه استدراجا فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة ، ويكون لهذا أثره فى تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم .

ولقد صدق الأديب الكبير فيما ذهب إليه فى حديثه عن أثر منتدى « مى » فى تنمية المدارك وفى ترقيق الأذواق ، وفى التقريب بين طبقات الناس وبين مختلف أجناسهم ومشاربهم تحت تأثير الفن والأدب .

ويتحدث المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو من هو فى الدقة وفى بعد المنزلة من تذوق الأدب الرفيع فيقول للأستاذ عبد الغنى مايلى : (١) « والحق

---

(١) أنظر مى لمحمد عبد الغنى حسن .

أن ميا لم تكن تغشى الحفلات الاجتماعية والأندية كثيرا ، فكان الاجتماع للمتصلين بها فى ناديها الخاص الذى جعلته فى بيتها، وكان المجتمعون يستطيعون أن يقدروا جميع مواهبها الأدبية والخلقية . أما من الناحية الأدبية الفنية فلانها كانت هى التى تتولى إدارة الحديث فى المجتمع ، وكان تنوع الأحاديث وسموها وسلامتها من كل مالا تخلص منه عادة المجتمعات يدل على مقدار كفاياتها الأدبية ، وقيمتها الخلقية . وكانت « مى » تدير الحديث ولكن من غير أن تظهر بمظهر المتزعمة فى النادى ، أو المتصدرة فى الحفل مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة . . . »

ومهما يكن من أثر لمنتدى « مى » فى التقريب بين أهل الفكر وفى ربطهم بالروح الأدبية والديموقراطية وفى ترقيق أذواقهم وفى تلقينهم اللباقة فى فنون الأحاديث وآدابها فإنه كان لهذا المنتدى أثره المحمود بين الشيب والشباب من الأدباء ، وأنه كان له تأثيره كذلك فى نزعات « مى » وصفاتها ومن ثم فى حياتها كلها .

تأثير « مى » :

ولعل أبدى تأثير لمنتدى « مى » فى صفات الكاتبة نفسها وفى حياتها أنه أكد فيها الثقة بنفسها ، وذلك لأن كبار الكتاب والأدباء والمفكرين ، حين كانوا يتلاقون فى ساحة تلك الشابة الأديبة الظريفة ، ويتركون لها إدارة توجيه الأحاديث وتنظيم الحوار والمحاضرات فإنهم كانوا يفتحون للشيطان بابا ليتعدى ناحية الثقة بالنفس ، ويغرى لطرق باب الغرور . إن الشهرة تحيط بمى مع من يحيطون بها ويكبرونها من الكتاب والمفكرين ، وأنها مدللة عندهم جميعاً ، أثيرة بينهم بالإعجاب والاطراء ، وإنها لتسمع من شيخ من شيوخ شعرائهم مثل ذلك القول فى منتداها البديع حين يقول(١) :

---

(١) الشعر لاسماعيل صبرى .

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامئ الطير إذ يهفو على الماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وإنها لتقرأ فى خطاب لها من شيخ من شيوخ الأدب والفكر تلك الجملة التى تجد فيها بالغ التحية والتعظيم حين يقول(١) :

« فصولك الغضة تعلو بالمدارك ، وتنير جوانب النفوس ، فلا تدعيها كالأوراق التى تخضر فى الربيع وتذوى فى الشتاء . اجميعها جنية غضة وكللى بها رءوس الأعوام . الناس فى حاجة إلى هذه الأنغام الإلهية . هذه تحية تمجيد وثناء أضعها تحت أقدامك فإن بلغت ذلك المقام فحسبى » .

وكم من محدث يتحدث برخامة صوتها حين تغنى ، وكم من ذاكر حلو الابتسامة حين تبتسم . وكم من متغزل بوسمات الظرف وبملاحة الطرف . والعذارى يغرهن الثناء . فلم بالله لا يطرق شيطان الغرور بابا فى نفس «مى» ولم لا يؤثر فيها هذا الثناء المحيط المتوالى فيدفعها إلى جهود متواصلة لتستزيد بها علما ومكانة وترفعاً يتعسر معها أن تفتح قلبها من يؤهل من الرجال للاشتراك فى الحياة معها ، وفى جو الروحية الصالحة المسعدة . وإنه مع الجهود والطموح يزداد رصيدها الأدبى من العناء والضنى ، ومع العناء والضنى تقريب للآلام والعلل .

وهكذا فى ندوة « مى » وصفاتها ومنازعها مقدمات منطقية مترابطة لشجونها ولما لحق بها من الابتداء حتى الانتهاء .

على أن هذا المنتدى الذى كان له تأثيره فى الأدب وفى الناس ، وكان له تأثيره وأثره كذلك فى شهرة التى أقامته وسيطرت فيه لإثارة أفكار المفكرين وكان له تأثيره فى تكييف نفسيتها ، وفى اتساع ثقافتها وعلمها وفى تعبها الجسمى أقول أن هذا المنتدى قد تفجر من بعض أركانه نبع فياض ، لإرواء أدبها العاطفى الرائع ، ولتفجير ما فى قلب المرأة من مطالب الحب ، ولإشعال

---

(١) من خطاب لولى الدين يكن سنة ١٩١٢ .

نفسها بنار العذاب الطاهر المطهر ، ولمصدر هام من مصادر علتها ومحنها القاسية .

المحن والشجون :

كتبت « مى » فى بعض فصولها ما يلى(١) : « من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض ، تجعل الأكمة الجرداء قرب البحر الزاخر ، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار . . ما أقامت ارتفاعا إلا أوسعت تخومه تجويفا ، وما جادت بنابه إلا بلت بمعتوه ، ولا سلمت بوليد إلا ودعت بصريع » .

وكذلك كان فى منتدى «مى» معالم لشهرتها وسعادتها وتقواها ، وتجاويف لمحنها وشجنها وبلواها . كان فى هذا المنتدى مصدر لما أصابها من متناقضات تبدو فيما يتألق من مخايل الأحلام المسعدة ووخزات الآلام الجارحة الدامية .

وفى هذا المنتدى ، الذى عرفته من منذ أول ما عرفته فى شارع علوى خلف مبنى جريدة الأهرام كانت تدور الأحاديث فى شتى فروع الأدب ، والعلوم والفنون ، وتذكر فى جوه الأنيق بالنقد أو الارادة والتمجيد آثاراً للأدباء والفنانين والعلماء . « مى » زهرة النادى والمثيرة لتيارات الأحاديث فيه ، والمحبة للجميل فى كل شىء ، وبخاصة فيما يصدر من أفكار الناس وأهل الفن والأدب . وفى جلسات هذا المنتدى الحافل بالنابهين من المثقفين والبارزين من أهل الرأى يحدثنا جميل جبر فيقول(١) :

« دار الكلام غير مرة فى تلك الجلسات المنظمة حول آثار جبران وفعلها فى توجيه الفكر العربى المعاصر . فشاق « مى » التعرف إلى ذلك المجدد الخلاق ، وكان أول ما طالعت منه مقاله « فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى » . فاستذوقت نهجه وطالعت سواه واستزادت . لقد لقيت لدى الرجل صوتاً حاد النبرة شاسع الإيحاء ، يخدش الآذان الشرقية الآلفة الوتيرة الواحدة ،

---

(١) انظر كتاب المساواة فصل والرق والعبودية .

ويبعث فيها الثقة بقدرة الإنسان . ولقيت لديه أيضا غصة ألم وضراوة وحشة ، وفورة جموح طالما تنازعها هى فأورثتها القلق الذى لا يهادن .

ولم تكتف مى بمطالعة جبران ، وقد رأت فيه شخصية فذة ، بارزة السمات ، بل راحت تستوضح سيرته وأوضاعه باهتمام جدى ، كأنما أرادت أن تكتشف الينبوع الذى فجر ذلك النتاج . . . فعلمت أنه لبنانى بائس هجر قريته « بشرى » وأمه وإخوانه إلى « بوسطن » .

وهنالك فى حى موبوء قذر ، جعل يدرس الانكليزية ويرسم عوض أن يساعده ذووه فى تجارة السلع الصغيرة ، وعلمت أنه فقد أخاه وأمه وأخته صغيراً . فعاد إلى بيروت ودرس العربية فيها ، ثم قصد باريس وتلقى على يد « رودان » أصول الرسم الحديث لينتهى إلى « بوسطن » من جديد ويعيش من إبرة أخته فى بيته تعاسة وحرمانا . لم تكن هذه الوقائع التى تلقتها عن الشاعر إلا لتؤجج شوقها إلى التعمق فى معرفة أنه فريد جذاب . كانت تقول فى نفسها ولكن كيف الوصول إليه ؟ » .

وكان الوصول إلى ذلك أن كتبت إليه أول رسالة فى ٢٩ مارس سنة ١٩١٢ لتعرفه بنفسها وتحدثه عن آثاره الأدبية وأثرها الطيب وقد تحمل سطور رسالتها ، فى غير إفصاح وتعبير ، معنى روحانيا آخر اسمه الشوق إلى معرفة من تكتب إليه دون أن تهدر حياءها وكبرياءها الأنثوى لتفصح عن هذا الشوق الكامن المقدور .

وتلقى جبران الذى سبقت شهرة « مى » إلى سمعه وإلى نفسه تلك الرسالة التى كان فيها الضرام الأول لما بين قلبين ولا بد أن يكون قد تلاها وتأمل فيها أكثر من مرة إذ وصلت إليه وهو فى سن الشباب ، وفى سن الكفاح من أجل الشهرة ، ومن أجل المرامى التى يهدف إليها فى علو المكان بين الكاتبين والفنانين . وطالما توقظ رسائل العذارى النابهات فى نفوس الموهوبين ، للبروز والنباهة ، كل نشاط للتحلى بما يستهوى أفئدة العذارى والغانيات الحسان . وأسرع جبران فى تسطير جواب رقيق لمى يثنى عليها

ويشكر لها ثناءها عليه ، وتحمل الرسالة مالا تحمله الكلمات من حنين يكمن فى نفسه لتلك التى شاءت الأقدار أن يصل بين قلبها وقلبه فى أول الأمر تيارات غير منظورة من الشوق ، تيارات مبهمة من التراحم لا يحددها إفصاح .

ولقد أرفق جبران مع خطابه آخر كتاب ألفه وقتئذ وهو « الأجنحة المتكسرة » . وتلقت «مى» رسالة جبران فى شغف وقرأت الكتاب المرفق فى تلهف .

وفى الكتاب فن جبران الأخاذ ، وفيه تمرده ، وفيه كل ما يستهوى ويلهب إعجابها إلهابا . وسرعان ما كتبت «مى» رسالة تحدث الأديب النازح عن رأيها فى كتابه . وفى حديثها عن كتابه أدخلت حديثا عن الزواج الذى طالما تحلم به المرأة استجابة للأمر الربانى الأزلى ، وخضوعا لوحى الطبيعة التى لابد أن تربط حواء بآدم ولكن برباط قدسى وثيق .

كتبت «مى» إلى جبران خطابا فى ١٢ مايو من سنة ١٩١٢ وجاء فيه مايلى (١) :

إننا لا نتفق فى موضوع الزواج ياجبران . أنا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك ، لأننى أعرفك صادقا فى تعزيزها مخلصا فى الدفاع عنها ، وكلها ترمى إلى مقاصد شريفة ، وأشاركك أيضا فى المبدأ الأساسى القائل بحرية المرأة فكالرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان تابعة فى ذلك أميالها وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيفة حياتها فى القالب الذى اختاره لها الجيران والمعارف . حتى إذا ما إنتخبت شريكا لها ، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما . أنت تسمى هذه سلاسل ثقيلة ، حبكتها الأجيال ، وأنا أقول إنها سلاسل ثقيله ، نعم . ولكن حبكتها الطبيعة التى جعلت المرأة ما هى ، فلن يتوصل الفكر إلى كسر القيود الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شىء . لم لا تستطيع المرأة الاجتماعية الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها ؟ لأن باجتماعها هذا السرى ، مهما كان تخون زوجها وتخون الاسم الذى قبلته بملء إرادتها وتخون الهيئة الاجتماعية التى هى عضو عامل فيها .

---

(١) أنظر رسائل مى . تقديم جبل جبر منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١ ص ١٦ و ١٧

عند الزواج تعد المرأة بالأمانة، والأمانة المعنوية تضاهى الأمانة الجسدية أهمية وشأنا . عند الزواج تتكفل المرأة بإسعاد زوجها ، وعندما تجتمع سرا برجل آخر تعد مذنبة إزاء المجتمع والعائلة والواجب . ربما اعترضت على هذا بقولك : إن الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديدها فى أحوال كثيرة . فليس لنا إلا أن نعلم « ماهى العائلة » لنجد الواجبات التى يفرضها على أفرادها . ودور المرأة العائلى هو أصعب الأدوار وأوضعها وأمرها .

إنى أشعر شعورا شديدا بالقيود المقيدة بها المرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب . ولكن إذا جوزنا لسلمى « سلمى كرامة بطلة الرواية » ولكل واحدة تماثل سلمى عواطفا وسموا وذكاء ، الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها فهل يصح لكل امرأة لم تجد فى الزواج السعادة التى حلمت بها وهى فتاة أن تختار لها صديقا غير زوجها ، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من هذا ، حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب . »

وللقارئ أن يتلمح فى هذا الخطاب صوراً من نفسية الكاتبة التى فيها من الصفات ما يدفع ومنها ما يمنع . للقارئ أن يجد فى هذا الخطاب الذى كتبته «مى» الشابة الريانة وهى فى نحو السادسة والعشرين من عمرها إلى شاب نازح فنان أديب يشبه عمره كذلك ما بلغته الفتاة من العمر وهو كذلك من جنسها ودينها وبلدها ، وله أدبه وله محاسنه وله قيمته وشهرته . أليس فى شباب هذه الفتاة ما يدفع دفعا إلى هـذا الفتى ؟ لكن فى دينها وتقاليدها ومبادئها ما يمنع الفتاة من مجاراة صاحب «الأجنحة المتكسِّرة» فى التمرد والنزوع اللذين يفصح عنهما كتاب جبران حين يهون على المرأة المحبة أن تتلاقى بالرجل المحب غير عابئة بالقيود وبالحدود . وإن « مى » التى تقف نفسها بين دافع ومانع لتعترف بثقل القيود، وربما تضيق بها، ولكن سلطان الموانع يشدها إلى هـذه القيود شدا وفى النفس أشواق للانطلاق فى جو الهـوى ولكن أجنحة «مى» كانت كذلك متكسِّرة بحكم التقاليد والدين. وتحدثت «مى» فى هذه

الرسالة أيضاً عن لبنان وعن الكتب التى قرأتها هناك فى رحلتها وقالت :
« وكل واحد من مؤلفاتك يا جبران صديق عزيز على »

وفى سنة ١٩١٣ أقيم حفل فى القاهرة لتكريم الشاعر خليل مطران ، وأرسل جبران كلمته عن « الشاعر البعلبكى » لتلقى فى هذا الحفل المقام فى مبنى الجامعة المصرية القديمة الذى عفت الآن آثاره. ووقع الاختيار على « مى » لتلقى كلمة الغريب النازح فى تمجيد مطران . وتقرأ الكلمة الطيبة الحبيبة عمن يحوم قلبها حوله وكان لها فى قراءتها نشوتان نشوة من الكلم الطيب ونشوة من وحى الهوى فأبدعت فى الإلقاء إبداعا .

ويقول لنا جميل جبر فى كتابه القيم الطريف عن « مى » وجبران :
« تواترت الرسائل بين الغريبة والغريب وفيها من مبادلة الرأى والتشجيع والإعجاب غير القليل : « والنفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس ، كما أن الغريب يستأنس بالغريب فى أرض بعيدة عن وطنيهما » .

وفى هذه الأثناء إذ كانت الرسائل تتبادل بين الأديبين الشابين فى الحب تقع الحرب العالمية الأولى وتتعطل المواصلات بين العالم الجديد الذى يعيش فيه جبران وبين العالم القديم الذى تعيش فيه « مى » وكان لهذا أثره فى حرمانهما من ينبوع كان فيه مايلطف حرارة الشوق الوامق إلى التلاقى . والفلك يدور وتتقدم « مى » فى السن ويتقدم كذلك جبران ، وكانت « مى » كجبران نجد فى قراءتها وندوتها ودراستها فى الجامعة مايخفف عنها مطالب النزعات وكذلك كان جبران . ومنتدى « مى » الحافل برواده الأجلاء ، والمعجبون الكثيرون بها من مختلف الأنحاء ، كل ذلك قد يعمل عمله فى حركات التحير والتصادم النفسى بين جنبى الأديبة الكبيرة ولكن برغم تحرك الميول وتذبذبها فالدافع الأقوى يوجه القلب دائما إلى جبران .

وأخيراً وفى سنة ١٩٢٠ ينتهى دور التلميح إلى دور التصريح ، ويكتب جبران لمى خطاباً مرموزاً فيه المبهم وفيه المستور من العواطف ومنه الكنايات

والتعميات، وفيه المبرقع والسافر من رغبات نفسه التى تتوق إلى الاجتماع بها حيث هو ، وفى كن واحد ، فى ظلال الوصل والغرام . وهنا تركت « مى » للأيام أن تمر قليلا وتركت لنزعات نفسها الحيرى أن تتصادم وتتشاور كثيرا ، ولكن النصر كان لنصرانية وتقاليد متأصلة برغم هوى كان صاحبه المتمرد يريده ناجزا ، ومتحللا من القيود . ولكن انتصار المظهر لم يحل دون تباريح الحب والانكسار فى المخبر فإن ميا التى جهرت لجبران برأيها فى قدسية العلاقة الجنسية وإرسائها على قواعد الدين والخلق والتقاليد المشروعة لم تخف وزن تعلقها بجبران برغم ما قرأت له من الكتب التى أهداها إليها ككتابى «المواكب» و « المجنون » وقد أخرجهما فى أثناء الحرب وفيهما تتأكد نزعاته الثورية ، واستهتاره بالتقاليد وتأثره بنيتشه الألمانى كبير المتمردين على الأوضاع القائمة .

وهمت « مى » لتكتب إلى جبران الذى تطاول فى رسائله فى الغزل والمطلب ، وكان لها أن تقطع الصلة ، ولكنها كتبت ما فى مظهره العنف والقطيعة ، وفى باطنه الملاينة والوصال ، فهى كأنها تدفعه بيد وتشده بأخرى وكأن فى كتابها ما يصدق به قول من يقولون عن النساء يتمنعن وهن الراغبات . وجاء فى كتابها ما يلى :

« لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت . وكثيرا ما أنسى أن هنـــاك شخصاً ، أن هناك رجلا أخاطبه فأكلمك كما أكلم نفسى ، وأحياناً كأنك رفيقة لى فى المدرسة . إنما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة ، أتكون المسافة ، وعدم التعاون الشخصى ، والبحار المنبسطة بيننا هى التى كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال ؟ قد يكون . . . . . إلى أن تقول ومرت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب لأنى كنت أقول لنفسى : « يجب أن نقف هنا » . . . أنت قيدتنى (مذنبة) فى دفترك وقت تشكو لأنى كلما « حدقت فى شىء أخفيه وراء القناع ، وكلما مددت يدا أثقبها بمسمار » . . نعم فعلت ذلك متعمدة » تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التى تغزلها يد الغيب

---

(١) انظر رسائل مى — تقديم جميل جبر — بيروت سنة ١٩٥١

وتمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح . وصرت أحرف المعانى وأمسخ الأسئلة وأضحك عند الكلمات التى تملأ العينين دموعاً . وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكرك أنى وحيدة أبوى ؟ قد لا يكون فى العائلة الغربية إلا ولد واحد ، فيقذفون به من انكلترة إلى الهند . أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء . ولكن أين نحن من هؤلاء ، ونحن شرقيون . تعمدت ذلك خصوصا لأوفر على نفسى عذابا هى فى غنى عنه ، ولأ تحايد كل كلمة تقربنى من ذلك الموضوع الذى ملأ روحى شوكا وعلقما فى هذه السنوات الماضية . ففهمت ما أريد وإنما فى غير معناه الحقيق ، وفهمته على وجه لم أقصده . ثم سطت عليك الكبرياء ، كبرياء الرجل ، فنسيت أن السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن الذين تكاتبنا أبدا كصديقين مفكرين . نسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضا وما دام أنه لم يكن الأصل فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر فى علاقاتنا الأدبية الفكرية .

أما صدق القائلون أن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات . آلمنى سكوتك من هذا القبيل ، وأرهف انتباهى ، فأعلمنى أنك لم تشاركنى ارتياحى إلى تلك الصداقة الفكرية لأنك لو كنت سعيدا بها مثلى ، لما كنت رميت إلى أبعد منها . علمت أننى كنت وحدى حيث كنت أظننا اثنين . وقدرتك أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة وأنا كنت أقدرها لذاتها . وصار معنى سكوتك عندى « إما ذاك وإما لا شىء . . . . وأنت أدرى بأثر هذا فى نفسى » .

وفى هذه الرسالة التى كتبتها « مى » لجبران يستطيع القارئ الفطن أن يدرك منها مداورة المرأة الراغبة والمرغوبة ، وهى تمزج التدلل بالكبرياء وباللين وبالاستفزاز فى تلميحات تخالط تصريحات وفى رفق يخالطه العنف .

ويكتب لها جبران معاتباً وآسفا ، ويبدى ما حال بين قدومه إلى القاهرة من أسباب الارتباطات المعنوية ، وقد تكون ثمت أسباب مالية ، وثمت

أسباب صحية كذلك . وانقطع الأديب حيناً عن الكتابة لاشتغاله بإعداد كتاب من كتبه فحسبت « مى » أنه قد آلمه خطابها، فبعثت تعتذر إليه، وتدعوه للعفو والابتسام ونسيان الإساءة ، ويجيبها بما يرق ويطيب من الكلم ليقول(١) :

« أنا المسيء وحدى ، وقد أسأت فى سكوتى وفى قنوطى ، لذلك أستعطفك أن تغتفرى لى ما فرط منى وأن تسامحينى » .

وأهم من تبادل الرسائل الغرامية ما كان يوحيه تخيل الكاتبين المتحابين من روائع الأدب المتناثرة فى صفحات ما يضعانه من المؤلفات . فمى تتخيل جبران وتناجيه فى فصول رائعة من كتابها « ظلمات وأشعة » دون أن تصرح باسم جبران . وكذلك كان يفعل جبران فى آخر كتبه . ومما تقوله فى صفحات كتابها المتقدم الذكر ما يلى :

« أنت أيها الغريب .. أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة ، وكما يعرف السجناء بأرقامهم يعرف كل حى باسمه ، وقد التقينا وسط جماعات المثقفين فيما بينهم على الضحك من سواهم حينا ، والضحك بعضهم من بعض أحيانا. أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوءنى ، لأنى إنما أقلدهم لأريك وجهاً منى جديدا . وأنت أتجاريهم بمثل قصدى أم الهزء والاستخفاف منك طوية وسجية ؟ ولكن رغم انقباضى للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضى للتغافل منك والحبور ، أرانى وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر فى لحظات الكتمان والعبوس والتأثر ، بنظرك النافذ الهادى تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به ، فصرت إذا ما ذكرتك ارتدت نفسى بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق .

لى بك ثقة موثوقة ، وقلبى العتى يفيض دموعا . سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأمانى ، وأبثك شكوى أحزانى ، أنا التى ترانى طروبة طيارة .

---

(١) انظر كتاب مى وجبران لجميل جبر ص ٣٨

وأحصى لك الأثقال التى قوست كتفى وحنت رأسى منذ فجر أيامى ، أنا التى أسير محفوفة بجناحين متوجة بأكليل ، وسأدعوك أبى وأمى متهيبة منك سطوة الكبير وتأثير الآمر .

وسأدعوك قومى وعشيرتى، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين.

وسأدعوك أخى وصديقى . أنا التى لا أخ لى ولا صديق .

وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التى تتخيل فى قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى .

وسأطلب منك الرأى والنصيحة عند ارتباك فكرى واشتباك السبل .

وإذا سيء التصرف وارتكبت ذنبا ما سأسير إليك متواضعة واجفة فى انتظار التعنيف والعقوبة .

وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخط على وأمتثل لآمرك .

وسأصلح نفسى تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمالى حسابا لأحصل على التحبيذ منك أوالاستنكار ، فأسعد فى الحالين . وسأوقفك على حقيقة ما ينسب إلى من آثام . فتكون لى وحدك الحكم المنصف .

ومايحسبه الناس لى فضلا وحسنات سأبسطه أمامك فتنبهنى إلى الغلط فيه والسهو والنقصان . ستقومنى وتسامحنى وتشجعنى وتحتقر المتحاولين والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جنانى كما أكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك ، ولا أصدق سوى نظرتى فيك وهى أبر شاهد . كل ذلك وانت لا تعلم !

سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك . حكاية البشر المجتمعة فى فرد واحد .

وسأستمع إلى جميع الأصوات على أن أعثر على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وامتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك .

وسأتبين فى جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هى شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك .

وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك . فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فيك .

سأتصورك عليلا لأشفيك، مصابا لأعزيك ، مطرودا مرذولا لأكون لك وطنا وأهل وطن ، سجينا لأشهدك بأى تهور يجازف الاخلاص ، ثم أبصرك متوفقا فريداً لأفاخر بك وأركن إليك .

وسأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل .

وسأتخيل ألف ألف مرة إلى أى درجة تستطيع أنت أن تقسو . وإلى أى درجة تستطيع أنت أن تحب .

وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخورا لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه الآخرون .

أتعلم ذلك أنت الذى لاتعلم ؟ أتعلم ذلك ، أنت الذى لاأريد أن تعلم ؟ »

وفى نفس كتاب ظلمات وأشعة أو فى الفصل الذى جعلت «مى» عنوانه «قرب منعطف الطريق» نقرأ ما يلى : «هناك ، فى تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القدر من دواهيه على صدرى جدران الحديد ومعاقل الرصاص ، هناك قرب حلول الشفق برزت فجأة أمامى . وأخذت تتكلم عن معان اختفت طى المعانى ، وأشياء توارت فى الأشياء ، وممكنات حجبت فى المستحيلات ، وخير حصحص وراء الشر ، ونور أشرق فى لجج الظلام ، وسمو تجلى خلال الحقارة . وكانت يدك تتحرك متريثة متأنية فبدت منها الإشارات سحرية ساهية» .

ثم تشير الكاتبة إلى معنى الوجد ثم تقول : « ولكن ، أنى جاء الوجد ؟ أنت لم تكن تهتم بى وأنا لم أكن أهتم بك . ولكن علام تشل أوصال روحى للدنو من مكان حللته ؟ وعلام اضطرابك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالى

عن بعد ؟ . . . أنت لم تكن تعبأ بوجودى وأنا لم أكن أعبأ بوجودك . ولكن لماذا كنت أخاشنك متعملة الإعراض وعدم الانتباه . . . من أنت وماذا كنت؟ أكنت وحيا من فيض شاعريتى المكتظة ، وطيفا من أطياف شوقى وعذابى ؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت فى أفق حياتى مرور السفن فى البحر إلى الشواطىء النائية ؟ لقد كنت وحيا من فيض شاعريتى المكتظة، وكنت طيفا من أطياف شوقى وعذابى . . . يامهذبى » .

وبمثل هذه التعبيرات وعلى نحو هذه النبرات التى نراها مرموزة فيما كتبت «مى» منذ أن تعرفت وترابطت بالقلم وبالفكر وبالخيال وبالقلب مع «جبران» نستطيع أن نبرر ما اتجه إليه المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق حين قال (١) : « للآداب الإفرنجية من غير شك أثر ظاهر فى أسلوب «مى» وفى طريقة معالجتها للموضوعات التى عالجتها . ولعل أثر الآداب الأوربية الذى وصل إلى « مى » من طريق الكتاب السوريين فى أميركا — كتاب المهجر — لايقل عن أثر مطالعتها للآداب الأوربية ذاتها . »

ومهما يكن من أثر لمختلف الآداب فى أسلوب « مى » ، أو مهما يكن من استقلال فى أسلوبها طوعا لذوقها الفنى الخاص ، ونبوغها المميز فلقد كان لأدب « جبران » الرمزى أثره فى بعض روائعها وفصولها بعد أن توثقت الروابط بين الكاتبين الكبيرين وكذلك قد وجهت الأديبة الكبيرة هذا الأديب الكبير بما أوحى إليه ذكاؤها ، وبما أثارته فى نفسه رسائلها ومناجياتها وملاطفاتها ونقدها ، وعتبها ، ودلها ، من عواطف ومن انفعالات أدبية دافقة ومتسعرة .

ومع مرور الأيام فقد تطورت التلميحات والاشارات إلى تصريحات ، وحلت العبارة محل الإشارة ، واكتسحت الصراحة ميادين الغموض والابهام .

---

(١) انظر كتاب « حياة مى » لمحمد عبد الغنى حسن صفحة ٤٧

ولنا أن نتساءل أكان أكسب للأدب وأربى عليه ، عندما يحرك الحب الأقلام، أن يطول زمن الإبهام أو تتغلب الصراحة على الغموض ، ويتأكد النور ويتولى الظلام ؟ وتمر السنون على الإنسان ويتطور جنانه وبيانه ، ويتطور قلبه ويفصح لسانه وماتكاد تحل سنة ١٩٢٤ حتى نقرأ لمى مايلى (١):

«... جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب . إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه فى السهرات والمراقص والاجتماعات ينمى الحب فى أعماقهم قوة ديناميتية رهيبـــة قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم فى اللألأ السطحى لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التى لم تنفجر، ولـكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم، ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهى بمـا لا علاقة له بالعاطفة . يفضلون أى غربة وأى شقاء — وهل من شقاء وغربة فى غير وحدة القلب ؟ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة ؟

ما معنى هذا الذى أكتبه ؟ إنى لا أعرف ماذا أعنى به . ولـكنى أعرف أنك محبوبى وأنى أخاف الحب . إنى أنتظر من الحب كثيراً فأخاف أن لا يأتينى بكل ما أنتظر . أقول هذا مع علمى بأن القليل من الحب كثير . الجفاف والقحط واللاشىء بالحب خير من النزر اليسير . كيف أجسر على الافضاء إليك بهذا ، وكيف أفرط فيه ؟ لا أدرى . الحمد لله . إننى أكتبه على الورق ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولاختفيت زمنا طويلا . فما أدعك ترانى إلا بعد أن تنسى . حتى الـكتابة ألوم نفسى عليها أحيانا ، لأنى بها حرة كل هذه الحرية . أتذكر قول القدماء من الشرقيين : أنه خير للبنت أن لا تقرأ ولا تـكتب ؟

إن القديس توما يظهر هنا . وليس ما أبدى هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء أبعد من الوراثة . ماهو ؟ قل لى أنت ماهو هـذا . وقل لى ما إذا

---

(١) انظر رسائل مى تقديم جميل جبر . منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١

كنت على ضلال أو هدى فإنى أثق بك وأصدق بالبداهة كل ماتقول . وسواء كنت مخطئة أو غير مخطئة، فإن قلبى يسير إليك. وخير مايفعل هو أن يظل حائما حواليك يحرسك ويحنو عليك .

... غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان ، حصحصت نجمة لامعة واحدة ، هى الزهرة إلهة الحب . أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوفون ؟ ربما وجد فيها من هى مثلى ، لها واحد جبران ، حلو بعيد هو القريب القريب ، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلام ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذى تحبه فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقى بالقلم جانبا لتحتمى من الوحشة فى اسم واحد : جبران» .

وتتقدم الأيام ، ويتلظى الحب ، وتتعدد الرسائل الغزلية والغرامية بين « مى وجبران » وحسبى منها ماقدمت . على أن هذه الأيام التى تتقدم بالحبيبين إلى النهاية المحتومة لم تكن لتتقدم دون أن تسقيهما وتعدلها ضروبا من شراب العذاب المادى والمعنوى. فكاتبتنا «مى» تخطو مع الأيام إلى سن اليأس والشيخوخة وكلاهما للمرأة عدو بغيض . وإن فى تنازع أحوالها ومايقع من الاضطراب والتشاد والتناقض بين صفاتها النفسية كل ذلك يتعجل بها إلى الوهن وقد يصور ذلك ما يلى من قولها : (١) « وها أنا ذا أسير فى أطراف مرقص الحياة معانية مايعانيه مساجين الوجود جميعا ، يبرح بى وإياهم الشوق إلى السعادة، وأتلقى مثلهم ذلك الوحى المتجدد بوجودها. وعند كل خطوة خيبة وكمد، وعند كل خطوة أمل وجذل ، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوى الذى يتدفق مرغيا مزبدا إلى حيث لايدرى ، وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها ، عن معنى الألم وغايته ، عن

(١) انظر كتاب ظلمات وأشعة لمى صحيفة ٧١ . دار بيروت للطباعة سنة ١٩٥٢

معنى الطرب وغايته ، وعند كل خطوة سؤال للكون لماذا وجدت النفس الإنسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رنانا عميقا وجيعا . . . »

وجبران الأديب الفنان يتحرق بين فنه وأمله وغربته وغرامه وواقعه وخياله والجسم له طاقته فى احتمال حرارة التحرق والتلهب فيسطو عليه المرض ، ويحز فى صلبه وعظامه ويقطع وينخر فى أنسجته ويقوضها ، ويوهن فى خلاياه وكيانه ، ولكن الفنان الأديب ظل يكافح المرض ويكتب ويرسم ويناجى فى رسائله وكتبه ، من أميركا ومن نيويورك ، حبيبة قلبه المقيمة فى مصر وفى القاهرة . ويزداد ألم الحبيبة بازدياد علمها لأخطار العلة التى تقسو على المحبوب وتتوالى خطاباتها إليه لتسليه وتواسيه ، ولتبثه عواطفها وأشواقها وأمانيها الأليمة . وقد يتمثل ذلك فى رسالة تكتبها إليه فى سنة ١٩٢٥ لتقول (١) : « صديق جبران . لقد توزع فى هذا المساء بريد أوروبا وأميركا ، وهو الثانى من نوعه فى هذا الأسبوع ، وقد فشل أملى بأن تصلنى فيه كلمة منك . نعم إنى تلقيت منك فى الأسبوع الماضى بطاقة عليها وجه القديسة حنه الجميل ، ولكن هل تكفى الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل .

لا أريد أن تكتب إلى إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك أو عندما تنيلك الكتابة سروراً ، ولكن أليس من الطبيعى أن أشرئب إلى أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها حقيبته ! أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل ، حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى بعضها اسم نيويورك واضح . فلا أذكر صديقى ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه ؟

ولتحمل إليك رقعتى هذه عواطفى فتخفف من كآبتك إن كنت كئيبا ،

---

(١) انظر رسائل « مى » تقديم جميل جبر . منشورات مكتبة بيروت . بيروت سنة ١٩٥١

وتواسيك إن كنت فى حاجة إلى المواساة . ولتقوك إذا كنت عاكفا على عمل ولتزد فى رغدك وانشراحك إذا كنت منشرحا سعيدا »

ولكن ماذا كانت تجدى مؤاساة « مى » لمحبوبها إلا إضرام الأشواق وتسعير جذوة الأسى فى روح تتوثب لتقفز من قفصها الواهى المحطم ، ومن عالم الرؤى والأحلام والآمال إلى عالم الحقيقة والاستقرار . ولكن جبران الدائب المثابر فى تدوين أدبه يبعث بخطاب يقول فيه مايلى (١) : « صحتى الآن اردأ نوعا مما كانت عليه فى بدء الصيف ، فالشهور الطويلة التى صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحى وجسدى . أما هذا الطائر الغريب (يعنى قلبه) الذى كان يختلج أكثر من مائة مرة فى الدقيقة فقد أبطأ قليلا بل أخذ يعود إلى نظامه الاعتيادى غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هد أركانى وقطع أوصالى . إن الراحة تنفعنى من جهة أخرى . أما الأطباء والأدوية فمن علتى بمقام الزيت من السراج . لا لست بحاجة إلى الأطباء والأدوية ، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون . أنا بحاجة موجعة إلى من يأخذ منى ويخفف عنى . أنا بحاجة إلى فصادة معنوية ، إلى يد تتناول مما ازدحم فى نفسى ، إلى ريح شديدة تسقط أثمارى وأوراقى .

أنا يا « مى » بركان صغير سدت فوهته فلو تمكنت اليوم من كتابة شىء كبير أو جميل لشفيت تماما . لو كان بإمكانى أن أصرخ عاليا لعادت عافيتى . قد تقولين لماذا لا تكتب فتشفى ؟ . وأنا أجيبك لا أدرى ، لا أدرى ، لا أستطيع الصراخ ، هذه هى علتى ، هى علة فى النفس ظهرت أعراضها فى الجسد . . . وتسألين الآن إذن ، ماأنت فاعل ؟ وماذا عسى أن تكون النتيجة ! وإلى متى تبقى فى هذه الحالة . أقول انى سأشفى ، أقول إننى شأنشد أغنيتى فأستريح ، أقول إننى سأصرخ من أعماق سكينتى صوتاً عالياً . بالله عليك لا تقولى : « أنشدت كثيرا وما أنشدته كان حسنا . لا تذكرى أعمالى الماضية لأن ذكرها

---

(١) انظر كتاب مى وجبران لجميل جبر سنة ١٩٥٠ ص ٦١

يؤلمنى لأن تفاهتها تحول دمى إلى نار محرقة ، الآن نشوفتها تولد عطشى ، الآن سخافتها تقيمنى وتقعدنى ألف مرة ومرة فى كل يوم ، لماذا كتبت تلك المقالات وتلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضن بالقطرات فأدخرها وأجمعها ساقية؟ لقد ولدت وعشت لأضع كتابا ، كتابا واحداً صغيراً لا أكثر ولا أقل . قد ولدت وعشت وتألمت ، لأقول كلمة واحدة حية مجنحة . ولكننى لم أصبر ، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتى؟ لم أفعل ذلك بل كنت ثرثاراً ، فياللأسف ويالليخجل . وبقيت ثرثاراً حتى أنهكت الثرثرة قواى ، وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتى وجدتنى ملقى على ظهرى وفى فمى حجر صلد . لا بأس ، إن كلمتى لم تزل فى قلبى ، وهى كلمة حية مجنحة ولا بد من قولها . لا بد لتزيل بوقعها كل ما أوجدته ثرثرتى من الذنوب . لا بد من إخراج الشعلة » .

وفى سنة ١٩٢٥ سافرت مى من مصر إلى ايطاليا لتسرى عن نفسها العانية بعض ما تلاقى من الحرمان والهموم التى يرد الكثير منها إلى سقام جبران وآلامه وتكتب « مى » لجبران لتلح عليه فى العودة إلى شرقه الحبيب ويكتب جبران لمى ليقول(١) : « حبذا لو كنت مريضاً فى مصر ، حبذا لو كنت مريضاً بدون نظام فى بلادى قريباً من الذين أحبهم . أتعلمين يامى أنى فى كل صباح ومساء أرى ذاتى فى منزل فى ضواحى القاهرة وأراك جالسة قبالى تقرئين آخر مقالة كتبتها أو آخر مقالة من مقالاتك وهى لم تنشر بعد؟ أتعلمين يامى أنى مافكرت فى الانصراف الذى يسميه الناس موتا ، إلا وجدت فى التفكير لذة غريبة وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل؟ ولكنى أعود فأذكر أن كلمة لا بد من قولها فأحار بين عجزى واضطرارى وتغلق أمامى الأبواب . لا ، لم أقل كلمتى بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان . وهذا مايجعل الوقوف عن العمل مراً كالعلقم . أقول لك يا « مى » ولا أقول لسواك ، إنى إذا انصرفت قبل

---

(١) انظر كتاب مى وجبران لجميل جبر ص ٦٦

تهجئة كلمتى ولفظها فانى سأعود لأقول الكلمة التى تتمايل الآن كالضباب فى سكينة روحى . أتستغربين هذا الكلام ؟ إن أغرب الأشياء أقربها للحقائق الثابتة ، وفى الإرادة البشرية قوة اشتياق تحول السديم فينا إلى شموس »

وتمهن حالة جبران فى السوء وجبران يدأب فى إخراج كتابه « يسوع ابن الانسان » وتجىء سنة ١٩٢٩ وتشرع الرابطة القلمية فى تهيئة عيد فضى لجبران الذى يبلغ حينئذ نحو الخمسة والأربعين عاما وتعمل مى وتجد فى الدعاية لذلك لتشترك البلاد العربية فى تحية ذلك الكاتب المحبوب وتجىء سنة ١٩٣٠ ولا تكاد تنتهى حتى مات جبران وانطفأ سراجه .

النهاية الأليمة :

فى سنة ١٩٣٠ مات جبران الذى كانت حياته وإنتاجه وآماله وآلامه ، وحبه لمى تفيض كلها بما يحبب إليها الحياة . وقد مات قبله صروف ذلك الشيخ الحكيم الذى أجلته « مى » وجعلت منه رائدا علميا وروحيا وصديق صدق تعتز بصداقته وتوجيهه ، ومات أبوها ورأيتها تتقبل فيه عزائى مع بعض الإخوان المعزين وهو لم يزل فى غرفة موته وأمها الشيخة تجلس أمامها فى بهو الدار مولولة ناحبة ، والأديبة تصطنع التجلد ، وهى فى آلامها الغائضة وفى لباسها الأسود تجلس فى كبرياء وجلد وخشوع ، ثم ماتت أمها الشيخة الطيبة الحنون . أين خلصاؤها ؟ . وأين ممجدوها ؟ . وأين مدللوها ؟ . لقد خلا محيط الكاتبة من الخلصاء والأهل . ومن ولى الدين يكن ومن إسماعيل صبرى والدكتور شبلى شميل ومن صديقتها باحثة البادية ومن إليهم ، وخلا ممن كان لهم حاجة من ظرفها اليانع أكثر من مآربهم فى أدبها البارع ، وعلمها الواسع . لأن « ميا » خلت كذلك من شبابها ، ومن ذلك الحسن والبهاء الساطع . فهى حينئذ فى نحو الخامسة والأربعين . وهى حينئذ فى تلك السن التى كثيراً ما تتعرض فيه الكثيرات من العوانس لنوع من العصاب والأمراض النفسية الغادرة .

وبدا لى أن تستعين بالسياحة . وفيها كما يقال علاج تقليدى لتخفيف الأسى والشجون . وفيها مقاومة ودفع لأطياف الحزن إذ تتوالى وتزدحم على النفوس المقدر عليها الأحزان فسافرت فى سنة ١٩٣٢ إلى فرنسا وانكلترا . ولكن هيهات أن يكون الدواء المسكن من الأسفار شافيا .

ثم عادت إلى مصر لتقرأ وتؤلف . ثم سافرت إلى ايطاليا لتدرس ولتقاوم الألم . ثم ترجع مع قلقها واضطرابها إلى القاهرة ثم تعود إلى روما من جديد ثم ترجع إلى القاهرة ، وكان كل ذلك فى حوالى سنة ١٩٣٤ . وفى سنة ١٩٣٥ يزداد سأمها ووهنها وضعفها وترغب فى السفر إلى لبنان حيث كانت النشأة ، وحيث تكون ذكريات الصبا ، وحيث يكون ماعساه ، من هوائه ومناظره ومائه ، أن يلطف من علل واضطراب ووهن وحب جريح وكتبت إلى ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة مايلى (١) :

« عزيزى جوزيف . منذ مدة طويلة لم أعد أكتب وكلما حاولت ذلك شعرت بشىء غريب يجمد حركة يدى ووثبة الفكر لدى .

إنى أتعذب شديد العذاب ياجوزيف ، ولا أدرى السبب ، فأنا أكثر من مريضة ، وينبغى خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه فى وحولى . إنى لم أتألم أبدا فى حياتى كما أتألم اليوم ، ولم اقرأ فى كتاب من الكتب أن فى طاقة بشرى أن يتحمل ما أتحمل . وددت لو علمت السبب على الأقل . ولكنى لم اسأل أحدا إلا وكان جوابه : لاشىء ، إنه وهم شعرى تمكن منى .

لا ، لا ، ياجوزيف . إن هناك أمرا يمزق أحشائى ويميتنى فى كل يوم ، بل وفى كل دقيقة . . . لقد تراكمت على المصائب فى السنوات الأخيرة وانقضت على وحدتى الرهيبة التى هى معنوية أكثر منها جسدية فجعلتنى اتساءل كيف يمكن عقلى أن يقاوم عذابا كهذا .

---

(١) انظر رسائل مى تقديم جميل جبر . منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١ ص ٧٤ و ٧٥

وكان عزائى الأوحد فى محنتى هذه مكتبى ووحدتى الشعرية ، فكنت أعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلى أنسى فراغ سكنى ، أنسى غصة نفسى ، بل أنسى كل ذاتى . . إنه ليدهشنى حقا كيف انى استطعت أن أكتب هذه الرقيمة . ولعل الفضل فى هـذا يعود جزئياً إلى اللفائف التى أدخنها ليل نهار — أنا التى لاعهد لى بذلك — أدخنها لتضعف قلبى هـذا القلب السليم المتين الذى لايزال يقاوم . واسلم لابنة عمك » . مارى .

ولقد يتزايد العذاب والحزن على هـذه الأديبة التى تقرر أن المصائب تتراكم عليها فى السنوات الأخيرة وتنقض على وحدتها المعنوية الرهيبة . تنقض المصائب على هذه النفس الرقيقة الحزينة ، وتطوق هـــذا الضمير الحســاس اليقظ ، فتمعن « مى » فى العزلة وتركن إلى الوحدة الموحشة . وتسلمها هذه الوحدة إلى إهمال ذاتها واذكاء غضبها على الوجود وتشاؤمها من الحياة ومن الناس والأيام ، وتثير فى نفسها استعدادا للشجن كامنا ومتأصلا ، وتثير من علمها وعقلها نزعات للنظر والارتياب بجانب ماكان يدفع به المحصول العلمى الواسع فى تلك النفس من نزعات الثقة والتفاؤل . بل تشعل تلك الوحدة ذلك التشاؤم العلائى القاتل بما خلفته السنون وتوالى الأيام من ذكريات لماضيها الذاوى الراحل ، وشبابها الذابل ، ونجمها الآفل . . ! وأصبحت نفس «مى» مختبرا لتلاقى النقيض بجوار النقيض من الذكريات والنزعات ، وأصبح خيالها مرتعا لمختلف الرؤى والأطياف من مفزع ، ومحزن ، ومؤلم ، ومطمئن ومسالم ، ومخاصم ، وكأن الأديبة فى مختبرها فى ذات نفسها ، وفى وحدتها الرهيبة تبدو لتشاهد فصلا من فصول فلسفتها حين قالت فى كتاب المساواة « من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض ، تجعل الاكمة الجرداء قرب البحر الزاخر ، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار .. ما أقامت ارتفاعا إلا أوسعت تخومه تجويفا .. »

ويشيع النبأ الأليم عن عزلة مريرة لمى ، تصر أن لاتتحول عنها ولاتريد أن يقتحمها عليها مقتحم .

ودفعتنى جرأة الشباب حينذاك ، وبتأثير هزة من الأريحية التى لاتخلو منها النفوس طرقت على الأديبة بابها فى أصيل يوم من الأيام ولعل ذلك كان فى سنة ١٩٣٦ وثابرت فى دق الجرس . وفتح الباب فى مواربة فهرولت إلى الداخل فإذا بالسيدة التى فتحت لى الباب إنسانة نفشاء الشعر ، مشعثة الرأس ، شاحبة الوجه ، مقرحة العين يلف جسمها المترهل ، جلباب أبيض فضفاض ، ويلابسه أشعة صفراء من ضوء خافت يرسله مصباح كهربى صغير يتدلى من سقف الدهليز ، إنها «مى» الآفلة ولم اتبين منها ومن بقايا شروقها إلا ابتسامة باهتة تتأرجح على شفتين تحاول أن تغروهما طلائع النحيب ووساوس الهموم .

ووقفت السيدة فى مدخل الدهليز دون أن تتكلم والابتسامة الذابلة الحائرة تتردد على ثغر عهدته حافلا بالسناء ومليئا ، فيما مضى ، بأزهر البسمات ولكنه اليوم كاد أن يكون متقلصا من ألم . وكانت الأديبة تخمرنى بكل نظراتها وتصوبها إلى هيكلى وكأنها كانت ترفقها بتيار من عذوبة وحنان .

ولكنها لم تشر إلى بالدخول إلى غرفة الاستقبال ولم تستدرجنى إليها ، حتى ولم تشر إلى بالجلوس على مقعد من المقاعد المبعثرة فى المدخل ، وظلت واقفة أمامى ناظرة إلى وهى شبه باسمة وباكية ومتوسلة . على أننى لم أفقد رباطة الجأش وحرصت على أن تصل كلماتى المحددة القصار إلى نفسها وتنفذ إليها فى الأعماق . فقلت فى نحو مايلى :

سيدتى إنى أتكلم بلسان المعجبين والأصدقاء ، وأرفع لك صوت كل من يقدرونك راجياً ألا تترددى فى تكليفهم وتكليفى بجميع ماترومين أن يؤدى لك من خدمات ، ولا تستسلمى للعزلة ، ولا تضعفى للهموم ، وأفسحى لك فى الرياضة مجالا .

سيدتى إننا جميعا فى خدمتك عن رضا فلا تضنى علينا بها لتدخلى على أنفسنا الفرح والسرور .

ولكن السيدة التى أوجه اليها كلماتى القاطعة الصادقة لا تجيب ، وتظل تغمرنى بنظرات فيها العطف وفيها الحنان .

وتطفر الدموع إلى عينيها الجميلتين الذابلتين وتنطق فى همس بنحو تلك الكلمات المبهمات المتقطعات البعيدات من صوغ العبارة المتصلة والخاليات من المعنى المتسلسل الصريح : « شكراً شكراً . لاشىء لاشىء أريد النوم . رب لم كانت الخطيئة . »

وأدركت أن الأديبة لاتريد أن يقتحم عزلتها أحد ، فخرجت ورد الباب ورائى فى رفق ، وأخذت أضرب فى الشارع وفى خيالى صورة للكاتبة الآفلة وفى نفسى تأثر عميق إلى أن استقر بى المقام فى مقهى أو فى مقصف غير مأهول فجلست وأخذت أقول لنفسى : ألا إن الحسنات قد تؤذى أربابها ، وأن الفضائل قد تضيع أصحابها .

وأعلم بعد ذلك أن ميا سافرت إلى لبنان وأنها ادخلت إلى مصح العصفورية وظلت فيه نحو ثمانية أشهر ، واعلم كذلك أنها انتقلت من ذلك المصح إلى مستشفى الدكتور نقولا ربيز ببيروت فى سنة ١٩٣٨ وزارها الكاتب الكبير أمين الريحانى بهذا المستشفى ولكنه لم يظفر بما كان يأمله من طيب نفس الأديبة إليه وفرحها بلقائه بعد رحلة له فى أميركا ولم يكن حظه من تلك الزيارة إلا الصدود برغم استنجاده بالآنسة بدرية كريمة السيد عطا الأيوبى من دمشق التى كانت تأنس الأديبة بها وتطمئن إليها وهى فى محنتها العصيبة .

واعلم كذلك أن ميا تنقل من هذا المستشفى إلى منزل خاص برأس بيروت تطل شرفاته على قمم الجبال المكللة بالثلوج ويتمتع الناظر منها بجميل مرائى الطبيعة اللبنانية وروائعها على أشد مايكون المتاع وتنفتح أبواب هذا المنزل لفئة مختارة من خلصاء « مى » الذين ناصروها فى محنتها وجاملوها يوم انصرف عن مجاملتها من تفرقوا عنها حين أحاطت بها شجونها والأوصاب والعلل ، واعلم بعد ذلك أنها تركت هذا المنزل ثم آوت إلى الفريكة فى جوار فيلسوفها أمين الريحانى .

وكنت فى لبنان فى سنة ١٩٣٨ وبدا لى ، بتأثير ذلك الدافع المعنوى الذى دفعنى فى القاهرة لاقتحام عزلة «مى» ، أن أزورها حيث تكون . فذهبت إلى الفريكة وصحبتنى زوجتى أم وائل وقصدنا إلى دار الريحانى . ويسهب الريحانى فى حديثه فتارة يحدثنى عن بلاد العرب ويمسك بزجاجة يملأها الرمل الناعم ويقول بلهجته الظريفة هذا هو رمل الدهناء يارجل وتارة يأتى بسيف طويل فأمسكه وأخرج بعضه من الغمد والريحانى يتابع حديثه عن عبد العزيز بن سعود ويقلد لهجة الملك العظيم المرهوب فتنقلب السين شبه ثاء على لسان فيلسوف الفريكة ويذكر أن عبد العزيز كان يقول هذا من «ثيوفنا» يارجل ويعمل الريحانى على تبديد الوقت بحديثه الممتع فى شتى الأمور ، وبتقديم ما يطيب من طعام وفاكهة وشراب . ولكنى أستحثه على أن يهيىء لى زيارة لمى وكانت تسكن فى دار غير بعيدة من داره الرابضة فى بطن الوادى . وينبئنى الريحانى بعد وقت طويل أن لمى أوقاتا تحرص فيها على العزلة . فأدركت أنها مازالت فى حوزة تلك الحالة النفسية وفى ذلك العصاب والشذوذ الذى يلابس الجنون ، وإنهـــا مازالت فريسة لذلك التفاعل المخيف الذى ينزل بنفوس حساسة مرهفة تتجاذبها المحاسن والفضائل وشتى المطالب والمطامح فتتلف من سويتها وتنحرف بها عن المألوف . وخرجت من دار الريحانى لأعود إلى حيث كنت أقر فى لبنان وفى سوق الغرب وأردد فى نفسى وفى أمر «مى» ما كنت رددته فى شأنها من نحو عامين قبل زيارتى للفريكة : حقـا إن الحسنات قد تؤذى أربابها وإن الفضائل تضيع أصحابها وأخفقت فى تحقيق رغبتى من زيارة «مى» كما أخفق الريحانى من قبل عندما سعى لزيارتها بمستشفى الدكتور ربيز أنها كانت تصد عن رؤية الاصدقاء وعن الناس لما وقر فى نفسها أن الناس لا يؤدون لهـا حقها عليهم . ولم لا يكون ذلك بعد أن كانت فى ماضيها ملء السمع والبصر والأفواه والأفئدة بما تتحدث به وتقوله وبما تتمنع به وتمتع به من سمات الظرف وبما تذكر به من المديح والتمجيد وصيغ الثناء . والمرأة الحساسة طالما يغرها الثناء وهى فوق ذلك كالزجاج وكالقوارير إذا لم تترفق

بها الحوادث والأحوال والأيام فأنها تتعرض للأذى وسرعان ماتتحطم وتتكسر . وهل ترفقت مطامح « مى » وذكاؤها وصفاتها ، ونهمها فى العلم ، ومختلف فضائلها ، وما لحق بها ولاحقها من تدليل ، هل ترفق كل ذلك بذات نفسها حتى يحفظها الترفق من التحطيم النفسى وحتى يحول بينها وبين ما أصابها من إنحراف وأعراض تشبه الجنون وتلامسه ؟ ! .

ومهما يكن من القول فى شأن انحراف « مى » وفى محنتها من الشذوذ العقلى فى كهولتها فقد انشغل الرأى الأدبى العربى العام إلى مدى بعيد بأمر هذه الكاتبة الكبيرة ، وتناولت الجرائد وبخاصة جريدة المكشوف ، ماجادت به أقلام الكتاب والمعجبين بها والمنتصرين لمى مما فيه الدليل الكافى على تقدير مكانتها والإهتمام بها . وبذلك كانت « مى » من ذوات التأثير فى الناس سواء أكان ذلك فى شروقها أم فى الغروب . ولمناسبة مكانتها وأثرها يصح أن أشير إلى ما كان لهذه الأديبة من تقدير عند أهل الرأى والعلم من الأجانب إيطاليين وفرنسيين وغيرهم مما كان فيه كسب لسمعة المرأة العربية ولرصيدها فى ميدان الثقافة الواسعة والأدب .

وفى سنة ١٩٣٨ إنجاب عن « مى » بعض الشذوذ الذى أصابها وبدا لها أن تعود إلى القاهرة . وفى صباح يوم إذ بها تدخل إلى مكتبى بدار الكتب وترافقها صديقة لها من إحدى البلاد العربية الشقيقة . وما كان أطيبها من مفاجأة . وجلست « مى » على متكأ بجوارى وابتسامة منها عريضة وموصولة تحيط بها إشراقة تدخل الجالسة الكبيرة العانية فى إطار وقور . ونظرات منى محدقة وموصولة ورامقة تتقيد عند كل هذه الجالسة التى قدر لى أن أراها باسمة فى زيها الباهى المنسق بعد أن رأيتها لآخر مرة فى مباذلها مشعوثة الرأس باكية العين . ولكن « ميا » لم تتكلم أو لعلها همست بشىء تافه لاتحرص النفس التى اهتزت لرؤيتها أن تعيه . وتكلمت رفيقتها وأتاح لى كلام الرفيقة أن أثرثر كثيرا حول الكتب ، وحول الفن العربى ، وأطيل فى ثرثرتى دون أن أتحول

بنظرى وبكلى عن «مى» لعلى أستشف شيئا أستدل به على نفسية الكاتبة ،ولعلى كنت أتنسم طويلا من شذى وردة ذابلة .

وانصرفت الأديبة من مكتبى وصحبتها إلى بابه ، وهى تسير فى حركة وئيدة رزينة مع الابتسامة والإشراقة وهما يتموجان حول هيكلها ويغرقانه وكان لسانى يردد : فى حفظ الله وإلى اللقاء القريب . . وتومئ برأسها عند الباب وتلمع فى ثغرها الابتسامة الحانية العاطفة كلمعة البرق الخاطف وكأنى بهاتف يوحى بمعنى وداع رهيب .

أترى جاءت « مى » الرقيقة الحساسة إلى مكتبى إذ طاف بذاكرتها شبح مسعاى الكسير المخفق لا زورها فى وادى الفريكة فرأت أن تعتذر وتمسح عن نفسى ألم الإخفاق وتكافئ القصد الجميل ؟ !

أترى جاءت لذكريات مضت،ولتزور من سجلت له بخطها كلمة على صفحة من كتاب ابتسامات ودموع أنه « الذى جمع فكره بين العمق والعذوبة ».

ومهما يكن من البواعث والدوافع التى دفعت « بمى » لزيارتى بدار الكتب .. فإنها كانت الزيارة الأخيرة وكانت زيارة الوداع .. ساءت صحة الكاتبة أليفة العزلة والشجن بعد أن طلعت للناس وبدا عليها مظهر من مظاهر السلامة والعافية يشبه أن يكون كطلعة شمس فى يوم من أيام الشتاء الحافلة بركام السحب فلا تتلبث الشمس قليلا حتى تخفيها السحب وتحجبها الغيوم.

آوت الأديبة إلى مستشفى المعادى . وعلى غرفة من غرفه المتشابهة، وعلى سرير من تلك الأسرة الحديدية الصغيرة .. كان لابد أن تمر بخيالها أطياف من صور الماضى وأيامه الزاهية والمتعبة وصور من ذكريات جبران ومناجياته . وفى وحدة قاسية حيث لا تحوم حول «مى» فى المحيط الموحش عاطفة بنوة أو رحمة أبوة أو حنان أخوة أو ولاء صداقة صادقة بعد أن فوتت الأقدار على الكاتبة حاجة المرأة من الأمومة ، وفى منتصف الليل وفى الساعات الأخيرة من ثلثى شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ تهرول الراهبة إلى غرفة الكاتبة وإذا بشهيق وإذا بالتنفس يضيق ، وإذا الطب يخفق ، وإذا

بخفقة أخيرة للقلب الكبير المعذب الموجوع عند الضحى ؟ ! .

ماتت « مى » بنشر نعيها واسعاً فى جرائد العرب وفى أسى . ويدعو الإتحاد النسائى المصرى بلسان مؤسسته وزعيمته المرحومة هدى شعراوى لإقامة حفلة تأبين لمى دعيت مع غيرى لنقول فى تحيتها ورثائها ما قلناه فى يوم الخميس ٤ ديسمبر سنة ١٩٤١ .

وتقول الداعية هذا يوم عرس « مى » ويتبارى الراثون من عظماء الكتاب والشعراء فى تحية ذكراها فهذه ابنة الشاطئ تحسن فيما قالت عن « مى »(١) : « إن أكثركم قد رآها فى هالة من أضواء الشهرة ، يتوجها إكليل من المجد وتضج حولها صيحات الهتاف ، فهل منكم من غالب الأضواء فرأى فى إهاب الكاتبة الشهيرة ، الانسانة التى تتوجع وتتألم وتتلوى ، والناس من حولها يهتفون لها ! ! ؟ . . » . إلى أن « تقول حطمها ضلال الأمل ، ومزقتها أشواق الأمومة ، ووقفت فى تيه الحياة يناوشها الظمأ والبرد والحرمان » .

وهذا الكاتب الكبير العقاد تدفعه شاعريته الصادقة المتسعرة فينشد قصيدة رائعة فياضة بالعواطف العامرة ويقول :

أين فى المحفل « مى » يا صحاب ... عودتنا ها هنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب ... مستجيب حين يدعى مستجاب
أين فى المحفل « مى » يا صحاب

سائلوا النخبة من رهط الندى ... أين مى ؟ هل علمتم أين مى ؟
الحديث الحلو واللحن الشجى ... والجبين الحر والوجه السنى
أين ولى كوكباه ؟ أين غاب ؟

أسف الفن على ملك الفنون ... حصدتها وهى خضراء السنون
كل ما ضمته منهن المنون ... غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات وبأس وعذاب

شيم غر رضيات عذاب ... وحجى ينفذ بالرأى الصواب

(١) أنظر ذكرى مى مجموعة الخطب التى ألقيت فى حفلة تأبينها المطبعة العصرية ٢٥ ، ٢٦ .

وذكاء ألمعى كالشهاب وجمال قدسى لا يعاب
كل هذا فى التراب . آه من هذا التراب

كل هذا خالد فى صفحات عطرات فى رباها مثمرات
إن ذوت فى الروض أوراق النبات رفرفت أوراقها مزدهرات
وقطعنا من جناها المستطاب

من جناها كل حسن نشتهيه متعة الألباب والأرواح فيه
سائغ ميز من كل شبيه لم يزل يحسبه من يجتنيه
مفرد المنبت معزول السحاب

الأقاليم التى تنميه شتى كل نبت يانع ينبت نبتاً
من لغات طوفت فى الأرض حتى لم تدع فى الشرق أو فى الغرب نبتا
وحواها كلها اللب العجاب

يالذاك اللب من ثروة خصب نير يقبس فى حس وقلب
بين مرعى من ذوى الألباب رحب وغنى فيه وجود مستحب
كلما جاد ازدهى حسناً وطاب

كل ما أنبت من شعر ونثر كرحيق النحل فى مطلع فجر
قابل النور على شاطىء نهر فله فى العين سحر أى سحر
وصدى فى كل نفس وجواب

حى «ميا» إن من شيع ميا منصفا حيا اللسان العربيا
وجزى حواء حقاً سرمديا وجزى ميا جزاء أريحيا
للذى أسدت إلى أم الكتاب

للذى أسدت إلى الفصحى إحتسابا والذى صاغته طبعاً واكتسابا
والذى خالته فى الدنيا سرابا والذى لاقت مصابا فمصابا
من خطوب قاسيات وصعاب

أتراها بعد فقد الأبوين سلمت فى الدهر من شجو وبين

وأسى يظلمها ظلم الحسين ينطوى فى الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتراها بعد صمت واباء سلمت من حسد أومن غباء
ووداد كل مافيه رياء وعداء كل مافيه إفتراء
وسكون كل ما فيه إضطراب

رحمة الله على « مى » خصالا رحمة الله على « مى » فعالا
رحمة الله على « مى » جمالا رحمة الله على « مى » مجالا
كلما سجل فى الطرس كتاب

تلكم الطلعة مازلت أراها غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراء أضاءت فى سناها وفروع تتهادى فى رجاها
ثم شاب الفرع والأصل وغاب

غاب والزهرة تؤتى الثمرات ثمرات من تجاريب الحياة
خير مايؤتى حصاد السنوات بعثرتهن الرياح العاصفات
ورمتهن ترابا فى خراب

رد ما عندك ياهذا التراب كل لب عبقرى أو شباب
فى طواياك اغتصاب وانتهاب خلقا للشمس أو شم القباب
خلقا لا لإنزواء واحتجاب

ويك ماأنت براد ماليك اضيع الآمال ما ضاع عليك
مجد « مى » غير موكول إليك مجد « مى » خالص من قبضتيك
ولها من فضلها ألف ثواب

ويقول خليل مطران فى قصيدة ممتعة :

أقفر البيت أين ناديك يامى اليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا فى ذراك الرحيب يعتمرونا

فتساق البحوث فيه ضروبا ويدار الحديث منه شجونا
وتصيب القلوب وهى غراث من ثمـــار العقول ماتشتهينا

ويقول الشاعر الفتى عادل الغضبان من قصيدة مؤثرة :

اخترت سكناك فى داج من الحفر يامن عرفناك ملء السمع والبصر
دفنت فكرك فيها قبل مادفنوا جثمانك الغض بين الترب والحجر

* * *

يامى كنت هزار الشرق يسحره صداحك العبقرى الآى والسور
رانت ببابك ألوان الفنون كما ران الخمائل ألوان من الزهر
ضمنته نفحات النيل أو عبقا من الشآم ومن لبنانه العطر
فن كأن به من بابل أثرا يختال سامعه كالشارب السكر
فن تلقته عن مى جوانحنا كصوب حق إلى الألباب منحدر

* * *

قولى لمن يبتغى للعرب آصرة إن الثقافة فيهم أوثق الأصر

وإن المتأمل فى هذه القصائد وفى غيرها مما قيل فى « مى » يجد القوم مجمعين على ما حباه الله بهـا من عبقرية ومن ظرف ومن علم واسع ، ومن استقلال الشخصية ، ومن تأثير لها فى منتداها ومن خدمتها للغة ، ومن احتمال للعذاب والأسى فى صبر وشمم ومن غير ذلك مما رقت به إلى مكانة سامية ومنزلة رفيعة .

والآن وأنا فى موقف الذكريات ، والتحدث عن هذه الأديبة الشرقية النابهة الخالدة الأثر يمر طيفها بخيالى كما أتلمح فيه ومضات مما فات من ذكرى الشباب . آراء تواصلت وتقاربت وتناءت ، وهمسات نفسية تجاوبت وتآلفت مع همسات . ومضت صاحبة هذه الآراء ومخرجة هذه الهمسات كما مضى غيرها . مضت وأبقت للتاريخ من آثارها الفكرية وهمساتها ما قد يردده التاريخ أو يغفله ، أو ما قد يتضوع روحه فى الأجيال أو يتطوح

ريحه فى عوالم النسيان . مضت ومضى عارفوها وذاكروها ومؤرخوها وإنى كغيرى من العارفين والذاكرين والمؤرخين سأمضى كما مضوا ، وقد يفوتنا أن نذكر عنها ما كان جديراً بالذكر ، وقد نقدر لها ما لا يرضى الحق أو يرضى بعض الناس أن يكون موضعاً للتقدير . وقد نخطىء لها ماليس بخطأ ، وقد نصوب لها ماليس بصواب ولكن روحها إذ تسبح على حد تعبيرها فى « الفناء الأنور ، فى البقاء الأوحد ، فى حضن الله . » ستلقى الحكم القاطع عند ذلك الحاكم العادل ، عند الله ، حين يحفظ لهـــا مكانها فى عالم الرحمة والتكريم ويضعها فى مركزها من عالم التمجيد والتعظيم .

فهـــرس

الصفحـة

المقـــدمة ١

عائشة التيمورية ٣

وردة اليازجى ٤٧

باحثة البادية ٥٣

رثاء باحثة البادية ٩٥

مى الأديبة ٩٨

النهاية الأليمة ٢٠٣

ظهر للمؤلف مطبوعا بالفرنسية

La Condition de la Femme dans la Tradition et l'évolution de l'islamisme

Paris, librairie Félix Alcan, 1913

Lettrés et illétrés

Genève 1929

وبالعربية

خطرات نفس — مطبعة المعارف ١٩٣٠ القاهرة

هيرمان ودوروتيا — نظمها شعراً الشاعر الألمانى جوتى ونقلها إلى العربية الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية طبعة المطبعة الأميرية بولاق سنة ١٩٣٢

الضعف الخلقى وأثره فى حياتنا الاجتماعية — ١٩٤٠ القاهرة

كلمة فى ذكرى المولد النبوى — ١٩٤٢ القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية

أوقات الفراغ وكيف نستثمرها — ١٩٣٦ مطبعة الهلال القاهرة

تصويبات

نأسف على حصول أخطاء مطبعية سببها غياب المؤلف عن القاهرة أثناء الطبع . وقد أمكن إصلاح بعضها والبقية متروكة لفطنة القارىء :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٩	وتعبر	اذ تعبر
٢	١ هـ	لى	لمى
٣	٤	بنفسها	بنفسه
٣	١ هـ	(١) و (٣)	(١) و (٢)
٤	٩	(١)	
٤	١ هـ		يعود الهامش للرقم (٢) فى الصفحة السابقة
٤	١٢	والنبلاء والمرأة	والنبلاء والسراة
٦	١٤	خطابى	خضابى
١٦	٨	يا كتر	يا كنز
٢٢	٢	ست وستين	ستة وستين
٢٢	١٨	من غير	من غبر
٢٢	٣ هـ	السنوات العشرة	السنوات العشر
٢٤	١٨	وقعها	ووفقاً
٢٧	٢١	وندبهـا	وندبهما
٣٢	٢	يحس	يحسن
٣٣	١٣	لبعضها	لبعضهم
٣٣	١٣	يجرى	او يجرى
٤١	٦	تطلع	تضلع
٤٣	٢	تزخر منها	تزخرفها
٤٦	٤	فى التضحية	فى النصيحة
٤٩	٦	سنة ١٩٥٤	سنة ١٩٢٤
٤٩	١٧	يثنية	بثينـة
٤٩	٢٣	رسول	سول
٥١	٣	كالغنصل كالصل	كالنصل كالغض
٥٧	٧	وأسالب	وأساليب
٦٥	٥	أحبت	أحببت
٦٦	٨	عليها	عليه
٦٧	١ هـ	فقد	فقدت
٧١	٣	علمـاً	عالمـاً
٧١	١٤	التقاليد	التقاليد والـكثير
٧١	١٦	داشرة	دائرة
١٠١	٩	( )	(Pirandello)
١١٣	٢١	واذا	واذ
١١٥	٣	تتجلى	يتجلى
١١٥	١٠	يعتى	تعنى
١١٥	١٢	ومايهىء	ومما يهىء
١١٥	٢	لا يتساهلون به	لا يتساهلون فى
١١٦	٩	موفوراً	موفور
١١٨	٥	لدانونيو	لدانتزيو
١١٨	١٦	بأفعال	بأمثال
١١٩	١٥	وأثبت التعليق أثبت	وأثبت التعليق وأثبت
١٢٠	٢٢	فـكيف يسر	فـكيف يتيسر
١٢١	١	للضمائر	الضمائر
١٢٢	١٨	الراقى ان	الراقى اذ أن
١٢٢	٢٢	المتذقون	المتذوقون
١٢٣	٣	فيرتب بجموع جرسها	فيترتب من بجموع جرسها
١٢٥	٢٤	تنعم بها ونشق	تنعم بها ونشق والفائدة
١٢٦	٣	والقائد	
١٢٨	٢٢	هناترة	عناترة
١٢٩	٢	الاقتراض	الافتراض
١٣٢	١٦	تتقابل	تتناول
١٤٥	٩	شفة البحر	شط البحر
١٥٤	٣	هؤلاء القيود	هذه القيود

Back

*PB-33806-SB
75-31T
CC

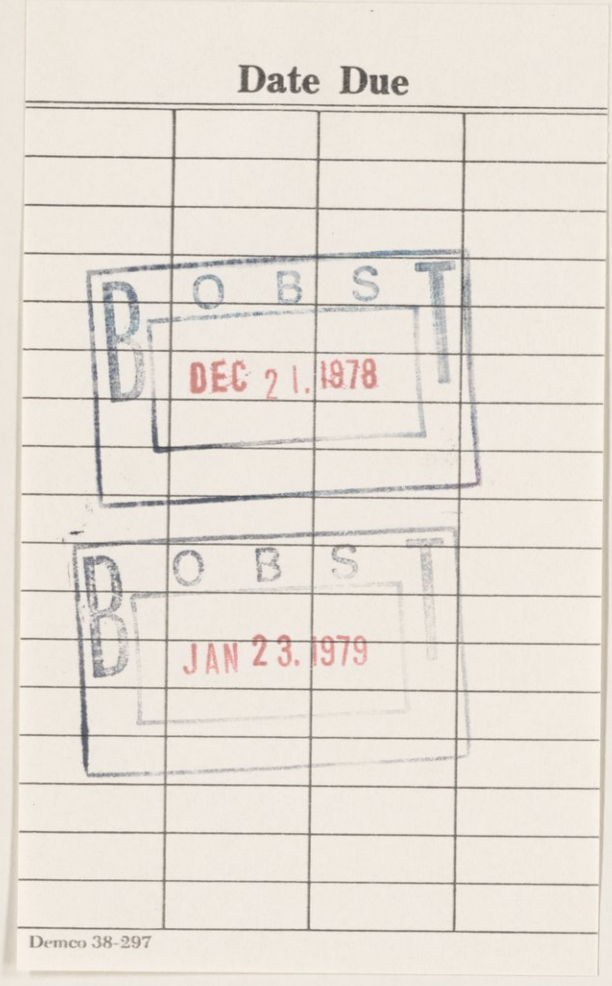

Date Due

BOBST
DEC 21 1978
BOBST
JAN 23 1979

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 00314 7785
PJ7876.I9 Z6
Mu´¿a´¿ara